يوسف عز الدين

حلو
الذكريات ومرها

دراسة للمجتمع العربي وثقافاته المعاصرة

دار الابداع الحديث
القاهرة ١٩٩٢

يوسف عز الدين

حلو الذكريات ومرها

دراسة للمجتمع العربى وثقافاته المعاصرة

دار الابداع الحديث
القاهرة ١٩٩٢

تصـــميم الغـــلاف
والاخراج الفـــنى والتنفـيذ :
صـــبرى عبـــد الواحـــد

مقدمة

هل فى حياتى شىء مفيد ؟

هذا كتاب ما فكرت فى كتابته وما دار فى خلدى تأليفه . إنه كتاب الصدفة المحضة والظروف وحدها . فقد طلب منى الأستاذ حميد المطبعى أن أجيب عن أسئلة وجهها إلى ليكتب عنى دراسة ضمن سلسلة كتبه (الجذور فى تاريخ العراق الحديث) فلم أجد فى نفسى حافزا قويا خوف التهافت فى الرد والحرج الروحى والاجتماعى من الأجوبة ، لأن الحديث عن النفس ليس سهلا ولأن كل الذين كتبوا عنى اعتمدوا فى دراساتهم على إنتاجى وكتبى فى تأليف كتبهم أو الترجمة منها إلى اللغات المتعددة . وأحمد الله أن كتبت عنى ثمانى دراسات بالإنكليزية والفرنسية والبولونية والعربية إضافة إلى ترجمات إلى اللغتين الإسبانية والبلغارية .

لا شك فى أن الكتابة عن المعاصرين عمل حضارى تسجل فيه القضايا المعاصرة والأحداث التى قد تذهب فى زوايا النسيان . ومتى تمكن الباحث من دراسة آراء المفكر المعاصر وناقش جذورها وتطور حياته الأدبية فسوف يسجل جانبا من الحياة الثقافية ويرسم معالم الحركة الأدبية والنقدية العامة من خلال دراسته لحياة المفكر والأديب .

ليس هذا الكتاب تاريخا لحياتى . إنما هى أجوبة أسئلة محددة سايرت فيها منهج الكتاب وجعلت محاوره فصولا وتركت الأسئلة التفصيلية لأنها واضحة فى الأجوبة . ولما انتهيت من الإجابة وجدتها سجلا لجوانب من حياتى الفكرية والأدبية والمسيرة العلمية التى سرت فيها . فآثرت نشره كتابا ليطلع الجيل المعاصر على حياة إنسان كافح كفاحا صعبا وجاهد جهادا مرا ليرتوى من العلم ويستفيد من الدراسة والبحث والتحقيق .

ووقفت حياتى وقلمى وفكرى فى سبيل أمتى وبذلت طاقتى لأراها حرة الرأى طليقة الفكر متحضرة المجتمع تعيش آمنة مطمئنة موحدة الهدف سامية القصد ، آملا أن يعرف الجيل الجديد حياة الكفاح التى عشناها وطريقة المعاناة التى قاسيناها لكى نعيش فى قناعة ورضا .

نشأت فى بعقوبة الجميلة ، وكانت قرية صغيرة تحفها المثل السامية الأصيلة والأخلاق البسيطة الساذجة ، وكانت أسرة واحدة يعرف كل واحد فيها كل أبنائها ولم تكن فيها غير مدرسة واحدة يأتيها أبناء القرى لإكمال دراستهم . ومتى هطلت الأمطار كانت أرجلنا تغوص فى الطين ، وكم من واحد منا ما انزلقت رجلاه وصافحت ملابسه أرضها ، وما أكثر ما كنا نسقط فى الوحل .

وقد انتشرت فيها المدارس والمؤسسات الصحية والعلمية والإدارية الآن وتوسعت شرقا وغربا ودخلتها الحضارة وغيرت تلك المفاهيم السامية وبدلت المثل العالية شأن كل بلدان الشرق التى غيرتها موجة النفط .

كان أهل بعقوبة يميلون إلى الهدوء والدعة والسكون مثل حياة المزارع البسيط ذى القلب الطيب والنفس المطمئنة القانع بما رزقه الله . لذلك قلّت بينهم العداوات والمشاحنات . وكان أول حادث قتل من عمل الوافدين إليها ، وهو الذى رج القرية رجا . لا يميلون إلى السياسة ومعاركها حتى ظهرت الأحزاب السياسية فى بغداد وشكلت لها الفروع فى بعقوبة .

وبدأت النفوس تحس بالحرية والمنافسة فى الانتخابات العامة ثم اختفت هذه الأحزاب وضاعت معها حرية القول والرأى .

ولم تكن بغداد غير قرية صغيرة لا تتجاوز أربعة كيلو مترات من باب المعظم حتى الباب الشرقى فى الرصافة،وأصغر منها الكرخ ولكنها كانت تموج بالحياة والحيوية . فبعد أن خرج الانكليز ظاهريا منها تسلم أبناء العراق والعرب الحكم فحدّوا من الحرية الفردية وضيقوا على الرأى لقتل الفكر المغاير والفكرة المعارضة ، وسجل التاريخ أن الحرية فى عهد الاحتلال البريطانى كانت أوسع نطاقا منها فى عهد حكم أبناء البلد .

العراق بلد يفيض بالخيرات من كل نوع وكل شكل كالماء والمعادن وخصوبة الأرض.ثم جاء النفط والكبريت فزادا من هذه الثروة . فما مقدار فائدة الشعب من هذه الخيرات ؟ ! وما أثرها فى التطور الحضارى والفكر العالمى ؟ ! بعد أن كثر الأدباء والعلماء والباحثون والمفكرون وبعد أن انتشرت المدارس والجامعات والمصانع والمعامل ؟ ويمكن للباحث أن يقارن حياته المعاصرة بالوقت الذى عاشه عندما لم تكن هناك جامعة مرموقة أو مصنع كبير إنما هى كليات منتشرة وحرف يدوية فى كل المدن والقرى تزود أبناءها بالضرورى من الحاجات العامة وقد تكتفى ذاتيا من إنتاجها وغذائها ولباسها .

وسيجد الدارس المعاصر فرقا كبيرا بين حياتى وحياته وبجتمعى ومجتمعه . فقد توالت الخيرات وتدفق النفط وكثرت حياة الترف والاختيار فى المواد وعمت المخترعات التى تخدم الانسان وتزيل عنه الكثير من المشاق التى عانى منها الجيل الذى عشت فيه .

ولما احتجت إلى بعض المعلومات استعنت ببعض زملاء العمر ورفقة الدراسة فأسعفنى الأخ عبد المجيد حسيب القيسى بمعلومات وافرة عن بعقوبة ودراستنا فى الابتدائية ، ومازال يحفظ كثيراً من الذكريات . ثم

كتب لى الأخ كمال القيسى المحامى ذكرياتنا فى الابتدائية والمتوسطة ووصف عالمنا الفكرى الساذج وطموحنا فى المدرسة ورسم حياتنا الفكرية .

وكانت كتابتنا فى المتوسطة هى بواكير المساهمة فى الصحف المحلية واستعنت بذكريات الدكتور ضياء أحمد عن حياتنا فى بعقوبة وأسماء بعض الزملاء ووجدت الأستاذ الدكتور ماهر حسن فهمى خير من يذكر أيام الجامعة فأسعفنى بما عنّ له ونشرت هذه الرسائل فى الملحق ليستفيد منها غيرى .

وشكرى للدكتور النطاسى محمد يمانى وأعظم الشكر وأجزله للاستاذ المجمعى الجليل وديع فلسطين على إشرافه على التصحيح وحمل عبء كبير فى الطبع والمتابعة .

وقد طلب منى الأستاذ حميد المطبعى أن أوسل إليه بعض الصور لنشرها فى كتابه فاستعنت بالزميل الدكتور أحمد نجم الدين فزودنى بالصور الجامعية وأضفت إليها مختارات تذكرنى بروابط الود والإخاء والعلم بروّاد الفكر والأدب ، خشية ألّا تتاح لى فرصة أخرى ، فالشكر له ، فله الفضل الأول فى هذا الكتاب .

وختاما أرجو أن أكون قد أضفت جديداً إلى كتبى وأن يجد من يقرأه بعض الفائدة موافقا لآرائى أومخالفا لها على أن أحتفظ بوده .

يوسف عز الدين

الطائف

الفصل الأول

الاسرة والموهبة

الفصل الأول

الأسـرة والمـوهبة

الموهبة إرث فطرى ، فلن يكون الشاعر شاعرا أو الأديب أديبا ولا الرسام مبدعا إلا إذا كان يملك موهبة موروثة ، ولن يفيد أى أثر مصطنع أو تدريب فى خلقها مهما بذل من جهد فى سبيل خلقها ، ولكن الصقل يهذبها ويبرزها بصورة أجمل وبشكل فنى أروع وإطار أدبى جزل وأسلوب علمى دقيق . فالطائر الغرد يولد ومعه صوته الجميل ويغرد دون أن يُطلب منه التغريد ، والرسام الموهوب يرسم رسمه بما وهبه الله من فطرا فنية وموهبة خاصة به دون أن يحثه الناس على الرسم . وهكذا الموسيقى والشاعر والناقد .

إن الدراسة المستمرة والاستفادة من الجو الفنى والاستماع إلى إنتاج الفنانين سواء أكانوا شعراء أم مغنين ، وقراءة إبداعهم والتمرس بإنتاجهم قد يفيد فى تعليم الفن ولكن هذه الفائدة سوف تكون محدودة وهى أقرب إلى الاصطناع منها إلى الموهبة المبدعة والفطرة الفنية السامية السليمة .

وقد كان والدى رحمه الله ذواقة للشعر . فقد كان ينشدنى شعرا وكان له حس شعرى جميل . فإذا ما خرجنا إلى خارج المدينة على ظهور الخيل كنت أسمعه يتغنى بالشعر بأنواعه ، والشعبى كثيرا والفصيح قليلا .

فأحسست بالوزن والموسيقى ونشأت على رقة الشعر وجماله . . .

وكان أول هدية لى منه ديوان شعر . لم يكن يملك مكتبة . . لأنه لم يأخذ العلم واكتفى بعلمه العسكرى . كان واسع الاطلاع على معارف عصره وأخبار زمانه . فقد شارك فى الحرب العالمية الأولى وجال فى العالم المعروف وذهب إلى تركية وروسية وميادين القتال التى عانى منها ماعانى . . وكان يتكلم التركية والفارسية والكردية .

وأمى رحمها الله كانت ذكية شديدة الذكاء ، وكان يسعدها أن تخفّف من آلام الناس وتحفظ الأغانى الشعبية فترددها لتنفس عما تعانيه من وجع المرأة فى حياتها ومجتمعها . . فكنت أسمع الشعر عندما كانت تهدهدنا فى المهد بصوت رخيم عذب حتى ننام ، وكثيرا ما كانت تهزها الأغانى الرقيقة حتّى تبكى لرقة مشاعرها وعمق إحساسها الفنّى . وكانت ربة بيت من الطراز الأول نظيفة أنيقة تنظف البيت وترتب الفراش وتطبخ الطعام وتطحن الحنطة أحيانا وتخبز فى التنور وتغسل الملابس وتقوم بكل ما تقوم به السيدات فى زمنها من الاعتماد الكلى على النفس والاكتفاء الذاتى بأعمال البيت برغم كثرة الأولاد . ولما اخترع (البريمس) كانت سعادتها كبيرة لأنها تخلصت من الحطب والجلة وبخاصة الحطب الأخضر الذى يملأ البيت بالدخان عند استعماله . كنا سبعة إخوة ، وكانت تخاف علينا من الحسد لأننا سبعة أولاد ذكور ، لذلك كانت تنكر بعض البنوة وتقول إن الكبار أبناء زوجى والصغار أبنائى لتبعد عنا الحسد وترتاح نفسيا .

ليس لى من أقارب أثروا فى حياتى ، فقد كنت شديد الالتصاق بوالدى . ولم يؤثر فى شخصيتى أى انسان إذ لم أقلد فى حياتى فردا وأجعله مثل الأعلى من الأحياء الذين كانوا يعاصروننى ، ولم أتمن فى حياتى أن أكون نسخة من أى إنسان أو أقتدى بقائد أو شاعر أو مفكر . إنى أحب إنتاجهم وأقلده وأسير فى هديه ، فلكلّ شاعر قصائد أعجب بها وله مثلها لا أحبها .

أسرتى متوسطة فى العلم والمجتمع لأننا نعيش فى بلدة لم تعرف من العلم إلا القدر المحدود ولكنها كانت تشمخ بالأصل العريق والأصل الكريم .

ليس فى بعقوبة مجالس علم أو معاهد دراسة ، فقد كانت مجالس العلم محدودة فى العراق ، ومراكزها فى مناطق معروفة فى البلاد .

فنحن أسرة لها من الأصالة عراقة الجذور ، عميق البعد التاريخى. كانت الأسرة ومازال بعضها يسكن فى سامراء وبيدها الصدارة والسدانة على الروضتين المقدستين للإمامين الجليلين على الهادى والحسن العسكرى .. فتدخلت بينهم المطامع وجرت إلى معركة دموية مؤسفة بين الأسرة نفسها وأبناء العم حتى دخلت سلطة داود باشا لتقضى على الكثير من أبنائها . فتفرقت بعد أن تسلم نصفها المنتصر السدانة وهرب الباقون إلى بقاع العالم فى الهند وصار منهم (راجات) وذهب قسم إلى إيران فاصبحوا أغنياء ، وسكن قسم مناطق العراق المتنوعة وذرى الجبال .

وكان جدنا قد لجأ إلى حدود إيران ، ولما خف الطلب سكن شهربان ثم انتقل ولده إلى بعقوبة حيث له رحم هناك ، وعاشت بعض أقسام منها فى رفاهية وعانى بعضهم من الفاقة .

كان رأس الأسرة عم لى أحسن تعليمه وأصبح موظفا :- فرط فى كل الإرث المالى فى (الديوان) الذى ورثه عن والده .. ولما جاء الاحتلال البريطانى اشتغل والدى بالعمل الحر بعد عودته من حروب الدولة العثمانية لأنه غنى اليد والنفس ففتح له محلين للبيع والشراء وضع ابنه الكبير فى مكان وربيباً أرمنيا فى مكان ثان كان أنقذه من الموت فسماه (محمداً) .

وكان أبى شديد الكراهية للإنكليز الذين يراهم كفارا احتلوا بلاده وقضوا على الدولة الإسلامية واستعمروا وطنه وأذلوا العرب والمسلمين .

كان متزوجاً من سيدة كردية خلف منها الولد الأكبر . ولما ذهب إلى ساحات القتال قيل لها إنه قتل فى المعارك . ولما عاد وجدها قد تزوجت ابن خالته .

رضى بالواقع بعد ذلك وتزوج أمى قريبة له فكنت الولد البكر . انضم أبى إلى الأحرار الثائرين وخاصم زملاء السلاح ، لأنهم قبلوا العمل فى الحكم الوطنى وأعانوا الانكليز فى إدارة أموره . حاول أصحابه إغراءه بالعودة إلى الجيش فلم يظفروا بطائل . ويظهر أن عقيدته كانت راسخة بكراهة الأجنبى،وما كان يملك من مال كفاه العوز واللجوء إلى الوظيفة . . حتى تلاحوا معه فقال لهم : أنا لا احترم الاستعمار الكافر ولا من يخدمه. فكان فى ذلك فراق رفقة السلاح وزمالة الجهاد . وفى الثورة العراقية دخلت العشائر بعقوبة واستولت على مركز الحكم وأخذت خزانة الأموال ونهبت بيوت اليهود والضعفاء الذين ليس لهم ناصر أومعين يحميهم . فلجأت أسر اليهود إلى دارنا وحماها والدى من الموت ، ولم يكن قادرا على حماية أموالهم . وكان يقف فى الباب لتراه العشائر ولا تدخل لسلب الدار . ولما عادت الأمور إلى مجاريها استردوا أموالهم من تجارتهم وبأساليبهم المعروفة فى البيع والشراء .

ولاستتباب الأمن والسيطرة على الفوضى التى عمت البلدة تشكلت سلطة أهلية ممن كان ضابطا فى الجيش العثمانى . وعين والدى مساعدا لحاكم البلدة العراقى . ولما تركت العشائر البلد بعد دخول الجيش المحتل ومهاجمة العشائر بالطائرات التى كانت اختراعا جديدا ، أرسل والدى بأمى والأسرة إلى الهويدر حيث كان لنا أصدقاء فيها ، وأخذنى معها ، ولم أكن قد تجاوزت الأربعين يوما . فأنا ابن الثورة التى بقيت معى طول حياتى . ولما دخلت السلطة البريطانية إلى بعقوبة أخذت فى محاسبة الثائرين والأحرار الذين وقفوا ضدها ، أو الذين كانوا يعارضون سلطاتها ونفوذها وقتلت

قاضي بعقوبة الملاحسين فى داره ، وكان فى المرحاض عندما داهموا داره ، فقتل فيها ومازال قبره فى جامع الشابندر على ضفة نهر خراسان . وكان والدى كثيرا ما يذكره بالخير ويلعن (الميجر) الانكليزى الذى قتله ويترحم عليه .. ولاشك فى أن الجيل المعاصر لايعرف شيئا عنه ولعله أول شهيد قتل فى بعقوبة . وقد ألقى القبض على والدى مع جماعته وأودعوا السجن ، وكانت السلطات تتفنن فى إهانتهم ، فقد كانوا يجبرون على حمل المياه فى الصفائح ورشها فى الشوارع تحت تهديد السلاح ليكونوا عبرة لمن يفكر فى الثورة على السلطة .

وفى الليل اتفق وصحبه على كسر أبواب السجن والهرب . ويظهر أن الحراس كانوا لهم بالمرصاد ، فهجموا عليهم بالسلاح الأبيض وأصيب والدى بطعنة فى ساعده بقيت آثارها معه طوال حياته وسام نضال وشهادة ثورة على الذل والهوان . وصودرت أمواله وأصبح بلا مال يقيم أوده . وصابر وصبر حتى نفد الصبر والمال . فاضطر إلى الذهاب إلى خدمة الاستعمار فقابلوه بجفاء وقالوا له :

كيف تخدم الاستعمار وتعمل مع خدمه ؟ ..وكان هذا آخر لقاء مع رفقة السلاح .

بدأت مرحلة الفاقة تتسرب إلى حياته ونفدت أمواله بعد أن أصبح معيلا لأسرة اعتادت على الرفاهية وطيب العيش . فقد كان كريما جوادا . وحُدثت بأن الشخص الذى بشره بولادتى أعطاه ليرة ذهبية ، وما كان أغلاها . إنها راتب موظف محترم . تعود على الكرم ، فقد كان والده يفتح ديوانه للشارد والوارد ، واستمر أخوه الكبير فى كرمه حتى أضاع كل شىء .

ما كان العلم بضاعته بالرغم من سعة الاطلاع وذوقه المرهف فى الشعر . إنه من أواسط الناس ، ما كان فقيرا مترِبا وما كان غنيا . وبعقوبة

بلدة زراعية وفيها حرف يدوية . يعرف كل واحد أبناء البلدة . فقد كنت أعرف كل أبنائها وأعرف من ولد ومن مات ومن تزوج ولمن تزوج إذ كانت الفرحة تعم كل البلدة فى الأعراس وحفلات الختان ، والحزن يعم كل البلدة اذا ما توفى منهم رجل أو امرأة .. كان التكافل الاجتماعى واضحا بين أهلها بالرغم من أنهم من أصول متعددة وجذور متباينة . فيهم العربى والكردى والتركى والإيرانى وفيهم الشيعى والسنى ، وفيهم الفلاح وصاحب القهوة وصاحب الحمام والإسكافى والبقال والعطار ولكنهم كانوا أسرة واحدة لا تعرف بينهم الطائفية ولا القبلية ولا البلدانية ، فتجد المزواجة بين جميع الطبقات والطوائف .. والأصول العربية والأجنبية .

كان والدى ينادى (بالسيد) ، وكنت أحسُّ بالاحترام الذى يبديه له الناس عند طلب مساعدته فى بعض الأمور والدعاء له . يلجأون إليه متى حزبهم أمر أو ملى أضرت بهم آفة ليلا أو نهارا . ما كان يتأخر عن مساعدة الناس وخدمتهم برغم طاقته المحدودة وقابليته القليلة . إن الناس كانوا يحبونه وكان يحب الناس.وإننى كنت أذهب أجد أحسن الرعاية لأنى (ابن السيد) . وكنت أسمع امتداح الناس له وأفرح . وما أغلى حب الناس وعمق عواطفهم .

كان شديد الحرص على تعليمى . أدخلنى إلى دراسة الفقه فى المسجد وإلى دراسة القرآن عند (الملا) شهاب و (اللالة) عارف ، ولكننى كنت أحس بالضغط ـ الذى يمليه على أسلوب الدراسة . فعليَّ حفظ المتون حفظا ـ ولا أحب الحفظ ـ دون فهم،فتمردت على هذه الطريقة .. ولما ذهبت إلى المدرسة الابتدائية وجدت الفرق كبيرا ، فنحن نجلس على رحلات ، وكنا ندرس على الأرض وعليها الحصر التى تؤثر فى أجسامنا من كثرة الجلوس عليها وتترك علامات فى أجسامنا .. وكان المدرس فى المدرسة يدرس وهو واقف وأمامه السبورة . وكان (الملا) يقعد على الأرض

وتتحلق حوله فى تعليم القرآن الكريم . كانت فى المدرسة ساعات لهو وراحة بين ساعات الدراسة ، وما كانت لنا أية فرصة عند (الملا) ، فنجلس من الصبح حتى الظهر ، وكنا نسعد اذا ما أرسلنا فى طلب حاجة أو القيام بعمل من الأعمال غير قراءة القرآن والجلوس الطويل . كان (اللالا) عارف،ولعله أفغانى الأصل،شديد القسوة ، يعاقب على الصغيرة والكبيرة،لذلك كنت أخاف منه ولا أريد أن أذهب إليه . فأخذنى إلى الملا (شهاب) وكان رقيق الحاشية والخلق وكنت أذهب إليه برغم بعد المسافة . كانت المدرسة الابتدائية من مآثر الدولة العثمانية،فيها شبابيك عالية وساحات كبيرة وتحيط بها البساتين وفيها حدائق ضاع أكثرها بالبنايات التى شيدت عليها،فضاعت معالمها الصحية الرائعة بسبب التجديد المستمر . وكانت تقع فى آخر بعقوبة فى الطريق إلى محطة القطار ، ولم تكن وراءها بنايات حتى سكنها بعد ذلك بعض الأسر . وكانت البساتين تمتد حتى تصل إلى سكة القطار والطريق العام الذاهب إلى بغداد وخانقين .

كانت رغبة والدى أن أكون متعلماً،وكان يحرص أشد الحرص على متابعتى فى المدرسة . وعندما تمطر السماء كان يأخذنى على حصانه إليها . أحب أن أجيد صناعة العلم بعد أن أجاد صناعة الحرب وتعذب فى ساحاتها ومواقعها فكان عذابه سبباً فى منعى من أن اكون ضابطاً . فقال:يكفى أن تعذبت فيها . ويظهر أن الآلام التى قاساها وأهوال الحرب فى ققفاسية والأناضول وروسية كانت واضحة فى نفسه مؤثرة فى روحه .

دخلت دار المعلمين الابتدائية لأن الأسرة ذهبت إلى المقدادية وكانت الدار تؤمن لى الغذاء والكساء والتعليم المجانى والوظيفة المؤكدة . وكان والدى رحمه الله قد كثر عياله وناء عدد إخوتى وناء بحمله الثقيل،فأردت أن أساعده وأعينه على إخوتى . يضاف إلى هذا أن ثانوية بعقوبة ليس فيها فرع أدبى ، وكنت أميل إليه وأتمنى أن أدرس فيه .

كنا نسكن دارا لا يشاركنا فيها أحد من الأقرباء ، ولم نشارك أحداً في السكنى طوال حياتنا . فلم يؤثر إنسان في حياتي العلمية أو الفكرية سوى والدي رحمه الله بشموخه الأصيل وكبريائه المتواضع . ومن الصدف الجميلة أن كانت مكتبة تبيع القرطاسية للطلاب وكان صاحبها محمد صادق أو صادق محمد من أهل الكاظمية وأصبح موظفا في الثانوية المركزية في بغداد . . كان يؤجر لنا الكتب أسبوعيا بأجور زهيدة لأننا لم نقدر على شرائها ، وكانت سيرة عنترة بن شداد و (الزير سالم) وغزوات الإمام إلى اليمن و (رأس الغول) و (المقداد المياسة) و (عجيب وغريب) وغيرها هي ثقافتنا في هذه السن . وكنت دائم القراءة والاطلاع على ما يقدمه لي صاحب المكتبة النشيط .

كان أثر القراءة واضحا في حياتي ، فانصرفت إليها متعة للقراءة واستفادة من الحوادث . وعندما أعطاني (غزوات الإمام) على كرم الله وجهه وجدت فيها البطولة والإيمان فأخذت أقرأ كل الكتب التي تحدثت عن سيرته . ولعل الرابطة الروحية والنسب العريق كانا واشجة هذه الدراسة فكنت أحس بالفخر والزهو والمباهاة بهذا الفارس المقدام الذي بدد سحب الشرك . . وأبكي للنهاية المفجعة التي أودت به لأنه استقام في حكمه فغلبه الاعوجاج .

كنت أكره قراءة واقعة (صفين) ولا أحب أن اقرأ عن مقتله وأتألم عندما أطلع على المؤمرات التي حيكت للقضاء عليه . وأتساءل بعقلي الصغير: هل كان العدل والإيمان والخلق الكريم والوضوح والبطولة الرائعة سببا في خسرانه ؟ وهل المكر والحيل والنفاق والانحراف والهوان من أسباب توفيق الانسان ولاسيما بعد أن انتصر معاوية وجعلها ملكا عضوضاً؟ وأقول:

اعتدل الإمام فكسر
انحرف معاوية فحكم وانتصر .

كرهت الحكم المطلق والانحراف الخلقي والديني عندما تابعت حكم الفرد وسيطرته على مقومات حياة الأمة كلها طوال حياة الأسرة الأموية، وتجسّمت أمامي عودة الوثنية الجاهلية عندما رضي العرب والمسلمون عن حياتهم، ولم تُغْنِ ثورات الحق والإخلاص والمطالبة بحكم الشعب فتيلاً. وأعجب من الجيش الذي يقاتل جماعه تريد الحرية ومع ذلك تموت في سبيل من يريد استعبادها وأتساءل بمرارة :

هل الإنسان عبد في طبعه ؟
هل البشر وثنيون بالفطرة ؟
هل العرب يريدون العبودية ؟

ولم أكن أصل إلى نتيجة ترضي الضمير البريء والفكر الساذج والنفس الصريحة الواضحة .

ما كنت تجاوزت الصف الرابع وأنا أقرأ كثيرا من الكتب التي عمقت إحساسي بالقلق والحيرة والألم . ذهبت إلى المكتبة بعد أن فرغت من كتب الغزوات والفتوح،وكان معناه التوقف عن القراءة . وقد كان الرجل ذكيا فأهداني رواية من الروايات الحديثة وكان مكتوبا تحت العنوان : رواية اجتماعية غرامية .. ما كنت أعرف كلمة غرامية ، ولم يكن أمامي سواها فقرأتها ففتحت أمامي العوالم الجديدة ووجدت فيها متعة غريبة .. تتحدث عن الحب ولقاء الذكر والأنثى والمحبين والهجر واللقاء .. إنها ألفاظ جديدة ما دخلت قاموسي المشحون بالفروسية والقوة والإيمان والغزوات .

كنت أقول للطالب:إذا أردت أن تتمتع اقرأ القصص المكتوب فيها (غرامية) وبذلك قرأت مجموعة كبيرة من القصص الحديثة التي حوت معارف شتى لم أعرفها من قبل...

بعقوبة :

بعقوبه أو باعقوبا مدينة تاريخية قديمة، ولعلها كانت آرامية، تقع على طريق القوافل الذاهبة إلى خراسان وإيران ، ومازالت على طريق الزائرين للأماكن المقدسة . وكم من مرة جاء إيراني يستجدى الناس ليواصل مسيرته مشيا على القدمين لزيارة النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وسامراء . . وقد توطن بعض الإيرانيين فيها وامتزجوا بأهلها . ومن اسمها يتضح أنها (بيت المفتش) أو بيت صاحب الكمرك ، وأهلها بصورة عامة لايؤذون بعضهم بعضا لأنها بلد زراعى يمتلك أكثر أراضيه أهل بغداد . وأغناهم من له بستان أو حمام ، لذلك انتشرت مقولة (حمامى لو بستانى) لمن يريد أن يظهر فقره . أوعندما يطالب إنسان بصرف مبلغ لا طاقة به لدخله المحدود . وشعبها برغم الاختلاط العجيب فى الأصول والجذور والقوميات والمدن فقد وحدتهم الصبغة العربية . فكلهم يتكلم العربيه وتزاوجوا لطيبة النفوس وسماحة المجتمع الذى جمع العربي والكردى والإيرانى والتركى فى بوتقة واحدة . إن التسامح هو المسيطر عليهم والطيبة ترفرف على أكثرهم بالرغم من وجود مظاهر المجتمع الزراعى كالحسد والحقد والنميمة، وعندها تضعف النفس ويكثر الفراغ . إنما قلق الزارع وحيرة الفلاح الذى لايملك أرضه ولا يسيطر على ما يزرع ويحصد . وقد كانت تابعة لبغداد منذ العصر العباسى . وقد قال عنها ياقوت إنها قرية كبيرة كالمدينة ، وهى كثيرة الأنهار والبساتين واسعة الفواكه متكاثفة النخل ، وهى راكبة على نهر ديالى من جانبه الغربى ونهر جلولاء يجرى فى وسطها ، وعلى جانبى النهر سوقان وعليه قنطرة وعلى ظهر القنطرة يتصل السوقـــان ، والسفن تجرى تحت القنطرة إلى باجسرا وغيرها من القرى . وبها عدة حمامات ومساجد ، وينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم أبو الحسن محمد بن الحسين بن حمدون البعقوبى قاضيها . وهى التى ذكرها الحيص بيص فى رسائله السبع. يسأل المسترشد أن يهبها له ويعوض عنها بمال فلم يقبله وقد هجاها المهدى البصرى بقوله :

ألا قُل لمرتاد النوال تطوفا　　يقلقله هم عليه حريص
تخاف ببعقوبا اذا جئت معسرا　　همٌ ببيت الضيف وهو خميص
ابو الشيص لو وافاهم بمجاعة　　لأعوزه بين الحدائق شيص
ولو خوصة من نخلها قيل قدهوت　　لقيل عشار قد هوين وخوص

وقد ظلمها الشاعر لأن الجود من الموجود وكيف ينفق أهل بلدة لا يملكون شيئاً . وأرادها فرد واحد هبة له ، فهجا أهلها وكان حريا به أن يهجو الذى منعه منها ، ولكن خوفه حول غضبه علّ المسترشد إلى أهل البلدة ومن هنا يظهر أنها كانت غنية وعامرة ومن خيرة الأماكن ، وإلا لما استهان الشاعر فى طلبها . ومن مظاهرها الواضحة أن الرابطة البلدانية ليست قوية مثل بعض المدن التى تصل فيهاإلى حدّ التعصب لأبناء البلدة والإشادة بكل من برز منهم لعمق الرابطة القبلية أو الأسرية ، وأخيرا الرابطة البلدانية بينهم .

وقد وجدت بعقوبة على الصورة التى وصفها بها ياقوت الحموى . وللأسف الشديد هدم السوق الجميل المغطى ، عندما فتح شارع بجانب نهر جلولاء (خراسان) ولا أعرف من أين جاء اسمه ، فهو يأخذ من نهر ديالى وكم تعد المياه لضحالتهاقادرة على حمل السفن . ولعل جلولاء هو نهر غير هذا النهر الحالى لأن النهر الحالى لا يصل إلى باجسرا إنما ينتهى فى (بهرز) ويضمحل فى بساتين فى آخره ولعل مسيرته قد تغيرت بإهماله . وقد اتسعت المدينه وعبرت نهر ديالى وأنشأ الناس بعقوبة الجديدة .وأصبحت مدينه عامرة بأبنيتها الجديدة الحديثة . ولم يكن فى بعقوبة غير ثلاثة حمامات أخذ شارع النهر اثنين منها وتدارك واحد منها نفسه ، وأصبح فيها حمامان وقد ابتنت الدولة حماما ثالثا . كنا نذهب إلى (حمام السوق) إذ لا تعرف البيوت حمامات خاصة بها حتى بنيت أول دار لى وأفردت حجرة منها حماما خاصا.وقد أصيبت البلدة بعدة أمراض وطواعين قضت على أهلها . لهذا

لانجد عراقة للبلدة أو رابطة بلدانية بينهم تجمع أواصرهم وتشدهم إلى اسم البلدة . وقد عاش بعض ضباط الأتراك في بعقوبة ممن كان يحمل لقب (بيك) وكانوا يرتدون الطربوش بالرغم من تغيير لباس الرأس إلى (السدارة) التى جاءت مع الملك فيصل الأول وكانت تسمى أول الأمر (الفيصلية) ، وكان عدد معتمرى العمامة قليلا يعدون على الأصابع ، منهم (الملا واللالا) وإمام المسجد الكبير والمسجد الصغير الذى كان على شاطىء النهر وهدم عندما فتح طريق النهر . .

إن الأكثرية الساحقة من أهل بعقوبة كانت ترتدى (اليشماغ) الأسود والأبيض الذى بقيت لفته البابلية حية فى أشكالها المتنوعة ، وبعضهم كان يرتدى فوقه العقال ، وهم كبار السن . وكان والدى يرحمه الله بعد عودته من تركيا يلبس العقال (المقصب) وبه عقود معقودة بالذهب ، ثم تركه وقال إنه ثقيل . . ولما انتشرت موجة الملابس الغربية كانوا قائلا هؤلاء لا يحترمون أصحاب العقال ويحترمون (الأفندى) الذى يرتدى ملابس الغرب . وعندما انتشرت الملابس الغربية : شاعت أغنية:

التمن مستوى والبانيه نيه[1] .
طلقوا أرجالجن وخذن أفنديه

وليس فى الأغنية غير معنى الموجة العارمة لارتداء الزى الغربى ، فردت عليها نغمة أخرى أو أغنية مناقضة لها :

لا تنقهر يا بوعقال تره السدارة قندره

وفيها معنيان . . الأول هجاء للسدارة ومن ثم كانت السدراة مصنوعة من قماش ثمين وجميل فإذا استعملها صاحبها مدة يأخذها إلى صاحب الأحذية فيصنع منها وجها للحذاء لأنها مريحة وقوية .

(١) التمن ــ الرز. أرجالجن . أزواجكن

إن الملابس الغربية لم تغز إلا الشباب الذين كانوا يذهبون إلى بغداد وهم بها صلات متنوعة . وقد كان لباس الغربي يعنى التطور والعصرية والتجديد ، وأصحاب العقال جماعة جامدة متأخرة ، فيردون على الشباب بالنقد والتجريح . .

كان فى بعقوبة جماعة من اليهود الذين يبيعون بالجملة لأصحاب الحوانيت وعدد محدود من الإيرانيين بدأوا يزاحمون اليهود الذين منهم صاغة الذهب ويدهم مقاليد الأمور التجارية الكبيرة . ولما تقدمت الحياة الاقتصادية انتشرت فى السوق البضاعة المتنوعة وفتحت بعض الحوانيت لبيع المواد الجديدة والمخترعات الحديثة كالمذياع والتلفاز ، اذ لم يكن فى بعقوبة إنسان يبيع الأدوات الكهربائية الثقيلة . وأول مذياع اشتريته من بغداد كان حدثا كبيرا فى الأسرة لأن عدد مالكى المذياع كان محدودا .

إن ارتفاع مستوى حياة الناس بعد انتشار عائدات النفط بعد الحرب العظمى أثر أثرا كبيراً فكثرت الأبنية الجديدة بالطابوق والسمنت والحديد (الشيلمان) . لم يكن من أهل بعقوبة غير عدد محدود من الموظفين ، فقد كان الموظفون يأتون من بغداد وعدد المعلمين منها لم يكن كثيرا فى المدرسة الابتدائية التى كنا ندرس فيها . ولما انتشرت المدارس وفتحت أبواب العلم كثر المعلمون والضباط والموظفون . ووجود الثانوية وسع دائرة الثقافة ، فقد ذهب الخريجون إلى بغداد ودخلوا المدارس العالية وبخاصة دار المعلمين العالية والكلية الحربية .

أول خطبة

أول مرة ألقى شيئا من محفوظى شعراً كان فى مدرسة شهربان الابتدائية أثناء تحية العلم أيام الخميس ، فقد كانت قصيدة الزهاوى تتلى كل يوم خميس ومطلعها :

عش هكذا فى علو أيها العلم فإننا بك بعد الله نعتصم

فقرأت قصائد جديدة للصافى النجفى منها :

أنا مهما الدهر أشقى وطنى لم أزل أبكى لشرق الأردن
هو طفل لم يفارق مهده ولقد ذاق صنوف المحن
أسفا قص جناحيه العدى وهو صغير لم يطر من وكن

وقصيدة سورية وغيرها من القصائد الوطنية والقومية التى نشرت فى (الأمواج) . كانت قصائد جديدة لم يسمع بها من قبل ، لذلك احتفى بى المعلمون وفرحوا بها للتجديد . وفى الأسبوع الثانى طلب منى المعلم المراقب إلقاء قصيدة فقرأت إحدى القصائد التى حفظتها ، وكان الزميل كمال مصطفى القيسى يتناوب معى إلقاء قصائد أخرى فى عدد من المناسبات .

أحسست لأول مرة بحلاوة ، فعكفت على القراءة وبدأت أحس بجمال الكلمات وعذوبة المعانى ورقة الجرس ، وبدأت تدخل فى قاموسى اللغوى كلمات جديدة وألفاظ حديثة جميلة الوقع رقيقة المعنى .

قيض لى وأنا فى بيئة بعيدة عن عالم الكتب والمكتبات أن تبرز موهبتى الشعرية ، وكنت أقرأ كتب التاريخ والأدب التى أجدها فى كل مكان دون أن أفقه بعض الحوادث والأمور السياسية وأعرف جذورها فى مثل سنى . وفى المدرسة المتوسطة بدأنا نجد بعض الكتب،وأخذت الجرائد والمجلات المصرية كالرسالة والهلال تصل إلى بعقوبة بأعداد محدودة وكنت عندما أذهب إلى بغداد أشترى المجلات القديمة ، وكانت تملأ سوق السراى وبأسعار رخيصة .

بدأت كتابتى فى الجرائد وأنا فى المدرسة المتوسطة . وبدأت مع صديقى كمال القيسى الذى أكمل الحقوق وأصبح من رجال الفكر المالى فى الدولة بعد ذلك . وكانت جريدة العالم العربى أول جريدة نشرت فيها إسمى

وكانت فرحتى تفوق الوصف . وجرى نقاش بين كمال القيسى وبينى لا أذكره وربما أملك بعض هذه الجرائد التى دار فيها هذا النقاش . وفى دار المعلمين نشرت بعض شعرى. ولما أصبحت معلما كنت أكتب رسالة أسبوعية فى جريدتى الزمان والعراق عن حوادث بعقوبة وأصف ما يدور فى لواء ديالى من قضايا فكرية واجتماعية .

إن ظهور إسمى فى الجرائد المحلية أحيانا وبالتوقيع المستعار مرات متعددة لفت نظر أهل بعقوبة ونمت لى سمعة بين قراء الجرائد والمسئولين إضافة إلى أننى كنت ألقى بعض الأحاديث والقصائد من الإذاعة عرفت المجتمع بى .

كانت هذه السمعة الكبيرة بالنسبة لبلد صغيرتمدوبعض المحتاجين لكى أتوسط لهم فى حل مشكلاتهم ومساعدتهم فى إنجازها عند كبار الموظفين . وقد كنت أجد استجابة ورعاية من الموظفين الكبار . هل هو خوف أو هو التقدير لأنى كاتب برزت فى ربوع بعقوبة التى لم يظهر فيها منذ زمن من يكتب اسم بعقوبة أمام اسمه .

ومن الطرائف أن أحد الحلاقين ، وكان ختانا للأطفال ، طلب منى منع الختانين الذين يأتون فى أوقات الربيع لختان الأطفال حتى يحتكر العمل وحده فى بعقوبة . وكانوا يأتون من بلاد (زعرت) . وكنا نسمى الختان (زعرتى) وكانوا مشـهورين بإتقان الحرفة . وكنت قد ختنت عندهم. والطريف أن (الزعرتى) الذى قام بعملية الختان لى قام بالعملية نفسها لأولادى ، وكان يرتدى ملابس مميزة ، ورجانى أن أطالب بمنع دخول المنافسين . عرفت قصد الحلاق فقلت له : -

إن الكتابة عن هؤلاء تدخل فى أمور الدولة وقد تمنع الدولة التركية أهل العراق الذين يقومون ببعض الحرف فى تركية من دخول تركية عندما

تمنع الحكومة العراقية هؤلاء من ممارسة أعمالهم المؤقتة هنا . ثم إن هؤلاء عرب مسلمون ويجب مساعدتهم لاسيما وأنت معروف ولديك من يثق بك ويدعوك لختان ابنه ثم إنك حلاق إضافة إلى عملك فى ختان الأطفال . وكنت مؤمنا بأن هؤلاء الذين يأتون من زعرت أكثر خبرة وأدق صناعة منه .. لأن الناس كانوا ينتظرون هؤلاء حتى يحتفلوا بختان أبنائهم الذى نسميه (الطهور) ومنها الفعل طهر الطفل أى ختنه .

الفصل الثانى

الطفولة

الفصل الثانى

الطفولـــة

طفولتى عادية مثل أى فرد من أبناء الشعب .. وكنت أدرس فى الكتاتيب (الملا) فى بعقوبة القرآن الكريم قبل دخولى إلى المدرسة الابتدائية إذ لم تكن رياض الأطفال قد تأسست فى العراق . وكان الوالد يرسل ابنه ليتعلم القرآن وهو صغير . ولما فتحت المدارس الرسمية وحان دخولها لبلوغ السن القانونية كان الآباء يرسلون أبناءهم أيام العطلة الكبيرة التى كانت ثلاثة أشهر .. إليها ، وقرأت القرآن الكريم فيها ، وكانت هذه المؤسسة تزدحم بأبناء المحلة خلال العطلة ، ويقل العدد أيام الدراسة . وقد كان الملا يمنعنا من السباحة فى النهر الذى كنا نسميه (الشط) ويقوم بوسم أرجلنا بخاتم خاص فيه الحبر حتى لا نسبح خوفا علينا من الغرق . فكان يوم الخميس ظهرا موعدا لدمغ ساق كل طالب قبل أن يترك الكتاب . فكان الطلاب يدهنون الختم حتى لا تمحوه المياه . وكان بعض الطلاب يشى بإخوانه فكان الملاّ يسم سيقاننا يوم السبت فرادى . ففكر الصغار فى حيلة أخرى هى وضع غطاء من الصفيح وضغطه بقوة وربطه ربطا محكما حتى تدخل حواق الغطاء فى الجلد . وبعد السباحة يرفعون الغطاء .

ما كنت نابغة أو عبقريا فى الطفولة ، ولكن يظهر أننى كنت متفوقا ، فإن أحد زملائى فى الصفين الأول والثانى من المرحلة الابتدائية قال : كنت تستأثر بجميع الجوائز التى يقدمها المعلم وما هذه الجوائز إلا أقلام رصاص أو مسطرة أو ما حية مما كان يعطى للطلاب المتفوقين . فقد حدثنى بهذا بعد أن تركنا الدراسة وأحسّ أنها تمر بخيالى بصورة الشبح التائه فى غمام الذكريات ، ولعل هذه الجوائز قدمها المعلم لى لأنى كنت شديد الحفظ ، فقد كنت أحفظ القراءة الخلدونية من أولها إلى آخرها والقراءة الرشيدة المصرية التى ندرسها فى الصف الثانى برمتها ، بل كنت أتذكر الرسوم التوضيحية لكل موضوع وفيها مجموعة حلوة من القصائد السهلة اللطيفة منها :

إنا قصدنا مرة فى عصر يوم ضاحيه
نمشى على أقدامنا بين الجهات الخاليه
فإذا الحقول جميلة تروى بماء الساقيه

وأحفظ قصائد الهوارى المتعددة وكنت أرددها بسهولة ويسر ، وبقيت ذاكرتى شديدة الحفظ ولكنها شديدة النسيان إذ أن الحفظ السريع ينسى بسرعة ما حفظه المرء بسرعة . والإنسان إما أن يحفظ بالسماع أو بالقراءة ، فهو إما أن يكون شديد الحفظ سمعا أو شديد الحفظ عينا.فهناك من يحفظ بأذنه أو يحفظ بعينه وأنا أكثر حفظا عندما أسمع . وكنت أحفظ ما يقرأه المعلم دون أن أعرف الحروف المكونة للكلمة،وكان المعلم كثير المراجعة للدروس فكنت أحفظها سريعا ، وهذا ما حببنى إليه . وبقيت أحفظ الدروس كما أسمعها من المعلم حتى بدأنا فى تعلم الخط والإملاء ، فتعلمت كتابة الكلمات والجمل وعرفت اسم كل حرف .

ما كنت أراجع دروسى ، وكنت أكتفى بالإصغاء إلى المعلم لأننا لم نكن نعرف المراجعة فى البيوت حتى وصلنا إلى الصف الخامس وجاءت

دروس اللغة الانكليزية والحساب والهندسة. ثم وصلنا الصف السادس وجاء الامتحان العام (البكلوريا) ولأول مرة بدأت أقرأ مع الطلاب الدروس لاسيما الحساب والهندسة وحل المسائل الحسابية. كانت أذنى أشد حفظا من عيني لذلك كنت أضع خطوطا تحت الجملة المهمة فى دروسى وأرددها بصوت منخفض عندما أريد أن أحفظ النصوص وأعيد قراءتها بصوت هامس أو صائت مع نفسى للتأكد من الحفظ والفهم.

الزملاء:

لا تسعفنى الذاكرة بأسماء من كانوا معى فى الكتاتيب لكن يمكن أن أذكر من كان معنا فى المدرسة الابتدائية وقد أعانى على التذكر زميل فى الصف الأول عبد المجيد حسيب القيسى. من هؤلاء الذين كانوا معنا فى المدرسة: ضياء الدين أحمد وصار وكيلا لوزارة الزراعة ثم نقل إلى (الفاو) ولطفى عزة أصبح رئيسا لبلدية بعقوبة وكان معنا فى الصف مجيد عزة الذى أكمل الدكتوراة فى فرنسا وتزوج فرنسية ودرس فى الحقوق وقد توفى إلى رحمة الله وخطاب إسماعيل وصل إلى وكيل وزارة وتوفى وهو معروف بالخلق الرضى، أما القيسى فقد أكمل الحقوق وعمل فى عدة وظائف كبيرة ويمتاز بالصراحة والتهكم المرير على الحياة. ومن معلومات القيسى: أن من معلمينا ضياء الدين الألوسى وإسماعيل مصطفى الذى أصبح وزيرا وكان أمينا للعاصمة. ومن مآثره ردم ساحل دجلة وبناء المطاعم والمقاهى والحدائق فى مكان الردم وعبد المجيد جليل وصار مديراً عاما للأمن، والمعلم شعبان رمزى وكان يدرس الرسم وشفيق سلمان الفكه العراقى وأصبح من رواد الصحافة وهو زميل نورى ثابت رئيس تحرير (حبزبوز) وسعيد بهجت وهو من خيرة مديرى المدارس ثم أصبح مديرا للمدرسة المتوسطة، وصالح عبد العزيز وهو معلم الخط وكان من أهل الهويدر.

لم يكن فى بعقوبة بعد حصولى على الليسانس من أصبح له سمعة علمية كبيرة وصيت فى عالم الفكر أو الأدب أو الاجتماع ، وقد يكون منهم من نسيت اسمه . وخير هؤلاء من أصبح ضابطا أو مدرسا فى الثانوية أو موظفا لم تتح له الظروف أن يكون من قادة الإدارة أو كبار الموظفين ، ومنهم من برز فى الحياة الاجتماعية فى مجتمع بعقوبة .

الموهبة المبكرة

إن الموهبة لا يمكن أن يحسها الطفل . وكنت أميل إلى الرسم والنحت وأحب الموسيقى وبخاصه ألحان المزمار (المطبج) ، فقد كنت أخطط لبعض الرسوم أو الأشكال لا عبر بها عن مشاعرى، ولكن لم أكن من المتفوقين فى الرسم . فقد كان معى فى الصف من هو خير منى فى الرسم ، وكنت أجمع بعض الصور ورسوم الحيوانات على أشكالها المتعددة أستلهم منها بعض الخطوط وأتمتع بأشكالها وجمال تكوينها واختلاف أجسامها .

كنت أحس أن فى داخلى أنغاما عجيبة وألحانا متنوعة أريدها أن تغرد أو تغنى ، وكنت أحب دروس النشيد لأن فيها أنغاما عذبة وألحانا تهزنى . وأحيانا أحفظ دون فهم للمعانى . إنما الإحساس الفنى فى روحى تستهويه الأنغام والتلاحين المختلفة التى لحن بها النشيد . إنها أنغام تهزنى أجهل كنهها ولا أعرف كيف تأتينى . ولما انفرد بنفسى أحس بها تتحدث وأشعر بها تتكلم ، ولكن حديثها الهمس الغريب ، وكلامها اللحن الشجى ، فكنت أشكل من الخيال تواقيع مموسقة وتواقيع لها أنغام :

•

سـيـلا سـيـلا سـلا سـيـدو سـيـلامـى
فـارا فـارا مـى ديـرا ديـلامـى

وأستمر أردد هذه الأنغام ساعات وقد أغيرها وأطيل فى الوزن وكأنها عروض الخليل الفراهيدى أو رنّات ألحان ليس فيها سوى الوزن .

تــان تــان تــين شــين شـان شــين

ولم أكن أملّ هذه الأنغام لأنها تسعدنى وتطربنى . ولو كان بقربى أداة موسيقية لأصبحت عازفا كبيرا . ولما كبرت جاءنى الشعر دون أن أطلبه وقد سجلت هذه الأحاسيس الفنية فى مقدمة (ألحان) .

إن أيام طفولتى هى أيام انتقال من بلد إلى بلد مع والدى الذى اضطر للعمل موظفا صغيرا ليسد حاجة أولاده وأسرته بعد أن فقد كل ماله . فقد عين فى (دلتاوة) الخالص وانتقل إلى دللى عباس (المنصورية) ومنها إلى شهربان (المقدادية) وبعدها (بهرز) ومندلى وغيرها من القرى والمدن فى ديالى .

إن الانتقال من قريه إلى مدينة ومن مدينة إلى قرية أفقدنى نعمة الاستقرار الروحى والعلمى . وعندما لم تكن مدرسة فى القرية التى أذهب إليها أداوم فى بعقوبة للاستمرار فى الدراسة فأحس بالغربة الروحية إذ لم يكن أقربائى يمنحوننى الحب والحنان الذى أحتاج إليه وأنا طفل تغذينى العواطف وتسعدنى كلمات الحنان ، لأن لهم أطفالا مثلى ويكون ما يكون بين الأطفال ، وأكون أنا الخاسر بل اليد السفلى . وكنت أحس بالأمر وأحاول جهدى استرضاءهم ، وأقوم لهم بكل عمل وأتجنب المصادمة مع غيرى فأصبحت كبيرا وأنا طفل ، وناضجا وأنا صغير السن ، أعتمد على نفسى قبل الأوان ، ومع ذلك فقد كنت الثانى على المدرسة الابتدائية وكان الأول ابن مدير الناحية وكنت الثالث على لواء ديالى . .

ولو كان لى حظ من رفاهية العيش وراحة البال لكان أمرى أمرا آخر . واستقرت بى الدراسة عندما كنت فى القسم الداخلى فيه نأكل ونشرب وننام

على حساب الدولة التى تختار الطلاب الذين يعيشون بعيدا عن بعقوبة ولهم معدلات معينة ، فتصرف عليهم . ولم يكن المبلغ الذى تصرفه غير دينار ونصف الدينار كان يكفى لكل طعامنا وشرابنا وحمامنا . والغريب أن مدير القسم الداخلى كان يأخذ منا ربع دينار مع أن القسم الداخلى كان يستوفى دينارا وربع الدينار . وكنا نخاف أن نسأل أو نحتج أوحتى نهمس بكلمه واحدة مادمنا نأكل ونشرب .

ومن الطريف أن أحد الأطباء جاء إلى الداخلى ، ولعله كان سوريا ، وعلمنا كيف نأكل بالشوكة والسكين وألا نأكل بأيدينا وتساهل معنا وقال: يمكن أن تأكلوا بالملعقة والشوكة وأن الغربى يأكل بالشوكة والسكين . وتساءل البعض:كيف يأكل بالشوكة ولا تجرحه ؟ ألا تدخل فى لسانه ؟ وكان أكثرنا يغافل الآخرين ويأكل بيده حتى أصبحت عادة استعمال أدوات الطعام ملازمة لنا .

ولما حدثت والدى بذلك قال : كنا ضباطا ، وكنا نضع الشوكة والملعقة والسكين فى رباط الرجل أثناء الحرب.وقد كنت يوما من الأيام جائعا فغسلت يدى وأخذت آكل بها . فرفع الضباط الأتراك أيديهم عن الطعام . فقلت لهم:إننا ضباط ويجب ان نأكل مثل الأسود . هل الأسود تأكل بالشوكة ؟ وهل بقيت هذه الأدوات نظيفة ؟ فما أسرع ما أخذ الضباط يأكلون بأيديهم ، وغدت عادة مادمنا داخل المعارك .

أكملت المتوسطة ، وقد نجحنا سبعة طلاب فى الدور الأول ، وكنت من الأوائل ، ولذلك حكاية طريفة . كان الامتحان فى ساحة المدرسة الابتدائية الكبيرة ، وكان يراقب الطلاب المعلمون ، وكان هؤلاء يساعدون الطلاب الذين يرونهم بحاجة إلى عون . ولكننى لم أثق بالمعلمين ، وكنت أحسب نفسى وصلت إلى مرحله التمييز . وفى يوم امتحان الحساب أو الهندسة استنجد ابن مسؤول كبير بأحد المراقبين فأعطاه أجوبة الامتحان

فى ذلك الدرس . ولا أدرى إن كان هذا المراقب قد أعطانى الأجوبة أو اننى رفضت أخذها لأنه كان عادلاً وكان يمر على الطلاب فرادى ويعطيهم الأجوبة . ومن الصدف أن الأجوبة كانت مغلوطة ، فرسب كل الطلاب باستثناء سبعة كنت واحداً منهم .

كنت أحب قراءة التاريخ وأستعير كتب الصفوف الأخرى وأقرأها وأحيانا أقرأ الكتاب المقرر دفعة واحدة وبخاصة كتاب القراءة أو المطالعة . وكانت هذه الكتب محدودة وتتأخر حتى تصل إلى الطلاب . فكان الطلاب فى الصفوف المتقدمة يبيعون الكتب لمن بعدهم من الطلاب ، وكنا نقبل على شراء هذه الكتب المستعملة لسببين :

١ ـ أنها رخيصة بالقياس إلى الكتب الجديدة .
٢ ـ نحصل عليها قبل أن تصل إلى يد الطلاب الآخرين .

تلغى الوزارة كتابا وتقرر كتابا آخر وهنا تبدأ المشاحنات بين الصفوف المتأخرة . فهذا يريد أن يسترد نقوده ، وذلك يرفض ، وغالبا ما يكون النصر للبائع لأنه تسلم المبالغ وتصرف فيها خلال العطلة .

كان الشعر قريبا إلى نفسى ولا سيما ما كانت له صلة بقضايا العرب والاستعمار . فقد كنا ننشد فى المدرسة الأناشيد التى تهاجم الاستعمار البريطانى وكنا ساخطين عليه وناقمين على احتلال بلادنا كارهين لغته الإنكليزية . وظهرت هذه الكراهية بوضوح عندما أعلن رشيد عالى الكيلانى الحرب على الإنكليز . فقد تجمع الطلاب فى الساحة وحرقوا كتب اللغة الإنكليزية التى كانوا يدرسون فيها وبذلك أفادوا الناشر البريطانى لأنهم اضطروا لشرائها بعد ذلك .

كانت قصائد معروف الرصافى وعبد المحسن الكاظمى ومحمد مهدى

البصير وعبد الرحمن البناء تدرس فى المدارس لأنها تطبع وتباع . من تلك الأناشيد :

بالحماية والوصاية كلها معنى الأسر
وعلى العيش بذل أبدا لانصطبر

وكانت تصلنا الأناشيد من الشام ونتعلمها من المعلمين ومنها :

ياظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلا فجر مجد يتسامى

ولكن الاستعمار وأعوانه ودعاة الإقليمية كانوا أقوى من التيار الوطنى لأن لهم نفوذهم وسيطرتهم ، فنشروا الأناشيد المضادة التى تغذى الإقليمية وتفرق العرب . فقد تعلم الطلاب :

من جنوب الفاو حتى الموصل أحيوا بالإخلاص عهد الأول

وكثرت هذه الأناشيد وبدأ الشباب الذى كان يفخر بأنه عربى يدعى بأنه عراقى . ثم فخرت المدن بالانتماء ، واصبحت الألقاب بالدبانية منتشرة فى العراق . فهذا بغدادى وذلك موصلى وآخر نجفى أو بصرى وكثرت أسماء واتجاهات تؤكد الإقليمية فى الشعب العراقى . كالمطعم العراقى والأدب العراقى وقد وقعت فى الغلطة نفسها فسميت الأدب العربى فى العراق (الأدب العراقى) وسميت كتابين لى باسم العراق . وبدأت تظهر آثار بابل ونينوى وصورة الجمل والسفينة والقفة العراقية على الطوابع والنقود والبطاقات التى تباع للسائحين .

وكان هذا العمل مخططا له تخطيطا مدروسا ، وكانوا فى لبنان يصورون الآثار الفنيقية وفى مصر الآثار الفرعونية . وأصبح الاهتمام بالأشوريين والبابليين والفنيقيين والفراعنة القصد الأول . وظهر ذلك واضحا فى

الكتاب الذى ألفه الأب أنستاس الكرمل عن تاريخ العراق . فقد أكد على هذا التاريخ ، ومر مرورا سريعا بالتاريخ العربى والإسلامى وهو أزهى عصور العراق وحضارته .

وكان تيار القومية والعرب يقف بقوة أمام هذا التيار ولكن بعد جيل أو جيلين وجدنا أبناء العرب أكثر تمسكا بالإقليمية وأشد ارتباطا بها . ونشأ جيل هذا اليوم يقدم مصالحه الفردية ومصالح العراق على المصلحة العامة للوطن العربى .

لم يبرز شاعر أو كاتب أو مفكر من أبناء بعقوبة ، ولعل الجيل الذى أنا منه تمكن من الاستمرار فى الدراسة والحصول على الدرجات العلمية ، وقليل منهم حصل على الدكتوراة فى فروع المعرفة المتعددة . وإذا أردنا أن نوسع دائرة بعقوبة وجدنا الدكتور فاضل حسين أول من حصل على الدكتوراة فى التاريخ فى لواء ديالى والدكتور عبد الحميد كاظم من الهويدر ومحمد على البصام والدكتور أحمد نجم الدين من بعقوبة . وعدد الذين حصلوا على الليسانس أكثر من الجيل الذى عاصرته . فقد كان فى الإسكندرية جاسم عبد الحسين السعدى حصل على الحقوق ومحمود حسين حصل على التربية الرياضية من القاهرة وصبحى البصام ليسانس آداب وكمال القيسى ليسانس حقوق من بغداد . وبعد ذلك كثر المدرسون والضباط والموظفون بعد جيلنا ، وتأسست الثانوية وذهب أهل بعقوبة إلى بغداد .

وفى عصرنا أو مرحلتنا ظهر شعراء العراق وكتابه الذين تأثروا بالأدب الغربى وقاعدتهم الأصالة ، ومن بعدهم جاء جيل أسف وأضاع الطريق إلا القليل منهم .

الحالة الاجتماعية :

بعقوبة بلد زراعي . ونشأت حول هذه الزراعة الحرف المساعدة كالحدادة والنجارة والنساجة والغزل . وأكثر الحرف يدوية بدائية يقوم بها صاحب الحرفة ، وغالبا ما يورث حرفته لأبنائه . وإلى جانبها نشأت البقالة لبيع ما تنتجه الزراعة لأصحاب هذه الحرف ، ثم العطارة تسندها وتغذى الحاجات الأخرى . ولما انتشرت الحضارة بدأت حرفة البزازة التى قضت على كثير من أعمال النسج ولم يبق منها غير نسج العبسى والأغطية الصوفية المتنوعة ، وكانت تسمى (جاجيم) .وللأرض ، الفجة أو اليان وجمعها (يانات) فى مثل هذه البيئة لن تجد طبقة مترفة إلا أصحاب الأملاك الذين يملكون البساتين والمقاطعات ، وكان أغلبهم من أهل بغداد . ولما كثرت وسائل التعليم وجاءت واردات النفط تغيرت هذه البلدة ونشأ فيها بعض الأغنياء .

لم نكن من طبقة غنية بعد أن ذهبت الأموال ، ولم نكن طبقة فقيرة متربة وإن كنا أقرب إلى الفقر منا إلى الغنى . ورثنا الكبرياء النفسى والعزة الروحية والنسب العريق مما جعل لنا مكانة فى المجتمع . فإن لقب (السيد) الذى كان يتقدّم اسم والدى وأخلاقه العالية ضمان احترام الناس له وتقديرهم لمكانة فى مجتمعه مع أننا لم نكن من المفاخرين بالأنساب والمباهين بالأصالة والمحتد والشجرة الكريمة المباركة . ولما فقهت الحياة وتعلمت حذفت هذا الاسم الكريم من اسمى ، ولكن بقى فى الوثائق الرسمية حتى ظن المصريون بأنه اسم . فقد كتبوا أمام اسمى السيد يوسف عز الدين ومع ذلك لم يغفل المجتمع الاعتداد والاهتمام بهذا النسب العلوى . فقد كانت أيام محرم الحرام تمثل واقعة الطف ، وكان المشرفون يلبسوننى الملابس الفاخرة طفلا لأمثل أحد أولاد مسلم بن عقيل . وقد علمونا أن نقول :

ده فكنا من السجن بالله يا سجان
إحنه أولاد مسلم نسل عدنان
ده فكنا من السجن وإحن نجازيك
جدنا من زلال الماى يسقيك

وهى أبيات عامية تثير عطف الناس وتؤجج الحقد على قاتل الحسين . وكان والدى رحمه الله يمثل العباس لأنه كان سيدا وكان فارسا شجاعا . ولما كبرت رفضت هذا الأمر . وكانوا يختارون أقبح الناس شكلا وسمعة ليكون (الشمر بن ذى الجوشن) . ورفض والدى أن يجلس على صدره هذا الإنسان متظاهرا بقطع رأسه لأنه كان ضابطا ما استسلم لعدو وما انهزم فى معركة . وصعب عليه أن يكون مخذولا ولو فى ساحة التمثيل وأن يجلس على صورة إنسان معروف بعدم الاحترام والتقدير من مجتمعه .

وغذت هذه الأصالة والشعور بالنسب فى روحى الكبرياء والاعتداد بالنفس والثقه الكبيرة وإن ربت فى نفسى الخجل والخوف من المجتمع الذى كنت أعيش فيه حتى لا يؤذينى إنسان بكلمة ، ويجرح إحساسى بإشارة صغيرة .

الفصل الثالث

الدراسة العلمية

الفصل الثالث

الدراسة العلمية

المدرسة الابتدائية :

فى الصف السادس الابتدائى بدأت أقلد شعر الشعراء وفيه بدأت الغرزمة أو القرزمة . وتجلت رغبتى فى الكتابة فى الصف الأول الثانوى ، فقد نظمت أبياتاً فى تحية العلم الذى كان يرفرف على سارية المدرسة تقليداً للشعراء الذين نقرأ شعرهم فى لقاء الطلاب فى الصباح أيام الخميس . .

وكان مدرس اللغة يسأل عن إنتاج الطلبة . فقرأ أحد الطلاب الصباح الوجوه ، فامتدحه وأثنى عليه . وقام أحد أبناء كبار الموظفين فاطرى إنتاجه . وقمت أنا وألقيت الأبيات التى نظمتها فى العلم وكانت تبدأ بكلمه (إيه) فهاجمنى وقال:بدأت القصيدة بكلمة لايجوز أن يبدأ بها الشعر . . ونال من شعرى ومنى من دون سبب إلا لأنى لم أكن أنيقا فى لباسى مثل أبناء بغداد . وأخرس صوت الشعر فى نفسى وقتله . . ومن الغرائب بعد أن أصبحت أمين المجمع العلمى العراقى أن جاء من لواء ديالى وقدم لى قصيدة له راجياً أن أبدى الرأى فيها حتى يلقيها فى مهرجان بغداد ، وقال إنه جاء من بلده لأنه لم يجد من يأتمنه على القصيدة سواى . . سبحان الله . . بالأمس كانت نبوءة مدرسى بأننى لا أصلح للشعر وعلىّ تركه . .

واليوم يأتي ليعرف رأيي في شعره لأنه لم يجد أحسن مني يأمنه على شعره ؟ !

ومن حسن الحظ أن هذا الانسان نقل بعد شهر إلى بغداد وجاء بعده أستاذ فلسطيني وكان شاعرا ينشر في مجلة الحاصد اسمه ميشيل حداد

وقرأ لنا شيئا من شعره حفظت منه :

إلهي أنت في البلوى معيني
وسلوة كل إنسان حزين
فخفف يا إلهي من شجوني
وأعد حبي العتيق
من ربى الماضي السحيق
يا إلهي

أبيات صورت العواطف الصادقة ، وبها رقة تهتز لها الأحاسيس .
وكان يشجعني على النظم ، فكتبت إليه وأنا في المتوسطة أبياتا أذكر منها :

إليك يا أبا نجوى
فؤاد كله شكوى
لقد حطمني الدهر
وآذت نفسي البلوى

فرح الرجل بها وأعاد تلاوتها ودفعني إلى الشعر وأعاد إلى الثقة بنفسي وأخذت أنظم الشعر عندما وجدت ضدق التعبير عن رغبات نفسي وعواطفي الكامنة . وكانت هواية الرسم تساير هواية نظم الشعر ولكن مازالت الكلمات المحدودة التي أعرفها تحول دون الوضوح ودون الإفصاح الكامل لأن عواطف المراهق كانت أكبر من وصفي لعواطفي ومشاعري إذ تتدفق بعنف وعمق في حين أن الألفاظ القليلة التي أعرفها تحول دون رسم الصورة التي أريدها لعواطفي ومشاعري .

دار المعلمين الإبتدائية :

كانت الدار نقطة تطور فى حياتى الأدبية . فقد وجدت عددا كبيرا من الكتب فى المكتبة ووجدت فيها ما كنت أتمنى ان أقرأه وأكثر مما كنت أتمناه . صحبت الكتب وللذت بأنواعها وتنوعها فكانت سببا فى زيادة الكلمات والألفاظ فى قاموسى الشعرى بما قرأت من دواوين الشعراء القدامى والمحدثين .

وكان فى الدار خيرة الأساتذة . ونقل عدد منهم إلى التعليم العالى بعد ذلك فسعدت بزمالتهم . أولهم عبد الرزاق محيى الدين الذى كان فى الامتحان الشفوى يسألنى أن أقرأ آخر ما نظمت ، ولا يسأل أى سؤال بعد ذلك . وكان يرشحنى لإلقاء القصائد فى الاجتماعات العامة . . وكانت دار المعلمين الابتدائية نواة كبيرة فى عالم الأدب والفكر قبل أن تأخذ دار المعلمين العالية مكانتها . . وكانت الوزارة ترسل إليها خير الكتب وأحسن المطبوعات . وكان مديرها محمد عاصم الجلبى من خيرة الإداريين المعروفين . وكان إبراهيم شوكة يدرسنا الجغرافية ويدرسنا الرياضيات شريف يوسف ،ودرسنا محمد على عبد الجبار،وكلهم أصبحوا من قادة الأساتذة وأكملوا دراساتهم ودرسّوا فى التعليم العالى .

إن وجود مكتبة ضخمة فتح أمامى ساحات واسعة من المعرفة . وقد كنت أحاول أن أتعرف على الكتب إذ من المتعذر قراءة كل الكتب مع واجبات الدار . . فكنت أستعير الكتاب وأحاول التهام ما فيه بصورة عجلى وسريعة وأقلب صفحاته وبخاصة إذا كان الكتاب من المراجع مثل تاريخ بغداد أو الأغانى أو الطبرى . ولكن كنت أقرأ بهدوء دواوين الشعراء وأحفظ مقتطفات من الشعر . . لذلك قرأت البحترى والمتنبى وجرير وابن زيدون وتركت شعر الفرزدق وأبى تمام والمعرى . كنت أحب شعر السليقة والبساطة واليسر وأترك التعقيد اللفظى والصناعة الكلامية إذ لم يكن ذوقى

ومعلوماتي اللغوية قد وصلت إلى مرحلة تقبل الصور العقلية عند شعراء الألفاظ وأصحاب المحسنات البديعية.

بدأت أنظم الشعر المقبول في دار المعلمين لأن الجو الثقافي كان يشجع الطالب على الإسهام في حفلات التعارف والمناسبات التي تقوم بها الدار . . وأول الشعراء الذين قلدتهم إسماعيل صبري والأخطل الصغير وعلى محمود طه . .

ومن الطريف أنني هجوت زميلا في الصف دعابة وتحببا . . وأراد أحد الزملاء إيذاء الزميل فكتب الأبيات على السبورة . . فغضب منه وذهب إلى مدير الدار يشكوه . . فأرسل المدير يسألني عن حقيقة الأمر .

لم أنكر وقلت له إنها دعابة شاعر لزميل له . . وإنه أساء إلى الطلاب .

لاحظت المدير ينظر إلى بإكبار وحب . . وكان حازما صارما .

والغريب أنه عاقب الطالب وتركني بدون عقاب . . مع أنني كنت شديد الخوف . وبعد زمن طويل حدثني الدكتور عبد الرزاق محيى الدين بأن المدير سأله:هل يوسف عز الدين شاعر جيد مثل معروف الرصافي ؟

قال له : نعم .

ولا أدرى إن كان تركني لأنه كان يحب معروف الرصافي أو أنه خاف أن أهجوه .

وكان تعليله للطالب بعد عقابه :

إن الشاعر قال ما يحسه في نفسه عن زميله . وقد قبل زميله هجاءه فيه . وأنت أسأت إليه لأنك نقلت الهجاء على السبورة فعرفه كل الطلاب . .

وكان المدير رحمه الله عندما يحضر إلى الحفلات يمدحني كثيرا ويقدمني

لأسرته وأبنائه الذين يحضرون معه إلى الحفلات .

رحمه الله فقد قتل بعد تقاعده فى ظروف مجهوله مؤلمة .

فى دار المعلمين وجدت جوا جديدا وأسلوب تعليم يختلف عما ألفناه فى المدارس . فالجو مفتوح للمناقشة وكتابة البحوث ومعاملة المدرسين معاملة تقوم على الاحترام الكبير وإبراز شخصية الطالب العلمية والفكرية والأدبية .. ولعل مرد ذلك إلى أن أكثرية المدرسين فى ثانوية بعقوبة كانوا من أهل بغداد وكانوا يجدون أنفسهم بعيدين عن بلدهم فينعكس البعد على تصرفاتهم .. أحسست بالفارق بين التعليم الثانوى ودار المعلمين . ولاشك فى أن لبعض المدرسين من مصر والشام سواء أكانوا من فلسطين أم لبنان أم سورية كانوا أكثر صلة بنا من المدرسين العراقيين .. ومن هؤلاء بدأت شحنات القومية العربية تدخل فى القلوب والشعور بالوطن العربى الكبير يسير مع الدروس ..

ونحن فى المتوسطة حدثت حركة بكر صدقى وجمعية الإصلاح الشعبى . والغريب أن المدرسين كانوا يتحدثون عن الرجعية والتقدمية وما كنا نعرف معنى هذه الكلمات . وكان كامل قزانجى يدرسنا اللغة الانكليزية ويتحدث عن قضايا فوق مداركنا .

إن دار المعلمين نقلة فكرية بين المدرسة التى يجب أن نتعلم فيها ما يقوله المعلم وبين دار تفتح لك المجال للبحث والدراسة . وأنا أقيس بين أمرين أحسست بهما عندما كان يدرسنا مدرسون من ذوى الخبرة الواسعة وفى الدار جمهره ممتازة . من هؤلاء عبد الرزاق محى الدين وعز الدين آل ياسين لتدريس اللغة العربية وكان الطلاب يحبون الأول ويخافون الثانى . . ومن الصدف أن كنت أحد طلاب عبد الرزاق محى الدين وكان شاعرا ذواقه أحس بما عندى من قابلية شعرية فدفعنى إلى الاعتداد بالنفس . وكان

يفسح لى المجال لإلقاء شعرى على الطلاب ، ومنه أحسست بالقدرة والثقة . وكنت ألقى شعرى فى كل المناسبات ، وللأسف ضاع كل هذا الشعر . ومن القصائد التى ألقيتها بيت تردّد صداه :

(الغرب يعرف ما للعرب من شان)

أخذت أنشر شعرى بتواقيع مستعارة (أبو نزار) (سمير الريف) وهو أشهر الأسماء و (يعين) و (السيد) .

وانصرفت للشعر السياسى والقومى والغزل ، وكان السياسى مشحونا ببغض الاستعمار . ومن هذه القصائد :

أمثل العراق الحر للضيم يخضع ؟
وهل إن آساد العروبة تفزع ؟

وبعد حركة رشيد عالى جمعت كل شعرى السياسى ووضعته فى صفيحة (قوطية) ودفنتها فى الأرض . ولما عادت الأمور إلى مجاريها وفتحت العلبة وجدتها والأوراق رماداً وكانت تضمّ فورق فى الشعر السياسى فأسفت أشد الأسف على ضياع التدفق الشعرى العفوى طعاما للأرض ، وخسرت شعر مرحلة متدفقة بالعطاء خوفا من السجن أو العقاب .

سنة ١٩٤١

حركة رشيد عالى الكيلانى هزت مشاعر الشباب العربي الوطنية هزا عنيفا ، فقد كانت النفوس مشحونة بكراهية الاستعمار البريطانى ، وكنت أكن للانكليز كرها خاصا لأنهم أفقروا والدى وسجنوه، وهم الذين طعنوه وكادوا أن يقتلوه . وزادت هذا الآلام أعمال للانكليز فى فلسطين والوطن العربى . . وكانت الحرب العظمى الثانية تنشر أموراً كثيرة عن معاركهم . .

انقسم العراق إلى قسمين :

قسم يوالى بريطانية والاستعمار البريطانى من أصحاب السلطة والنفوذ ، وهم قلة قليلة .

وقسم يتمنى أن تخسر بريطانية الحرب وأن تربح ألمانيا والمحور ، كراهية بالاستعمار البريطانى الذى أرهقهم ذلة وهوانا إضافة إلى أن الجيش البريطانى الذى سيطر على العراق أخذ رزق النّاس فزادت الأسعار ارتفاعا وفرض نظام التموين بالبطاقات التى لم يعرفها العراق من قبل وشحت الأطعمة والحاجات الضرورية من الأسواق وأصبحت صفوف طالبى الخبز والصمون تطول كل يوم مع أن العراق بلد الخيرات . وبدأت الدولة توزع الأقمشة القديمة على الناس ، واضطروا إلى تفصيل البطانيات والأقمشة الرخيصة ملابس لهم ومعاطف حماية من البرد وتعويضا عن الأقمشة .

إن التموين بالبطاقات أضر بالعراق الذى اعتاد على وفرة المواد فى أسواقه والمفاضلة بين كل البضائع فى حرب ليس للعراق فيها ناقة أو جمل غير إدعاء الحلفاء بأنهم يدافعون عن الحرية والديمقراطية بينما امتلأت السجون والمعتقلات بكل حرّ أبيّ لا يساير ركب الدولة التى كانت آلة بيد الإنكليز .

إن الشعب العراقى شعب صبور متى ثار يدمّر الأخضر واليابس ، ولكن للأسف لا يستمر فى ثورته طويلا ، فهو كالحلفاء التى إذا اشتعلت فيها النار احترقت كلها بسرعة وانطفأت بسرعة أيضا .

مر الشعب العراقى بعهود مختلفة ومتباينة ، وجذوره عميقة ، وكلها تختلف اختلافا عميقا . فله جذور بجميع الأمم من الأشورية والبابلية والعربية والفارسية والهندية واليونانية والسريانية والكردية والتركية ، فهو مزيج من حضارات قديمة ومن شعوب لها مقوماتها المختلفة وعاداتها المتباينة . وقد ذاق مرارة الاستعمار فى جميع أدواره بداية من الإسكندر

الرومانى إلى (مود) الانكليزى بشكل لا أظنه يحاكى أو يشابه شعباً من شعوب العالم .

الشعب العراقى :

العراق بلد غنى وله مركز عالمى فهو ينبوع الخير فى مائه وخصب أرضه . فكان مطمح كل الشعوب المجاورة والبعيدة التى تركت بصماتها فى أرضه . فلو تمكنا من فحص دم أى عراقى سنجده مزيجاً من كل هذه الشعوب . ففى العصر العباسى الذى سيطرت فيه بغداد والعراق على العالم جاءت الأمم إليه فى هجرات متعددة إمّا جنوداً فى الدولة الإسلامية أو طلاب علم للدراسة فى بغداد ، وأصبحوا حكاماً يساعدون بغداد على إدارة هذه الامبراطورية العظيمة . وجلبت الانتصارات الكبيرة عدداً من الأسرى من نساء ورجال من مختلف الشعوب المفتوحة حربا ، وكثروا ذات اليمين وذات الشمال فى العراق سواء فى بغداد أو البصرة أو الكوفة أو عواصم أخرى فاختلطت الدماء وكان يجمعها الدين الإسلامى واللغة العربية ، لذلك كان الشعب العراقى شعباً مفرداً فى أخلاقه وعاداته ولا أشك فى أن أكثريته من العرب . ولكن صفاء الدم فى العصر الحديث من المستحيل . إنه شعب نبيل متى وفيت له ، وله قابلية كبيرة على العمل والإبداع والتطور والتفوق ، قادر على الخلق والتنوع . فالصحراء الواسعة وما فيها من خيال واسع فى اتساعها أعطته حاسة قوية للتعرف على عوالمها وأسبغت عليه خشونتها . فهو معتد بنفسه دون إيذاء ، متحضر فيه بساطة الحياة بالرغم من حياة الفاقه التى كانت تشمل الصحراء قبل أن ينساح إلى العوالم المجاورة الغنية ويسكن العراق والشام . فهو قوى الجذور بالجزيرة وباديتها .

إن حياة العربى فى الصحراء بما فيها من صفاء الهواء وقلة المشكلات

دعته إلى الحرية والبساطة وأكسبته خيالا مجنحا ظهر أثره فى قصائد الشعراء وغناء المغنين واختراع الأصوات والأنغام .. فظهر العراقى وكأن له عدة شخصيات متناقضة ، جاءت من اختلاف الثقافات وتباين الحضارات وعمق الجذور الفكرية والنفسية والاقتصادية . فهو فى غاية السعادة ينشد أجمل ألحان الغزل وهو فى الوقت نفسه جاد حزين قلق مضطرب يحس بالغربة الروحية . إنه متطرف فى حبه وبغضه .. يريد الأمور واضحة صريحة . إنه تطرف تظهر فيه التناقضات .. فهو سريع الاستجابة يمثل قول الشاعر .

لايسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ماقال برهانا

وقول القائل :

للقاء العدا بيض السيوف وللندى حمر النعم
هذا وهذا دأبنا يودى دم ويراق دم

يعيش بين الكرم والقتال .. بين السماحة والغضب ، بين الرقة والخشونة

الصحراء البسيطة والمدنية أو الحضارة المعقدة وجو العراق الذى يصل إلى الصفر فى الشتاء والرمضاء فى الصيف هى من أسباب هذا التناقض وتعدد الشخصيات فى العراقى الفرد .

هل حياة البادية التى صاحبت العراق ، والثقافة المتنوعة المتعددة المعقدة هى التى شكلت هذا الشعب .. أم أن الجو المتقلب فى العراق وانخفاض الحرارة فى الصباح وهبوطها فى المساء وارتفاع درجة الحرارة فى الصيف وانخفاض البرد تحت الصفر والثقافات المتعددة والمتناقضة فى جذوره الفكرية هى التى خلقت فيه هذه الصفات ؟

سؤال يحتاج إلى دراسة علم الاجتماع وعلم النفس .

كان الشعب العربى يودّ انتصار المحور فى الحرب الثانية لا حبا به إنما كراهية للإنكليز فكان كل مطالب بالاصلاح يطلق عليه (نازى) ، فانتشر البيت الذى نظمته بين الناس

واذا تحريت الصواب بفعلة
ثاروا عليك وأتهموك (بنازى)

وعندما وقف العراق أمام رغبات الإنكليز كانت نفوس أهل العراق ولاسيما الشباب مشحونة بكراهية الإنكليز . فتصاعدت موجه الثورة وعمت أرجاء العراق وانتشرت الروح الوطنية حتى كان أهل العراق يرقصون طربا لكل خسارة تصاب بها جيوش الحلفاء ، وكان الناس يستمعون إلى صوت برلين ومابثه من إذاعة بحماسة شديدة .

كان الملك غازى رحمه الله قد أنشا إذاعة فى قصر الزهور تدعو إلى الوحدة العربية وتطالب بضم الكويت إلى العراق ، وكان الملك غازى يشرف بنفسه على هذه المحطة ويوجهها فكريا وإذاعيا . فكانت تلهب المشاعر والأحاسيس وترجو أن توحد العرب . لذلك كانت حركه رشيد عالى الجمرة التى أشعلت النار فى الصدور . وتوهم بعض الشباب بأن الإنكليز سوف يرحلون وأن العراق سيظفر باستقلاله كاملا .

لم أتخلف عن الركب وألهبت مشاعرى هذه الحماسة المتدفقة فنظمت قصيدة ألقيتها من إذاعة بغداد قائلا :

ربة الشعر اسعدى بالقصيد أنت قيثارتى وأنت نشيدى

بدأتها بالغزل على طريقة العرب ثم انتقلت منه إلى الموضوع نفسه فقلت أخاطب بغداد :

إيه بغداد غردى لاتبالى بعدو أذنابه فى الحدود
ارفعى الرأس شامخا بالمعالى واكتبى الخلد فى جبين الخلود

هاهو الجيش قد أذل الأعادى حرس الله جيشنا فى الوجود
هو حتف لكل من رام سوءاً لبلادى أرض الآباء والجدود
صعرى الخد فى الدنى وتباهى بليوث من الأباة الصيد

ومنها :
حرم الرأى أن يقال صريحاً
كل رأى فى الكون غير رشيد
إن رضينا تجبراً وعتواً
كيف نرضى بوأد رأى سديد

وقلت :
إيه شعبى ، وأنت وحى نشيدى
حين أشدو وفى القريض قصيدى
سوف تحيا بك الأمانى سكارى
رافلاتٍ فى حاليات العقود
بك يغدو العراق منهل وردٍ
وتقول الوفود : هل من جديد ؟

وكانت أجرة لى عن شعرى (٧٥٠ فلساً) وكان هذا المبلغ تحولا فى حياتى الفنية والفكرية بعد أن فصلت لأول مرة فى حياتى بذلة كاملة عند خياط فى بغداد .

وسرعان ماقضى على الثورة العارمة بصدور الشباب ، وتقصفت آمالهم بالتخلص من بريطانية .. ولو جمعت الدموع التى ذرفت يوم دخول الوصى على عرش العراق إلى بغداد لجرت فى الشوارع .. ولو أن الحسرات ركزت لأحرقت البلد من حرارتها وعمق ألمها .

أصبحنا نحن أبناء الجيل بالخيبة والحسرة والألم ، ولم أجد أشد ألما على

النفوس من خسارة العراق فى هذه مع المعركة .

أخذت السلطات تطارد كل من نظم شعراً فى تأييدالكيلانى.فقد جمعوا الجرائد والمجلات والقصائد التى كانت تترك فى الإذاعة والكلمات التى أخذتها من أصحابها وتتبعت هؤلاء الشعراء والكتاب والمفكرين ، ولابد لى أن أقول بإن القائمين على السلطة لم يسجنوا ثلاثة من المفكرين هم :

(١) **معروف الرصافى** من الشعراء
(٢) **فهمى المدرس** من الكتاب
(٣) **عبد الغفور البدرى** من الصحفيين

فقد بقيت المعايير القديمة ظاهرة لأنهم كانوا من كبار السن ومن أصحاب الأسماء.ولابد أنهم تركوا غيرهم ممن لا أذكر،فقد كانت هناك بقيه من احترام وثمالة من حياء اجتماعى ذهبت من حكامنا بعد ذلك .

وأخذت الدولة تتتبع الباقين .

قدم اسمى ضمن أسماء الذين يجب أن يلقى القبض عليهم لإرسالهم إلى المعتقل . ومن حسن الحظ أنهم لم يجدوا القصيدة منشورة ولم يجدوا لها أصلا فى دار الإذاعة ، ولعل اسمى كان جديدا على الصحافة لأنى طالب فلم تنشر القصيدة . . فأجلوا إسمى حتى يتأكدوا من هذا الأمر . وتشاء الصدف ثانية أن تمر الأسماء على صديق له صلة كبيرة بنا فشطب اسمى من القائمة بعد أن وجد بعض الأسماء قد شطبت ، ولأنهم لم يعرفوا عنوانى،أو لم أكن مشهوراً،نجوت من الاعتقال .

ولا أدرى إن كان لذلك أثره فى التعيين ، فقد عينت فى لواء ديالى فنفانى مدير المعارف إلى قرية إمام عسكر معلما بالرغم من العرف السائد بأن يعين خريج هذه الدار فى الألوية والأقضية،وأن يعين خريج الريفية فى القرى والأرياف لأنهم قد أهلوا لهذه المناطق ولأنهم أكثر معرفة منا بالريف

وتقاليده نحن أبناء المدن . ويظهر أن الرجل كان يعرف أو أن الأمن أخبره بمشاركتي في قصيدة وأن اسمي بين الشعراء المشبوهين بالثورة على السلطة لأنه جاء في زيارة إلى القرية البعيدة التي قلما يصلها أحد من المسؤولين . . ولما عرضت عليه أمر نقلي إلى المدينة لأنها المكان الطبيعي لي قال لي :

ألم تشارك بالفتنة العمياء ؟

قلت له . ما كان موقفك أنت ؟ هل أحارب الإنكليز أو أنضم إليهم ضد العراق ؟ أليس هذا هو السبيل الصحيح ؟

فسكت الرجل لأنه وجد أن الجواب سيكون في صالحي . . ولما ذهبت في نهاية الأسبوع إلى بعقوبة . قال لي المحاسب :

كنت جريئا وصريحا وقد قدرنا صدقك وصراحتك وكانت خطرا عليك .

إن حصولي على أجر هذه القصيدة دفعني إلى ترجيح كفة الشعر على الرسم لأني وجدت نفسي بقصيدة واحدة معروفا في بعقوبة . ثم إنني فصلت منها بذلة جديدة وفي بغداد التي كانت مطمح أبناء بعقوبة الشباب .

بقيت سنة كاملة في قريه إمام عسكر . . ولم يكن أمامي غير اختيار واحد هو أن أعمل . وكان أول عمل قمت به . . . أن نظمت مسرحية شعرية تصف حالة الريف في العراق والفلاحين ومشكلاتهم المتنوعة وما يعانيه من فقر وحرمان وسوء تغذية وكيف يتحكم شيخ القبيلة في الفلاحين وهم صابرون على المرض والجهل والجوع . إذ لم يكن في القرية كلها قصاب واحد ليأكلوا اللحم الذي لا يأكلونه إلا إذا أولم الشيخ وليمة لأحد الموظفين الذين يصلون إلى القرية أو في موسم من المواسم العامة . أو إذا أراد أحد الفلاحين أن يتخلص من ثور له أو خروف أصيب بالمرض .

فى إمام عسكر :

قرية من قرى لواء ديالى تتبع (بلدروز) إداريا ،وتبعد عنها حوالى الساعة على ظهور الخيل ، لم أكن أسمع بها وأنا ابن ديالى . أبنيتها من الطين وليس فيها سوق للبيع أو الشراء إنما تباع السلع المحدودة كالقماش والسكر والشاى فى البيوت . فيها طيبة القروى وسذاجة البدائى وحذر البدوى .

إن حاجات أبناء القرية محدودة ، فعندهم التمر وبعض الحبوب يزرعونها . بدائية وبساطة وسذاجة فى كل شىء.لا يعرفون اللحم إلا إذا ذبح عجل فى الشهر مرة أودعاهم شيخ القبيلة القريبة منهم .

يقضون شتاءهم فى المقاهى البدائية ، وأكثر حياتهم يقوم على المقايضة . وكل جماعة لها جانب من الحائط الطينى يخط عليه صاحب المقهى خطا واحدا لكل شاى يشربه ، حتى إذا حان وقت جنى التمر أو الحصاد يسدد هذا المزارع مقدارا من حاصله إلى صاحب المقهى .

كان مدير المدرسة خريج الريفية وكانت المدرسة هى البناية الوحيدة الحديثة التى بنيت من الطابوق ولها أبواب من الخشب وشبابيك زجاج تكسرت من عصف الرياح . فكنا نلصق عليه الورق المقوى لمنع الرياح من الدخول إلى الحجرات التى يدرس فيها الطلاب .

أكثر الطلاب لايسترهم إلا القليل من اللباس لايكاد يدفىء أجسامهم إذا كانت السماء باردة والجو ممطراً .. كنا نوقد النار داخل الصفوف الثلاثة حتى تسرى حرارة الجو فى أجسامهم .

تقع على النهر وأمامها ساحة كنا نجلس فيها أنا والمدير . وكانت أمانى الزميل أن يكون مفوضاً فى الشرطة حتى يكون بعدها معاونا فى الشرطة لأنه يحس بإهمال الناس للمعلم وعدم تقديرهم لجهوده .

كان لطيف الأخلاق سريع النكتة من أهل مندلى جميل المحيا حلو الشكل لذلك فتنت به بعض صبايا القرية فكثرت حوله الشكاوى السرية بدون توقيع .

كنت أمل عليه بعض القصائد ، ولا أظنه احتفظ بها بعد هذه الفترة الطويلة ، ولم يتخيل فى يوم من الأيام أن أكون أديبا له سمعة . كنت أراسل الجرائد وألقى بعض إنتاجى فى الإذاعة فكان هذا مثار دهشة أهل بلدروز الذين يستمعون إلى المذياع لأنه لم يكن قد انتشر فى البيوت . كان فى المقاهى من الضروريات الجديدة .

لم يكن فى بلدروز غير مدير ناحية ومفوض للشرطة،وقد يكون فيها معاون مدير شرطة . بدأت سمعتى تكبر أكثر من الواقع وحق لأهل بلدروز أن يكبروا هذه السمعة . معلم فى قرية إمام عسكر وليس فى الناحية يسمع صوته فى الإذاعة وتنشر الجرائد اسمه .

كان فى بلدروز عدد من المقاهى وحمام أوأكثر ، وكنا إذا أردنا أن نغسل نذهب إلى بلدروز . مياه الحمام تأخذ من النهر ، وطالما غسلنا بالماء الأحمر الذى لم تتم تنقيته .

كان القمل منتشرا فى القرية وبين أبنائها من الوساخة والإهمال نتيجة الفقر الذى سيطر على الفلاحين المساكين والجهل .

ووجدت فيها شخصا متميزا هو (الجاووش) فقد كان هو الموظف المتقاعد الوحيد الذى ذهب مع الدولة العثمانية . وكان يحدثنى كثيرا عن (القليج) ، لم أكن أعرف معنى القليج وأخجل أن أعرف هذا القليج الذى لا يفارقه أبدا وهو يعلقه متى أراد الاستراحة .

كنت أقضى وقتى معه وأفتح صدرى له ، وكان سعيدا بأن يحدثنى عن الحروب والغزوات التى قام بها فى أثناء الحكم العثمانى . . لم يكن يسير كما

يمشى أهل القرية . . إنه يسير بتؤدة ووقار ويرفع رأسه إن سار فى الشوارع . .

وكان فى القرية عطار مؤدب ، له عندى ولد فى المدرسة له خلق رضى وهو فى عداد الملاكين ، إذ يملك شيئا بيننا هناك من لايملك شيئا .

وكان ابن شيخ قبيله مجاورة للقرية يزورنى ، وهو لطيف المعشر تبدو عليه سيماء النظافة لأنه يزور المدينة ويشترى منها ملابسه . وقد دعانى إلى مضارب القبيلة وأكلت معهم ، بل كان يكثر من دعوتى لأنى لا أتركه دون أن يأكل معى .

كنت أجلب معى الزبد والجبن وحاجاتى المتعددة من بعقوبة . ولم يكن أهل القرية يرضون أن يبيعوا لى لأن البيع عيب . ولم يكونوا يريدون أن يهدوا إلى لأن أكثرهم لايملك ما يهدى . . كان عدد القادرين محدودا وكانوا يمنون علينا بإرسال بعض اللبن الذى يؤخذ منه الزبد وما يسمى فى العراق (لبن كيس) لأنهم بعد أن يخثروا اللبن يضعون معه الماء ثم يخضونه فى الشكوة ويأخذون زبدته ويشربون هذا اللبن مع التمر .

كانت الصداقة مع ابن الشيخ قوية ، وكان يظننى من أهل الحاضرة المترفين وأنه ابن القرية القوى . وفى يوم من الأيام أراد اختبار فروسيتى أو أنه أراد إظهار براعته فى ركوب الخيل . وجاءنى بحصان وقبل أن أركبه داعبته وربت على رقبته ليألفنى،وأخذ هو حصانا آخر حتى نتنزه على ظهور الخيل . وما إن وصلنا إلى منطقة قريبة من حيه حتى قال لى :

تلز يا سيد ؟
أراد أن نتسابق على ظهر الخيل . .
فقلت له : إن أردت .

فانطلق على صهوة جواده . لم أكن أفكر إلا بالنزهة واستهوانى طراد

الخيل إذ لم أمتط ظهرها منذ فترة . . وإذا به على حين غرة يضرب حصانى بعصاه . . فما أحسست إلا والحصان ينطلق بكل قوة . . فعرفت أنه أراد أن يتحدانى . .

سيطرت على حصانى بعد المفاجأة وأخذ يعدو وأنا على ظهره بكل قوة وطرت أسابق الريح .

فسمعت صوته ورائى يقول :

سيد . . سيد . . لاتستعجل . . ولكن كنت تركته فى غبار الحصان . ولما أجهدت الحصان نزلت عن ظهره وربت على رقبته لأشعر الحصان بأنى أشكره . . والخيل تعرف وتفهم الشكر والتقدير وتعرف الفارس المسيطر والضعيف .

وبعد فترة جاء يعدو على حصانه وقد ظهر عليه الألم والحسرة وقال:والله يا سيد ظننتك (حضرى) لا تركب الخيل .

قلت:هل الحضر لا يركبون الخيل . . ؟ ثم قال:غرقتنى بالخجل .

قلت:ولمَ الخجل وأنا على ظهر الخيل ؟ ثم إنك ضربت الحصان وتحديتنى وأردت أن أسقط من على ظهره ، فكيف لو تقطرت ؟

أخذ يعتذر ، وبعدها أفصح لى عن أمره فقال :

كانت خطيبتى ، تراقبنى وأردت أن أظهر لها براعتى فى ركوب الخيل فجاءت الخيبة على . .

والواقع نحن نملك حصانا فى الدار كان والدى يستعمله فى مهامه الرسمية.وعندما آخذه لأورده الماء أبتعد به إلى الشارع العام . . وكنت أحاول السباق مع السيارات ، وبالفعل كنت أسبق بعض اللوريات . . إذ لم أكن أسابق السيارات الصغيرة لأنى أعرف سلفا أننى الخاسر .

وفى يوم من الأيام اغتاظ أحد سائقى سيارات الحمل منى وذهب إلى والدى يشكو من تصرفى . . أو لعله كان صديقا لوالدى وخاف أن يحدث لى مكروه لأن الوالد رحمه الله عاتبنى برفق وقال:يمكن أن تطارد على ظهر الحصان ولكن قد تسحقك السيارة .

كيف أقضى وقتى فى هذه القرية وكيف أنام على الأرض؟

كنت جلبت معى أدواتى البسيطة وبعض الكتب . . ولم تكن غير رزمة كبيرة فيها اللحاف والدوشك والمخدة وحقيبة فيها ملابسى وكتبى وضعت على ظهر بغل استأجرته من بلدوز وركبت أنا على ظهر حصان وكان المكارى يمشى على رجليه حتى وصلنا قرية إمام عسكر .

قيل إن هناك من يصنع السراير من جريد النخل وهو بلا عمل ولكنه خبير فى صناعة السرر .

كنا بحاجة إلى جريد النخل لنصنع السرير . . من أين لنا بالجريد . أحس طلاب القرية بحاجتنا إلى الجريد فجاءوا فى الصباح وكل واحد سحب وراءه جريدة أو جريد تين فتجمع عدد منها فبادر الرجل إلى قطعها ثم ثقبها حتى شكل لى سريراً خاصا بى . وكنت أنام فى حجرة من حجر المدرسة .

حاولت أن أكيف نفسى فى هذه الحجرة وما كان معى من الكتب . ومن حسن الحظ وجدت بعض الكتب التى ترسلها المعارف إلى المدرسة ولم تفتح ولم يرها أحد.وقد كان بها كثير من الكتب المفيدة .

كنت أخرج متوغلا فى الفضاء الرحب وأتمتع بجمال الكون وهدوء الحياة وبساطتها بالقياس إلى حركة المواصلات فى بعقوبة . . وكنت أرى الفلاحات يحملن على رؤوسهن الحطب لجلبه إلى بيوتهن .

كانت المرأة تعمل بجد وجرأة ، وكان الرجل يخلد إلى الراحة فى

المقاهي ويقضي الوقت في لعب الورق .

وكانت القرية تحتفي عشرة أيام في السنة وتكون شديدة الحركة في قبيلة تميم المجاورة فيأتيها أحد قراء (التعازي الحسينية) يندب فيها الإمام الحسين ويخرج جمع منهم يلطمون صدورهم ويبكون . وفي العاشر منه تقام تمثيلية مقتل الحسين وتنتهي هذه الحركة .. بمقتل سيد الشهداء ..

ويفرح أهل القرية والقبيلة إذا جاءهم أحد الموظفين كمدير الناحية أو المفوض لأن رئيس القبيلة سوف يذبح ذبيحة ، وبذلك يذوق هؤلاء الطعام من الرز واللحم ..

الحياة رتيبة في القرية بين تعليم الأطفال وبين قضاء وقت في التفرج على ما وهبها الله من جمال .. وفي الشتاء عندما تأتي طيور (الزاغ) يفرح بها ابن القرية لأنه سوف يأكل اللحم ويصطادونها بشباك يعدونها لذلك .. عندما تأوي إلى الأشجار مساء ..

ومنهم من يصطاد الصقور ويربيها ليستفيد من بيعها ، وقلة قليلة ميسورة الحال قادرة على تدريب هذا الطائر للصيد والقنص ..

لابد لي أن أعمل شيئاً وأملأ فراغي .. وقد شاءت الصدف أن تحدث حادثة زواج في القرية .. وقد تكون هذه الحادثة عابرة إلا أنني وجدت شباب القرية يتألمون وينقمون على هذا الزواج ، ولما تحريت الأمر عرفت أن الفتاة الشابة الجميلة حلم أبناء القرية كانت تحب ابن عم لها ، وكان هذا الشخص متريا لذلك تزوجها شيخ له غنى ومال . فجر عليها الحسرة وعلى أبناء القرية الألم .. إنها حادثة تحدث كثيرا بين أبناء الريف والقرى وفي العالم كله ..

كانت فرصة لي أن اعمل شيئاً فنظمت مسرحية شعرية صوّرتُ فيها

حياة الريف وما يعانية الفلاح والمرأة فى الريف،وزدت عليها من الخيال فكانت مسرحية شغلت فيها وقتي . .

مدرسة إمام عسكر :

كان فى المدرسة ستة صفوف من الصف الأول إلى الصف السادس . ومدير المدرسة لم يكن قادراً على تدريس غير الصف الأول والثانى أو أنه وجدها فرصة وادعى ذلك فماذا أصنع ؟

وضعت الصف الثالث والرابع فى جانب من الحجرة والخامس والسادس فى الجانب الآخر . . ولكن كيف يمكن تدريس كل المواد لأربعة صفوف فى ساعة واحدة . . مع أننى كنت أطيل الساعات ؟ لكن الصعوبة كانت فى تدريس اللغة الانكليزية والرياضيات والعربية إذ كل درس منها يحتاج إلى وقت للفهم والدراسة . وبالرغم من محاولة عدم فتح الصف الخامس والسادس فإن المعارف وافقت على جعل المدرسة ابتدائية وبذلك حصل المدير على طموحه بأنه مدير مدرسة ابتدائية عوضا عن المدرسة الأولية . . وخسر الطلاب . . ولم تسعف المعارف المدرسة بمعلم إضافى ، وهى بحاجة إلى أربعة معلمين . وهكذا كان شأن المعارف تعمل دون روية أو اتساع فكر .

كان عدد الطلاب محدودا ، ولكن لم أكن أقدر على إبقائهم أكثر من الدوام الرسمى لأن أهلهم يحتاجون إليهم ، وهذا خلاف نظام الوزارة .

حاولت أن آخذ معى وظائف الطلاب التى أعطيها لهم ولكنى كنت بحاجة إلى وقت التصحيح لتنبيه الطلاب إلى أغلاطهم كيلا يقعوا فيها ثانية وبذلك يضيع الوقت فى التدريس والدرس الجديد،وما كان الطلاب قادرين على الدراسة فى بيوتهم لأنها غير معدة للدراسة ، والطلاب يأتون إلى المدرسة

مجبرين لأنها كانت من المناطق التى أعلن فيها التعليم الإجبارى .

كان مدير المدرسة يواجه مشكلات فى جمع الطلاب ويقدم أولياء الأمور للمحاكمة لأنهم لا يرسلون أبناءهم إلى المدرسة . وكانت المحكمة بعد إجراءات طويلة تحكم على المتخلف بغرامة دينار واحد وهو مبلغ كبير إذا قيس بموارد الفلاح المحدودة .

لقد كانوا يكرهون المدرسة والمعلمين لأنهم كانوا سببا فى أخذ أبنائهم للتعليم وفرض غرامات عليهم . صحيح أن حالات الغرامة كانت قليلة لأن الفلاحين كانوا يرسلون أبناءهم ، ولكن حضور الطالب مرغما كانت له آثاره السيئة على التعليم .. فيجب أن أحبب لهم العلم والتعليم إضافة إلى تدريس أربعة صفوف فى وقت واحد وبدروس متعددة ..

ومع أننى سويت الساعات فى الجدول ولاءمت بين الدروس لكن كان لابد من تلاقى الدروس الصعبة فى أكثر من درس خلال الأسبوع مما يعرقل الوصول إلى الهدف الذى كنت أتوخاه من تعليم هؤلاء ..

ومع أن راتبى كان محدودا فقد حاولت أن أعينهم فى بعض الكتب والأقلام والدفاتر بصورة عامة على شكل هبات تقديرية لمن يتفوق على أقرانه . وقد استفاد جزء من هؤلاء وبدأت الهمم تتحفز عند بعض الطلاب .

إنها تجربة قاسية جاءت من عدم دراية المعارف بحاجات المدارس .

ففى الوقت الذى ازدحمت بعقوبة وغيرها من الأقضية بعدد من المعلمين كانت القرى بحاجة إلى معلمين لأن المحسوبية القاتلة كانت تؤثر أثرها وتعمل عملها فى تخريب مصالح المجتمع فى سبيل مصلحة الأفراد .

كنت بحاجة إلى الاتصال بالعالم الخارجى فأنا إنسان له صلات روحية بالأدب وليس فى القرية أقل وسائل المدنية . فالماء نجلبه من النهر ونخلطه

بالشب حتى يصفى وهيهات أن يصفى الماء . أما الضياء فكنا نعتمد على الفوانيس وعلى المصابيح الجديدة التى تسمى (اللمبة) وهى من الكلمة الانكليزية (Lamp) . . كنا نستضىء بها وهى بالقياس إلى أبناء القرية ترف كبير . كان النفط يأتى من بلدروز وكانت إضاءة الفلاح ساذجة وبسيطة فهو يضع تمرة فى رأس قنينة ويدخل من التمرة الفتيلة البسيطة حتى تصل إلى قعر الزجاجة (البطل) التى فيها عادة النفط وعندما تحترق ترسل بدخانها واضحا فى أنحاء البيوت الطينية الساذجة . . وهم يستنشقونه مع الهواء .

كان البريد شحيحاً فى بلدروز وكنا نرسل الفراش أسبوعيا لجلبه . ولا أظن بين أبناء القرية من له صلات بالعالم الخارجى ، فهو عالم مغلق يهتم بنفسه وبمشكلات حياته البسيطة والساذجة .

اشتركت بمجلة الثقافة التى كانت تصدر فى القاهرة وبجريدة عراقية .

إن إلقاء بعض شعرى وبعض الأحاديث من الإذاعه أثر فى مدير البريد بل فى الناحية كلها . لذلك كان الرجل حريصا على جمع البريد وإرسال تحياته مع الفراش عندما يذهب إليه . وكأنه يرسل بالتحيات إلى شكسبير أو هوكو أو المتنبى أو الجاحظ . وبالفعل بالقياس إلى المستوى الثقافى كنت أفوق هؤلاء العمالقة والشعراء . فلم يكن هناك إلا بعض المعلمين والموظفين الذين يجيدون القراءة والكتابة .

كان وجودى سببا فى بعث حركة محدودة فى الناحية للقراءة والكتابة وممارسة بعض الشعر تقليداً لهذا الصوت الجديد الذى أصبح معروفاً فى الناحية . . أما أهل القرية فلا أظنهم عرفوا عنى شيئا لأنهم فى شغل شاغل عن الشعر والأدب .

كنا نفرح إذا جاء العريف لأنه سوف ينزل فى المدرسة ضيفا ، ومعناه أن أهل القرية سوف يقدمون له كل شىء دون مقابل من الزبد واللبن

والتمر . وهكذا الجهل يخاف من القوة والسطوة ، وهكذا الذين ربوا على الخوف والرعب يرهبون القوة . . وعندما يأتى الفوض تقوم قيامة القرية احتفالا واحتراما،ولا يأتيها إلا إذا حدث فيها حادث كبير .

جاءنا مرة وأخذ يحدثنا عن كيفيه اكتشاف بعض السرقات ، ولم تكن تلك السرقات إلا بعض الطعام والفاكهة التى يحتاج إليها الفلاح فى قوته اليومى . كان يربط الأرجل بالفلقة ويقسو فى الضرب حتى يسمع الآخرون صراخ المضروب فيخافون ويعترفون بسرقه البرتقال أوكمية من الحنطة أو الشعير .

إن الحاجة الماسة والجوع الكافر يدفعان الناس إلى السرقة ويسميها أبناء القرية (الحوف) وهذا ليس عيبا إنما هى رجولة وقوة ومدعاة فخر ، لذلك كان السارق لا يخفى سرقته وبخاصة إذا كانت السرقة من مكان بعيد عن القرية .

إن الإقطاع المحدود فى العراق استغل هؤلاء الفلاحين استغلالا سيئا وكان له زبانية يحرسون الإقطاعى الذى تحول إلى مالك للأرض ، وكانت الأراضى ملكا للعشيرة كلها . وبالسهولة ضبط أفرادها سجلت باسم الشيخ ، فتحول إلى مالك تحكم فى رقاب الفلاحين أبناء عشيرته ، واستعبدهم . وفى بعض المناطق كان للإقطاعى سجن يزج فيه بالمخالفين لأوامره ومن لا يطيع تعليماته . . ويصفدهم بالحديد فى أحيان كثيرة . .

خصصت المعارف مبلغا من المال لشراء الكتب ولوازم القرطاسية للطلاب ، وكانت لا تكفى هذا العدد من الفقراء والمحتاجين . . ولابد أن تشترى لهم الأقلام والدفاتر التى تستهلك بسرعة ، فماذا أصنع ؟

اشتريت كتبا مستعملة ، وبذلك وفرت مبلغا من المال أشترى منه الدفاتر والأقلام والمساطر والماحيات . . ولابد أن بائع الكتب حسينى

سرقت الفرق أو أنني أخذت القرطاسية لي لأني رجوته أن يوقع المستندات بالمبلغ كله بالكتب المستعملة مع أنني أخذت اشرح له السبب وبأنه قبض المبلغ كله الذي خصص لهذه الغاية .

إنها مخالفة مالية ولو وصلت إلى التفتيش لا تهمت بالسرقة . ولكن لم يكن أمامي من حيلة غيرها أكفي بها حاجات الطلاب المحتاجين .

كنت أذهب شهريا لمقابلة صديق عزيز من الوطن العربي كان معي في القسم الداخلي عندما كنت في الدار وكان يدرس الحقوق وأسهم بنشاطه وأدبه في حركة رشيد عالي الكيلاني . وبعد أن تم للانكليز السيطرة بدأت السلطات تطارده لتلقي القبض عليه فاختفى في أزقة بغداد التي يسكنها النصارى .

كنت أزوره وأشد أزره مع انني بحاجة إلى عون نفسي . . وكنت آخذ معي فصول المسرحية لكتابتها في دفتر واحد فقد كان ذا خط جميل وذوق رفيع وكنت أريد أن يشغل نفسه بشيء من العمل . وقد استفدت من ملاحظاته في الشعر كثيرا .

حاولت مساعدته برغم أن راتبي محدود فقد تخلى عنه الأصدقاء . . وكانت السفرة بحد ذاتها شاقة،فكنت أذهب على ظهور الدواب إلى بلدروز ومنها آخذ السيارة إلى بعقوبة وبعدها أذهب إلى بغداد . . ولكن وجدت من الوفاء عدم ترك إنسان كريم وعربي نبيل يفيض بالإيمان العميق بحق أمته ومصيرها . وكان حالما بأن الحلفاء سوف يخسرون الحرب . . وبالرغم من معاناته فقد كان جلدا . . ملأ حيطان حجرته بالقصائد التي كان ينظمها أو يختارها لقضاء الوقت وكان يخرج ليلا متسترا حتى يفرج عن نفسه همها . .

وقد ساعدته الظروف بالذهاب إلى البصرة والكويت وتزوج هناك

ولانت له أسباب الحياة والمجد والشهرة فكان خير صديق حبيب .

كنت أعرض عليه القصائد التى أنظمها لأقدمها للإذاعة وكان صادقا فى نقده مصيبا فى رأيه وكان يكتب لى القصائد بخطه الجميل وآخذها للإذاعة .

بقيت سنة كاملة أوسنة دراسية فى قرية إمام عسكر .. وبضغط خارجي على مدير المعارف وتلبية لمطلب خاص من أحد الأساتذة الطيبين الذين درّسوني تم نقلي إلى قرية الهويدر . وبذلك أخلف مدير المعارف وعده ولم أنقل إلى بعقوبة .

والهويدر قرية جميلة تقع على نهر ديالى وتحفها البساتين من كل جوانبها . وفى القرية بعض الأهالى يملكون جانبا من هذه البساتين . وهم اجتماعيون ولهم صلات مباشرة ببغداد وأهلها ، وتزار من أصدقائهم . قد برز منهم الدكتور عبد الحميد كاظم (رحم) وهو من أهل سامراء الساكنين فى الهويدر ، وهو من القله الذين أكملوا دراستهم العالية حتى درجة الدكتوراة.ومنهم شخصان آخران أكملا الدراسة أحدهما فى الحقوق والآخر فى الطب ، وعلى ما أذكر لعل أحدهما رفعت الحاج على مع أخيه الذى فاتنى اسمه الآن .

كان الطريق وعرا وصعبا ، وكنا نذهب إلى المدرسة مشيا على الأقدام فى الأيام الجميلة . وكان الطريق يساير نهر ديالى ، فكانت الطبيعة بجمالها وضحكاتها تخفف من وطأة المسير .. ومتى نزلت الأمطار استحالت إلى برك وأوحال . عندها لابد من استعمال العربات التى تذهب إلى القرية .

ومع أننا استأجرنا عربة لتنقلنا إلى المدرسة من القرية فقد كان يحلو لنا أن نذهب إليها صباحا راجلين ، ولكن لابد من عودتنا فى العربة عند الظهر بعد إرهاق العمل الطويل فى المدرسة .

فكرت فى إبراز مواهب الطلاب . فقد وجدت عند بعضهم قابلية للكتابة والنظم وأخرجت لهم صحيفة الحائط ، فكانت حدثا كبيرا.فرح بها الطلاب والمدير المرحوم نظيف قاسم وبالفعل كانت مدعاة شكر وتقدير من المفتش عبد القادر سليمان فأرسل رسالة طويلة لابد أنها محفوظة فى ملفى فيها إطراء لطيف . ولعل من الطريف أن الأستاذ عبد القادر سليمان كان قد درسنى فى الابتدائية ، وقد درست أبناءه وبقيت صداقتى معه حتى تركت العراق . .

استمر نشاطى الأدبى والفكرى ، وكنت أسهم فى كل نشاط عام فى بعقوبة . ونظمت عدة أناشيد مدرسية كانت تردد فى الإذاعة وعلى ألسنة الطلاب الصغار ، وقد لحن هذه الأناشيد كامل العزاوى وهو زميل عزيز من أهل بهرز كان ممثلا قديرا وقد أكمل دراسته فى القاهرة .

فرقة تمثيل :

كان عدد الطلاب الفقراء فى بعقوبة كبيرا ، وكانوا يحتاجون إلى عون مالى ففكرنا أنا ومحمد على هادى السعيد وكامل العزاوى وحكمة لبيب فى تشكيل فرقة تمثيل تجمع فيها بعض الأموال للفقراء . . واختارنى الإخوان رئيسا لإدارة هذه الفرقة ، وقد مثلنا بالفعل مسرحية عربية وحضرها جمهور كبير.وكان أكثرهم حضوراً أولئك الذين تسلقوا أسوار المدرسة المتوسطة للبنات التى مَثّلنا فيها الرواية . كان يضطلع بالبطولة محمد على السعيد والعزاوى وكان لنا الأدوار الثانوية والإدارة وتوزيع البطاقات وجمع الأموال لسّد مصروفات الفرقة .

وقد تبرع أحد المعلمين بالتوزيع ، وأخذ ثلث البطاقات وذهب بها إلى الجيش فى الثكنة . ولما طالبناه بالمبلغ أنكر بأنه تسلم من الضباط المبالغ ، ولابد أنه أخذها ولعب بها القمار لأنه من أشهر لاعبى القمار ، وبذلك

أضاع ثلث مجهودنا ولم نقدر على الوفاء بالمصروفات إلا بمشقة ولم يبق من المال إلا النزر القليل ، وبذلك قصف الرجل أهم أعماله وأهدافنا النبيلة .. وقد قيل إنه مات بالسرطان ..

ومن الطريف أن أحد الشيوخ المشهورين بالكرم بين الناس كان فى بعقوبة وفتح فى بيته ديوان ضيوف يرتاده الناس للأكل والشرب واحتساء القهوة .. فذهبت إليه أرجوه أن يشترى بعض بطاقات مساهمة فى مساعدة الطلاب الفقراء ..

قال : أنا أشترى كل البطاقات . فسعدت بهذه البادرة الكريمة ثم أردف وقال : على أن تعلن ذلك قبل رفع الستارة أمام الجمهور . فنزل الرجل من عينى وقلت :

إن شراءك العدد الكبير سوف يمنع الناس من رؤية الرواية التى بذلنا فيها طاقتنا،ثم إننا نريد أن نساعد الفقراء ، ولا نريد أن نكون بوقاً لأحد . والكريم من يتبرع للفقراء بصمت وهدوء .. ثم أعطيته بطاقة واحدة وأخذت ثمنها وانصرفت آسفاً على هذا الاسم الضخم الكاذب .

مشكلات العراق :

كانت الطائفية والمحسوبية والأسرية والبلدانية متفشية فى كل حياة العراق ، فقد خرجنا من حكم الدولة العثمانية وكان الحكام قد ورثوا المصائب من الدولة وقد طبقت على المجتمع العراقى بأسره . وكانت المحسوبية بأنواعها هى الرابطة الاجتماعية أو الضمان الاجتماعى لأبناء البلد أو الأسرة أو الطائفة ، إذ أن مصلحة المجموع لم تكن تدور فى خلد الحاكم العراقى .. وكل واحد يريد لنفسه المكاسب والمغانم وإن قلت له : إن التصرف بأموال الدولة بغير حقها حرام .. أجاب : إنه مال الدولة وليس مال أبيك .

إن الانفصام كان واضحا بين الدولة وأبناء الشعب ، وقد ورثنا ذلك من العهود القديمة التى كان أكثر حكامها من الأجانب بداية من حكم الأتراك فى العهد العباسى والحكم الفارسى ثم الحكم العثمانى والبريطانى . لم يكن الشعب العراقى فى يوم من الأيام قادرا على انتخاب حكامه أو له رأى فيهم ، إنما كانوا يفرضون عليه ، رضى الشعب أم لم يرض ، ولم تنفع كل ضروب الاحتجاج والسخط فى إحداث تغيير جوهرى فى حياته .

ولن يكون للشعب دور حاسم إلا إذا سمع صوته وشارك فى حكم نفسه . وبالرغم من أن بعض العهود بعد الحكم الإنكليزى المباشر أعلن عن أحزاب سياسية ووجود مجلسين للنواب والأعيان إلا أن تزييف إرادة هذا الشعب لم يكن خافيا على أحد ، فالحكومة تأتى بمن تريد وتنحى من تريد . ولعلنا نذكر أن أحد نواب الشعب قال:إننا جئنا بإرادة الشعب.فما كان من نورى السعيد إلا أن قال :

إذا خرجت من المجلس هل تقدر أن تعود إليه . وتحداه أن يصنع . . إن الشعب العراقى مازال جاهلا ثقافيا ويحتاج إلى سنين حتى يتطور وحتى يتحضر . ولن يسمح له أعداؤه بمثل هذه الحياة التحضرة . وسوف يقفون أمامه بالمرصاد بكل الوسائل الشريفة وغير الشريفة .

بقيت المحسوبية تنخر فى جسم الشعب ، ثم تحولت إلى المؤسسات الجديدة كالحزب والنادى والجمعية والنقابة . فأخذ كلٌ يتحزب إلى ناديه الأدبى أو الرياضى أو نقابته ، وقد تحول الإنتماء الأسرى والعشائرى إلى المؤسسات الجديدة . إن المؤثرات الوراثية والتقاليد السائدة والعادات التى تحكم الشعب العراقى بحاجة إلى زمن طويل ليواكب مسيرة حضارة البشر العالية .

مدرسة الهويدر :

كنت يوما من أيامي جالسا فى نادى الموظفين . . فجلس إلى جوارى أحد المعلمين الذين يعملون فى مدرسة بعقوبة الثانية . . وكان رجلا محبوباً كريم النفس منطويا على نفسه منعزلا عن الناس من أسرة نجفية كريمة ، له قرابة وثيقة بمدير المعارف . قال لى : سمعت بأنك تريد أن تنقل إلى بعقوبة . وأنا أريد أن أنقل إلى الهويدر لأنى أفضل القرية لرخص حياتها ولأنى أريد أن أنصرف عن الناس ولأنها هادئة . هل تريد أن تأتى مكانى وأذهب فى مكانك ؟

قلت : هذه أمنية يصعب علىّ أن أحققها مع مدير المعارف . . فهو يعرف مقدار رغبتى فى العيش فى المكان الذى يريحنى . . ولكنه دائما يصر على رأيه ، وليس لى قوة فى إقناعه .

أخرج الرجل عريضة مكتوبة وقد وقعها وفيها طلب نقله إلى مكانى ونقلى إلى مكانه وقال لى : وقعها وخذها إلى مدير المعارف لأنى لا أريد أن أراه .

قلت : لا أظنه يوافق

قال : خذها وسوف يوافق .

ما كان عندى المقدرة على الذهاب إلى مدير للمعارف لأنى أعرف موقفه منى ولكن معرفتى بقرابة الرجل له دعتنى للذهاب .

وبالفعل رفض مدير المعارف . . وعدت إليه بالعريضة فأخذها من يدى وقال : تعال معى . وذهبنا معاً ودخل إليه فى مكتبه دون استئذان .

وبحزم وشدة ولوم شديد من الرجل وافق مدير المعارف وعلى وجهه علامات لا أدرى أهى الخوف من الإهانة أم لأنه خسر رأيه . . كنت فى دهشة لأنه وافق بسرعة ولم ينبس ببنت شفة .

كانت زوجة المدير(رحمها الله) ذات سيطرة كبيرة عليه . . وكانت هذه

الزوجة سليطة تشتمه علنا أمام الناس والموظفين . والغريب أنه كان يقبل هذه الشتائم ، ومن الغريب أنه أراد الذهاب إلى إحدى قرى اللواء وذهب إليه المفتش وأحد الموظفين وطرقا الباب ليكون على رأسهم ولما خرج وهم بركوب السيارة صاحت :

فلان .. فلان إذا لم تجلب معك الحاجة الفلانية لن تدخل الدار.إنها زوجة عرمة أساءت إلى زوجها وأسرتها وكان زوجها يبكي ويقول إنها غلطتي من اليوم الأول ؟ فلولا المحسوبية لما كان مثل هذا الإنسان مديرا للمعارف.فإن أسرة السيدة الكبيرة هي التي كانت تسند الرجل وكانت السيدة تمن بفضلها عليه،وكان مما لست أذكره .

ومدير مدرسة الهويدر إنسان فاضل بكل معنى الفضل ، على خلق راق ، خبر الدنيا وساح في كثير من بقاعها . كان في الأفغان ودرس فيها وله خبرة طويلة في التعليم وكان مثالا كريما للأخلاق وقد استفدنا من خبرته وتجاربه.كان شديد الإعجاب بتركية لأنه كان يذهب إليها دائما ، وكنا نبهر بأحاديثه نحن المعلمين الذين لم يروا إلا المناطق التي يعيشون فيها .. كان الرجل يملأ الفراغ عندما كنانعود بالعربة بعد يوم عمل ثقيل وعندما تهطل الأمطار في الشتاء وتكون الخيل المسكينة منهمكة من وطأة الحمل وشدة الأوحال . فقد كانت الأمطار تحيل بعقوبة إلى برك تغوص فيها الأقدام إلا من بعض الشوارع ..

لم أكمل الدراسة الثانوية لأني كنت أفضل العيش في معهد فيه القسم الداخلي حتى أعيش بعيدا عن منة الأقرباء . وتشاء الصدف ونحن في امتحان السنة الثالثة ليلا أن جاء أحد طلاب دار المعلمين وأخذ يصف لنا جمال الدار ومكانها في الأعظمية ومعاملة المدرسين والرفاهية التي يعيش فيها الطلاب . فاستهواني كثيرا ، ولعله أيقظ في نفسي الرغبة الكامنة في العمل

السريع لمساعدة أسرى المحتاجة .. وأطنب الطالب وأغرى عدداً كبيرا من أبناء المنطقة .

وكانت فرصة كبيرة أن قبلت فى دار المعلمين الإبتدائية لأنى من الطلاب المتقدمين ، وكان عدد الناجحين قليلا فى تلك السنة .

أمين المكتبة :

لما بدأت وزارة المعارف تحس بضرورة نشر التعليم خارج نطاق المدارس عن طريق المكتبات العامة كانت بعقوبة أحد المراكز التى اهتمت بها وطلبت مديرية المعارف منى القيام بإنشاء هذه المكتبة انتداباً من عمل معلما ..

إن الكتب من الهوايات التى أحبها ، بل هى الهواية التى استغرقت أكثر وقتى وفكرى فأسعدنى هذا العمل لأنه يتفق ورغبتى العميقة فى توسيع ساحة معرفتى الأدبية والفكرية ، فكنت أستغرق فى هذا ليل نهار أعد القوائم التى أراها ضرورية لتزويد المكتبة بالكتب ، وكنت أقرأ قوائم كتب المكتبات وأختار منها ما يكمل مكتبة عامة تحوى أهم العلوم والفنون التى يستفيد منها القراء .

كانت المكتبة حجرة واحدة فى بناية مهجورة كانت أصلاً المدرسة المتوسطة التى درست فيها بعد أن نقلت إلى الثانوية الجديدة قرب محطة القطار . وبدأت فى تصنيف الكتب ووضعها فى خزائن خشبية أعدت لهذه الكتب وجمعت من المدارس . ليس المهم نوع الخزانة إنما إعداد المكتبة للمطالعة والاستفادة . وطالبت بمنضدة كبيرة وعدد من الكراسى ليجلس عليها المطالعون فوافقت مديرية المعارف . وأجريت مناقصة لعمل هذه الكراسى والمنضدة وكان طلبى أن تكون من خشب الصاج الجيد لأنها ستكون كثيرة الاستعمال . وكانت خبرتى بالأخشاب جيدة بعد أن

اشتغلت مع نجار محترف ، وبفضل أعمالي اليدوية مع الأستاذ اسماعيل عبد الوهاب في النجارة التي كانت تابعة للمدرسة المتوسطة لقضاء بعض أوقاتنا في عمل مفيد ، مثل التخريم لعمل الرثيات والصواني وأدوات الزينة .

ولما جاءت الكراسي والمنضدة أصبت بخيبة أمل . فقد كان الخشب من الجام المصبوغ (بالسبرتو والدملوك) الذي لن يقاوم طويلا ، فظهر الغش والزيف الذي قام به المقاول ، ورفضت أن أوقع له بالتسليم ، فتركني وذهب إلى المخارف ووقع المسؤول ، ولعله كان متواطئا مع المقاول وقبض ثمن هذه السرقة .. وهل يمكن أن أتكلم ؟ !

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أحسست فيها بأن في القوانين ثغرات وأمورا لا أفهمها . فعندما ذهبت إلى إمام عسكر . قدمت للمعارف أجور النقل التي تدفع لكل موظف يعين أول مرة من مسقط رأسه إلى محل عمله . فأخذت وصلا من المكاري وصاحب السيارة وقلت إني دفعت للحصان نصف دينار وللسيارة ربع دينار إلى بلدروز كما دفعت لصاحب البغل مثل الأجرة التي دفعتها إلى الحصان ويكون المجموع ديناراً وربع دينار .

أرسلت الوصلين إلى بعقوبة . . وعندما ذهبت إليها وجدت المحاسب يرفض صرف المبلغ لأني خالفت الأنظمة المالية التي تقررها وزارة المالية . ومزق القائمة وكتب أصنافا عجيبة من حمالة إلى المحطة وإكرامية وحمالة في بلدروز وأنزل الدينار الذي صرفته للحصان والبغل وهكذا . ومع القائمة الطويلة وصلت القائمة إلى دينار ونصف دينار أو أكثر بقليل . . رفض صدقي وقبل الكذب الرسمي وزادت المصاريف . .

ما أعجب الأمور الرسمية . تصدق فتخسر .

وتكذب فتزداد مالا . . إنه أسلوب رسمي .

عينت لأدير المكتبة . وبدأت بحماسة ورغبة فى إعداد المكتبة للقارىء الذى لم يعرف المكتبة العامة فى بعقوبة . ولم أر فى أى بيت من بيوتها مكتبة . فالناس فى شغل شاغل برزقهم اليومى ، ونسبة الأمية كانت عالية جدا وعدم وجود مكتبات دليل على عدم الاهتمام بالعلم والأدب والشعر .

لم أجد فى الجيل الذى قبلى شاعرا أو مؤرخا أو إنسانا له شهرة اجتماعية أو فكرية أو سياسية . . وليس فى البلد من أصحاب العلم من يعتد به أو له سمعة فى بعقوبة . . صحيح كان هناك قاضٍ قلوم الاحتلال البريطانى ، ولكنه لم يكن من أهل البلد ، ثم إن الانكليز قتلوه وهو يقضى حاجته فى المراحض تسرعا أو سهوا . بدأت العمل بطبع أوراق الاستعارة على الآلة الكاتبة وأعددت دفتراً أسجل فيه الكتاب المستعار ليوقع المستعير عند تسلمه وأوقع فى الدفتر أمام توقيعه عندما يعيد الكتاب .

كانت المكتبة مجموعة من كتب إحدى المكتبات الخاصة التى اشترتها المعارف فى بغداد ومازال اسم صاحبها عليها مع إهداء المؤلفين .

وبرغم البدائية التى أدرت بها المكتبة والتصنيف الذى وضعته بنفسى فقد ضبطت أسماء الكتب والمؤلفين وقسمتها حسب المواضيع كالتاريخ والجغرافية والأدب والدين والعلوم المختلفة . وذهبت إلى بغداد ودرست القواعد التى تسير عليها المكتبة العامة .

ومن الطريف أن المتصرف (المحافظ) كان من القراء الذين يطالعون دائماً ، وكنت أعطيه الكتب التى يريدها ، وكان مدير المعارف يوقع بدلا عنه فى دفتر الإعارة معتقداً أن الناس على دين ملوكهم ، وعسى أى يحذو الموظفون حذوه .

ونقل المتصرف ومعه عدد من كتب المكتبة ، ولم يرد المدير أن يطالبه بها . ولما وجدنى فى حيرة أصدر أمراً إدارياً حسب صلاحيته بحذف هذه

الكتب من السجلات وعدها مفقودة .

وحان وقت ترفيعي إلى درجة أعلى . وكتبت للمعارف في الوزارة تطلب درجة لأعين عليها أميناً للمكتبة بدلاً من الانتداب الذى انتدبني فيه مدير المعارف . فما كان من الوزارة إلا الرفض وتعيين أحد الموظفين على ملاك المكتبة على أن يعمل في بغداد .. جاء وتسلم المكتبة وأغلقها وسافر إلى بغداد . وكان يحضر شهريا ليتسلم راتبه ويعود يمارس عمله في الوزارة . وبذلك قضت المصلحة الفردية على المصلحة العامة ومصلحة الفكر كله في بلدة بحاجة إلى القراءة الجادة .

رفعت إلى الدرجة التي أستحقها ، وأعدت إلى التعليم ، وما كنت أحب التعليم الابتدائي لأن المعلم كالشمعة التي تحترق بنفسها ولا يقدرها المجتمع ولا يقيم لها احتراما برغم أنه يعصر شبابه وروحه في خلق جيل جديد .

وكانت هالة عدم الاحترام التي تحيط بالمعلم بين الناس تجعل المعلمين يفرون من هذه المهنة الكريمة إلى أعمال أخرى فيفضل الواحد أن يكون كاتبا في أية دائرة لها صلات بمصالح الكبار فراراً من صفة (المعلم) .

ومن طريف ما سمعت أن أحد المعلمين الذين تخرجوا لبس ملابسه الجديدة البيضاء وذهب إلى البصرة من أبي الخصيب أو بالعكس وجلس إلى جانبه (سماك) أنهى عمله وعاد إلى أسرته وهو بملابس العمل وفيها بقايا السمك .. ومالت السيارة في أحد المنعطفات فوضع المعلم يده يحمي ملابسه من أن تلتصق بملابس السمّاك فصاح فيه قائلا :

هل أنا نجس ؟ ورفع يده لكي يضربه
وكان أحد المعلمين معه فصاح به : تأدب
قال له : لماذا أتأدب ؟

قال له : إنه معاون مدير الشرطة ..
فاعتذر إليه بأسف وقال له :
والله ظننتك معلما !!

إن هذا العمل يعطيك فكرة واضحة عن مقدار الاحترام الذى يكنه الشعب العراقى للمعلم .

إن حبى لعمل فى المكتبة كان شغل الشاغل ، ورأيت الثمرة التى أوشكت على الجنى تسحق، والشجرة التى بدأت تنبت تداس بالأقدام . آلمنى الأمر أشد الألم ولكن ماذا أصنع .

ذهبت لمقابلة مدير المعارف أرجو أن ينقلنى من التعليم إلى إحدى الوظائف الشاغرة فى إدارته .. فرفض بالطبع .. ويظهر أننى لم أقتنع لوجود وظائف خالية، فما كان منه إلا أن استدار فى كرسيه المتحرك وهو يقرأ جريدته وأولانى جانبه وتوجه إلى الحائط .

أية إهانة أكبر من هذه الإهانة التى صبها على رأسى ، فخرجت أجر رجل الأسى والألم ولم تكن الأرض تسعنى حزناً وحسرة وألما هز كل كيانى .

هذا الإنسان الذى أدار على وجهه هو نفسه الذى ركض من أول وزارة المعارف إلى آخرها لما سمع بأنى عدت ومعى الدكتوراة واحتضننى وقبلنى وتوسل بى أن أشرفه بشرب الشاى فى دائرته .. ولولا المجاملة والخلق الكريم لذكرته بما صنع معى ، وكان أحد أسباب هروبى من بعقوبة .

ورب ضارة نافعة

كان نقلى إلى التعليم أمرا مؤلما لى ، فقد وجدت المعلمين للأسف الشديد لا همّ لهم غير إضاعة الوقت فى سفاسف الأمور وترهاتها . ومن القلة النادرة منهم من يقرأ غير الكتب المدرسية التى تقررها الدولة . ومنهم

من حفظها وأخذ يرددها لكثرة ما درسها دون زيادة . والغريب أنهم يشاغبون ويأكل كل واحد منهم لحم أخيه وتحدث بينهم حزازات تافهة ولأمور لا تستحق التفكير فيها .

ومن القصص التي رواها لي أحد المسؤولين في التفتيش أنه سمع بأن المعلمين في إحدى القرى في لواء ديالى انقسموا على أنفسهم وجرت بينهم معارك وشتائم ، فذهب هو بنفسه إلى القرية ليفحص الأمر . وبعد التحقيق وجد الأمور تافهة وقضايا الخصام لا تستحق هذه الضجة.وكان عاقلاً ، فجمع المعلمين في حجرة واحدة وطلب من المدير أن يأتيه بجميع صناديق الطباشير التي في المدرسة .

فلما كان منه إلا أن وضعها وسط الحجرة وقال لهم:هيا أيها الإخوان تقاسموا الطباشير فإنه بضاعتكم . . وأردف قائلاً : أنتم أهل المعرفة وليس أغلى من الطباشير في نشر العلم . . والخصومة تكون على أموال ومنافع . أليس من العيب أن يختصم المعلمون وهم الذين يضحون بزهرة أعمارهم في خدمة وطنهم .

فأحس المعلمون بالهدف الذى أراده المفتش وتصالحوا . . وكان المدير كلما تخاصم المعلمون يذكرهم بالطباشير . .

عملت بالتعليم الابتدائي من ١٩٤١ - ١٩٤٦ ولو لم أنقل من المكتبة وأحس بإهانة مدير المعارف لكانت حياتي سارت على وتيرة واحدة ، ولربما بقيت في بعقوبة أعيش مع أحلام الكتاب والمؤلفين ، ولأخذتني الوظيفة التي كانت تتفق مع هوايتي ولانغمرت بها.فقد كان إنشاء مكتبة في بعقوبة عملا لذيذا ، وكان همي الأول نشر الوعي وبث رغبة القراءة في نفوس أبنائها ، وبخاصة أن الأمية كانت ضاربة أطنابها في البلدة ، وعدد القراء الجيدين محدودا ، وكنت أتمنى أن أكون جماعة تطالع باستمرار وتقرأ دائما وبعدها يبرز منهم شعراء وكتاب وأدباء ، إذ أن هذه البلدة لم يبرز في تاريخها

الحديث شاعر كبير أو ناقد معروف . وكان أكثر الموظفين يأتون من خارج بعقوبة حتى دخل عدد منهم دور المعلمين وأصبحوا معلمين وبعضهم أصبح ضباطا .

وصل راتبي إلى (١٢) دينارا رفع إلى (١٥) وعدت إلى المدرسة أعيش تحت كابوس مرهق . وزاد الطين بلة أن مدير المدرسة كان لا يفرق بين التاء المربوطة والهاء فهو يكتب القراءة (قراءت) والصناعة (صناعت) على طريقة الأتراك لأنه تعلم في العهد العثماني ولم يحاول الاستفادة من العلوم الجديدة . . وقد كان الرجل يعمل في التجارة ، فلما خسرت تجارته وكان أخوه مديرا عاما عينه مديرا للمدرسة .

وكنت أعاونه في كتابة الرسائل ودراسة الأنظمة وأرد على المكاتبات وهو يوقع عليها . وجرت بيننا أمور أدت إلى خلاف ، وأراد أن يظهر لي وللمعلمين أنه يفهم وأنه قادر على إدارة الأمور . . ولكن أصحابه في مديرية المعارف أرجعوا له بعض الرسائل وأفهموه بضرورة العناية بالمراسلات لأنها سوف تعرض على مسؤولين آخرين .

اتخذ أحد المعلمين مساعداً له يعينه على كتابة الرسائل والرد عليها . وجاءت رسالة من مدير المعارف يطلب فيها أموراً مستعجلة ، فلم يقدر المعلم الذي يساعده على الفهم . وأرسل إلى غيره إلى ثالث ولكن باءت الأمور بالإخفاق . فقال له أحد المعلمين : لا يحل هذه المشكلة غير يوسف .

فقال:اذهب وائتني به حتى يأتي . فلما جاء المعلم أفهمته بالرقة واللطف بأنه ليس مراسلا وإنما يجب أن يحفظ كرامته معلما ، فجلس ولم يذهب إليه . فأحسّ وهو التاجر القديم بالأمر .

فجاء إلي واعتذر عما فرط من سابق وقال :

سيد ، نحن فى مأزق، فهل ترضى أن ألام من المعارف .
قلت : هات الرسالة .
فقرأتها وقلت له: ماذا فهمت منها .
قال : كذا وكذا .
أدرتها على الحاضرين وكانوا فى حيرة .

قلت: إن كاتب الطابعة أسقط كلمة واحدة موجودة فى أعلا الرسالة تحت (الموضوع) فإذا وضعت هنا ستستقيم الرسالة . ويتم المعنى ..

فانبهر وكأنى فتحت فتحا كبيرا .

ومن الطريف

أن المدير طلب منه أن يكتب تقريرا سريا عن كل معلم ويرسله إلى المعارف . فدخل على وأنا أدرس قواعد اللغة العربية للصف السادس وجلس فى مؤخرة الصف وفتح دفتره .. انتهيت من شرح الموضوع .

قلت للطلاب بعد أن انتهيت من الموضوع: نريد أن نعرف بعض الأبيات الشعرية لنطبق هذه القواعد على الشعر العربي . وكتبت بيتا من الشعر الجاهلي .. وقلت للطلاب: لنتعاون على شرح البيت .

من منكم يقدر أن يشرحه ويحلل كلماته ؟

لم يقدر طالب واحد على فهمه ..

قلت نحمد الله أن المدير اليوم معنا وسوف يشرح لنا البيت ونستفيد منه .. ونظرت إليه فأخفى بصره وتعلل بالكتابة وأنه لا يسمع ما أقول .. وتأنيت قليلا لأرى على وجهه أثر هذا المقلب غير المتوقع . ثم قلت :سوف أشرح لكم أنا البيت لأنه مشغول . ثم شرحت البيت وبعدها . قلت : أصبح البيت مفهوما .. من يقدر من الطلاب أن يعربه ؟. ولم أتم قولى

حتى رأيته يغلق الدفتر ويقوم مسرعا نحو الباب . فقلت بابتسامة وعلىّ بوادر الأسف : لماذا تذهب ومازال في الوقت متسع ؟ لا تحرمنا من وجودك .. وصل إلى الباب وشكرنى وحاله يقول :

وحياة رأسك لا أعود لمثلها، وحياة رأسك .

ولم يعد المدير بعدها .

وكان المفتشون من اختصاصات أخرى ، وكنت أناكفهم وبخاصة أولئك الذين يكرهم المعلمون لتعاليهم . وكتب أحدهم عنى تقريرا سيئا لأنى كما قال أتعالى عليه .

كانت المرارة تقطر في حياتى معلما بالرغم من أننى حزت مكانة خاصة بما كنت أكتبه وأذيعه .

وكنت قارئا نهما لا أستقر على حال دون قراءة وكتابة .. وكانت فائدة مكتبة دار المعلمين كبيرة بالنسبة لى .

المكتبة الغنية بخير المطبوعات وفيها كتب مطبوعة في أور با وقرأت أكثر كتب المكتبة التى بدأت في تأسيسها في بعقوبة .

وكانت دار المعلمين المعهد الذى فتح آفاقى على المعرفة واتساع المجال في عالم الكتب . وكانت هى الوحيدة التى عنيت بها وزارة المعارف حتى أسست دار المعلمين العالية .. وقد درس فيها أعلام الأساتذة وأصحاب الفكر المرموقون الذين أصبحوا من كبار الأساتذة فى الجامعة .

كان رد الفعل عميقا في روحى إزاء مقابلة مدير المعارف الذى أدار لى ظهره . ما العمل ؟ دخلت على كاتب الذاتية واسمه أمين عبوش وهو رجل كريم الأخلاق . وجلست في حجرته والألم يحرق روحى من سوء معاملة مدير المعارف .

كان أمامه كتاب فيه اللوائح والأنظمة التى تنظم الحياة الإدارية للموظفين فى الدولة ، ووجدت إحدى المواد تقول ما معناه :

يجوز للموظف أن يأخذ إجازة دراسية بنصف راتب لمدة سنتين .

انتفضت وتغير حالى من الهم والكدر واليأس إلى الأمل والرضا . وكان السيد أمين يراقب حالتى فقال :

ماذا رأيت ؟

قرأت له ما قرأت .

قال إنها مادة ميتة وهى خاصة بالموظفين .

فقلت أليس المعلم موظفا أم أنه درجة ثانية ؟

أحس الرجل بما عنيت .

قلت له : لا يضرنا إن كتبنا (عريضة) لن نخسر غير الطابع والورقة والاتكال على الله . وكل ما أريده منك أن تقنع مدير المعارف بإرسال الطلب إلى بغداد .

وقد وفى الرجل بوعده وأرسل الطلب إلى بغداد . ولما سمع بعض المعلمين الطموحين بذلك كتبوا عرائضهم وأرسلت إلى بغداد أيضا .

إنه أمل ضعيف ولكن لم يبق أمامى غيره .

وذهبنا إلى بغداد لمقابلة مدير الذاتية أو مدير التعليم الابتدائى،لا أدرى، فرفض الطلب،وعدنا خاسرين متألين .

وتشاء الصدف أن تسقط الوزارة،وما أكثر ما تسقط الوزارات فى العراق ، وجاء وزير للمعارف له صلة رحم فى بعقوبة وكنّا فى العطلة الصيفية .

فذهبنا إلى وزارة المعارف وكتبنا عريضة ووقعناها . والحق أننى كتبت

العريضة وكان الزميل الدكتور أحمد نجم الدين يرددها لقصرها ويضحك . ودخلنا على السكرتير . . وأفهمناه قصدنا وصلة الوزير ببعقوبة ، فلم يسمح لنا أن ندخل عليه ، وأجلسنا ، وأخذ العريضة بيده ودخل بها عليه . فما أسرع ما خرج واتصل بالمسؤول الذى طردنا وقال له بالحرف الواحد :

(إن معالى الوزير يعطف على طلب هؤلاء المعلمين).وأرسل العريضة مع الفراش لزيادة التأكيد على هذا العطف الوزيرى .

فرحب بنا ترحيبا حارا وأجلسنا وأصدر الأمر الوزارى بمنح الجميع إجازة دراسية إلى مصر .

سبحان الله!الرجل نفسه والمكان نفسه،فما أسرع ما يتغير هؤلاء ؟

والواقع أن معالى الوزير لم يكن يأبه لصلة الرحم فى بعقوبة إنما كان رجلا بعيد الفكر أراد أن يكسب الرأى العام ففتح كلية الحقوق على مصاريعها،وقبل عدداً كبيرا من الطلاب،وتوالت آيات الثناء عليه،وكلمات المدح على أعماله .

وهكذا العراقى ابن ساعته،يمتدح فى ساعة،ويشتم فى ساعة أخرى ، تهزه أعمال الخير وتؤثر فى مشاعره الرقيقة،ويثيره عمل الشر ، فيؤجج السخط فى قلبه . وصدق المثل (شيّم المعيدى وخذ عباته) .

هو مثل نهر دجلة صفاء ومثله ثورة ، ومثل المناخ حار حتى يكوى وبارد حتى يتجمد . فعسى أن يدرس هذا الشعب دراسة نفسية واجتماعية . فإن آرائى ، برغم محاولاتى الصادقة ، قد تصيب وقد لاتتفق مع واقع العراق الاجتماعى والحضارى .

كمارك الشام

وصلت إلى الإسكندرية بعد سفرة طويلة توخيتها أن تكون رخيصة، وكانت بسيارات تقطعها بيوم من بغداد إلى الرطبة فإلى أبي الشامات فدمشق . ودمشق مدينة حلوة جميلة طيبة المناخ ومياه (الفيجة) باردة عذبة يحس الإنسان بحلاوتها وطيب مذاقها . وأهلها تجار بكل معنى التجارة، وهم أشد الناس حرصا على المال.وأسوأ ماقى سورية رجال الكمارك خشونة وغلظة وطمعا ورشوة.فالداخل إليها يلاقى صنوفا متنوعة من الأذى فى المقابلة والمعاملة والخشونة.ومع حبى لدمشق وإيثارى لها على بيروت فإن رجال الكمارك يقفون حجر عثرة فى سبيل العودة إليها . . فإن فيها أصدقاء كراما من خيرة الأدباء والشعراء حجزتنى عن زيارتهم أعمال رجال الكمرك والمكوس فى ثغور الشام عندما أريد زيارتها .

ولما كنت أذهب إلى أوربا بسيارتى ، كان يطيب لى زيارة الأدباء والشعراء وأصحاب الفضل منهم.وأنا ذاهب إلى أوربا وعائد منها أجعل طريقى على دمشق،ولكنهم فى الآونة الأخيرة ساءت ضمائرهم ومدوا أيديهم إلى الرشى . ففى إحدى سفراتى وأنا قادم من تركية . . صرخت بدون وعى بوجههم.فقد أرادوا إنزال حقائبى وإدخالها المبنى لفحصها.وقلت لهم. أنا مسافر عابر ولن أنام حتى فى سفرى . . ولما ضاقت بى الحيل ركبت سيارتى وقلت لهم أنا عائد إلى بلاد الترك وإنكم لاتحترمون شعار (وحدة حرية اشتراكية) وسوف أكتب من تركية إلى المسؤولين فى دمشق عن سوء معاملتكم وإنكم لا تقيمون وزناً لشعار دولتكم .

وقد أحس رئيسهم بصدق قولى . . وحاول تبرير أعمال مساعديه . ومن ذلك اليوم وأنا أذهب إلى أوربا عن طريق الموصل فالجزيرة وأدخل تركية إلى أوربا دون المرور بدمشق .

بقيت فى الشام قليلا ثم أخذت (الباص) إلى حيفا ومنها أخذت القطار إلى مصر مارا برفح .. كان القطار يسير خائفا مرتقبا فقد كانت فلسطين أتونا يلتهب ..

كرم فلسطينى :

ومن الطريف أننى أخرجت فلوسى المحدودة ومعها جواز السفر من جيبى فى القطار ونسيت كيس النقود إلى جانبى فجاء رجل فلسطينى وقال : انتبه على فلوسك .. وكانت كل ما أملك فى سفرتى حتى أصل إلى مصر .. وقدمت له بعض التمر العراقى شاكرا لطفه ، فلما وصل إلى محطته عاد ومعه كمية من البرتقال اللطيف وهو يعتذر لى ويشكرنى على التمر .

إن فلسطين هى الجرح الغائر فى نفوس كل عربى . وكنت وأنا أمر ببساتين البرتقال الزاهية الزاهرة وأرى بياراتها التى تسير على أسلوب علمى منظم أحس بالرضا لأنى لأول مرة أرى طريقة السقى بالرش الذاتى .. تجولت فى حيفا الجميلة وقالى لى أحد الإخوان«هناك (تل أبيب)»،وكأن خنجرا أدخله فى قلبى كما دخلت هذه المدينة وطننا وجسّمت كل معانى القهر والذل والهوان .

سافرت،ولكن بقى قلبى فى فلسطين يناجيها بجراح الكلام وآلام الشعر . وفى الحدود المصرية فى القنطرة نواجه كهارك مصر ورجالها كانوا كثيرى الفحص والتحرى عن كل شىء،يضايقون الناس مضايقة مؤلمة .

كان معى فى السفرة من بعقوبة الزميل محمود حسين وكان ذاهبا إلى القاهرة ولكنه تخلف . واحترت بحقائبه وقد وصلت معى إلى الشام .. فماذا أصنع بها ؟ وشكلت على عبئا ثقيلا مع حقائبى . أنا أعرف أنه لابد أن يأتى إلى القاهرة ، فتركت رسالة مع أصحاب السيارات أخبرهم بأنى أخذتها معى .. والطريف أن الزميل كان قد جلب عدداً من الهدايا من التمر لم أنتبه لأخذها لأنى ماصدقت أن يأتى بصفيحة كاملة ، فكيف وقد

جلب أشياء لاتخطر على بالي . لم آخذها معي واستولى عليها من استولى . . في الشام . وأنكروها عليه .

في الإسكندرية

أخذت قطار الإسكندرية مع هذا العدد الكبير من الحقائب . . وكان الزميل جاسم عبد الحسين قد سبق إلى الإسكندرية،فكان خير معين على تسهيل الصعاب،وخير زميل ودليل سهل لي الأمور وعرفني بالإسكندرية .

كان يسكن مع سيدة يونانية . . فسكنت معه فترة من الزمن في كامب سيزار وكان البيت على البحر . . ولاتسل عن ثورة البحر وهدير الأمواج وضرب الرياح في الشبابيك . لم نألف مثل هذه الهرجة في الطبيعة في العراق .

وانتقلت إلى بيت الطلبة ، وهو مكان يوفر الطعام والخدمة.ولكن صخب الطلاب ولا أبالية المراهقين وصياحهم وركضهم وعربدتهم آذتني مرة أخرى .

فسألت الزملاء عن الحل . فأخبرت بأن هناك أسراً أجنبية تأخذ الطلاب معها وتؤجر لهم حجرة وتخدمهم . . فانتقلت للعيش مع أسرة يونانية،وكان معي طالب مصري يسكن في حجرة أخرى يدرس في أحد المعاهد المتوسطة . . لذلك كانت عناية الأسرة واحترامها منصبَّيْن على لأني طالب في الجامعة .

ذهبت إلى الإسكندرية وكانت الدراسة تركض ، فقد وصلتها في شهر شباط ١٩٤٦ ولم تبق أمامي غير عدة شهور للامتحان ، فإن الامتحان يكون في مايو . . وجدت المواد قد تراكمت والكتب والمراجع كثرت ووجدت تضاربا في دروسي . . وطنت النفس على العمل ، فما كنت أخرج من الحجرة أو المكتبة حتى أستطيع تحصيل ما حصّله الطلاب . . ويتمثل أمامي شبح الرسوب ولوم اللائمين . . ومن حسن الصدف أن الطلاب أضربوا

وعطلت الدراسة فكان ذلك عاملا على راحتى النفسية، وأخذت المحاضرات من الزملاء إلى الدار وبدأت أنقلها وأقرأها، ولم يعد الطلاب من إضرابهم إلا وكنت قد نقلت كل المحاضرات .

اخترت علم الاجتماع والفلسفة فرعا أدرس فيه . وكانت المشكلة أننا لم ندرس شيئا إسمه الفلسفة ، ولانعرف أصولها وقواعدها والمصطلحات الفلسفية . فعدت إلى كتب الثانوية أستعين بها .

تعارض درس الفلسفة اليونانية مع اللغة التركية فماذا أصنع ؟ اخترت أن أحضر أكثر دروس التركية وبعض دروس الفلسفة اليونانية .

وقد قيض لى أن أنجح فيها إلا الفلسفة اليونانية برغم جهودى وقراءتى ، ولا مفرّ من الدور الثانى . .

ومن الطريف أن أحد الزملاء المصريين كان قد تخلف مثلى فى الفلسفة اليونانية، وقبل أن ندخل الامتحان بدأنا نستذكر المعلومات ونناقش الآراء شأن كل الطلاب لامتحان القابلية والمباهاة والشعور بالتفوق .

سألنى هذا الزميل . . عن النفس الإنسانية وأفلاطون . فحدثته بكلامى وعباراتى عن الموضوع . . فنظر إلى وقال : بس . .

قلت : أجل .

قال : إسمع .

وإذا به يعيد ماكتبه أستاذ الفلسفة يوسف كرم بالنص دون أن ينسى حرفاً واحدا .

بهرنى وآذانى وأضعف قدرتى على دخول الامتحان، ولولا أننى أدخل الدور الثانى لتركت الامتحان . . أحسست بالهبوط النفسى وضياع الهمة والخور تتجول فى روحى . . وأنا أخطو خطواتى إلى قاعة الامتحان . .

والغريب أن الامتحان كان من سؤالين أحدهما عن النفس الانسانية ولم يكن أمامي غير الثبات . . فأجبت عن السؤال الأول وأخذت الطمانينة تسرى فى عروقى والهدوء ينساب إلى مفاصيل وروحى لأنى أجبت عن السؤال الأول بما أرضانى . . وبدأت أكتب فى السؤال الثانى، فانسابت المعلومات رخاء،وأحسست بأنى سيطرت على الامتحان.وبينما أنا على وشك الخروج سمعت صاحبى ينادى من خلفى:

طرفة الحفظ

أستاذ يوسف . . ما أول النفس الإنسانية . . أرجوك ذكرنى بأولها . ؟ !

قلت له بهمس لا أعرف . . ويشهد الله لا أعرف أولها ولا أول فقرة من الكتاب .

فرسب صاحبنا لأنه لم يكتب حرفا واحدا . . وأصبح هذا الراسب من أصحاب الكلمة فى مدينة الإسكندرية لأنه أخو المسؤول الأول .

وقد لاحظت أن أكثرية الطلاب يحفظون المحاضرات برمتها حرفاً حرفاً ، ويردون ماي‍ميليه عليهم الأساتذة سطرا سطرا ، وهم قابلية كبيرة على الحفظ . وظهرت لى هذه الظاهرة بوضوح فى أول حفل تعارف بين الطلاب الجدد والقدامى . .

فقد طلبوا من الطلاب أن يحضروا قصائدهم وكلماتهم لإلقائها فى هذا الحفل ، وهو مناسبة جميلة تظهر فيها قابليات الطلاب الأدبية والخطابية ، ويحضر هذه الحفلة الأساتذة والعميد .

حضرت قصيدة أحيّى فيها مصر وأهل مصر وأذكر سفرى من بغداد وعبور الصحراء . وجدت الطلاب كلهم يرتجلون الكلمات والقصائد وأنا الوحيد الذى يحمل الورقة . . أحسست بالنقص والأسى من أولئك الذين يلقون الخطب ، وعللت تلاوة الشعر بالحفظ . . ولم تعد الموازنة النفسية إلى

كيانى إلا بعد أن ألقى أحد الطلاب كلمة ارتجالية يرحب فيها بالطلاب فصاح أحد الطلاب : أعد .

لم نألف فى العراق كلمة أعد إلا فى الشعر . . فاستغربت من (أعد) . فإذاالطالب يعيد ما قاله كلمة كلمة وحرفا حرفاً . . عندها تأكد لى أن الطلاب لايحفظون المحاضرات فقط وإنما يحفظون خطبهم . .

كانت سعادتى كبيرة ، فإن الصحافة لم تذكر من القصائد غير قصيدتى ومن الكلمات كلمة لإحدى الطالبات . . سرت أولى نسمات الرضا،وبدأت أول بادرة خير تسرى فى روحى .

كلية الآداب

كانت الكلية بناية من بنايات الأسرة المالكة (طوسون) وكانت المكتبة فى قصره الفاخر المزدان بالتماثيل الرائعة والزخرفة الجميلة . فقد خشى المسؤولون على القصر من الطلاب فأعدوه مكتبة عامة .

أما الكلية ومعها كلية التجارة فكانت فى اسطبل القصر . فقد كان كبيرا جدا وأضيف إليه بعض البنايات الضرورية كالمطعم والمقصف واتخذت الكلية من غرف الاسطبل قاعات للدراسة،وكانت على ترعة المحمودية . .

كنت سكنت فى كامب سيزار . . وكان على أن أصرف أكثر من ساعتين للوصول إلى الكلية . آخذ الترام إلى محطة الرمل ثم آخذ السيارة إلى محرم بك ثم أمشى مرة أخرى . . ومن حسن الحظ لم تكن الدروس فى ساعات مبكرة باستثناء اللغة الفارسية التى استبدلتها ودرست التركية لأن وقتها متأخر . .

ثم نقلت الكلية فى السنة الثانية إلى بناية أخرى فى الشاطبى كانت لمستشفى إيطالى استولت عليه الدولة بعد أن خسرت إيطالية الحرب .

وكانت بناية جميلة نظيفة أنيقة .. إنها نقلة جميلة من الاسطبل إلى المستشفى .

إذا كانت المكتبة التى بدأت فى تكوينها فى بعقوبة ودار المعلمين قد فتحتا قابليتى على الدراسة وحب المطالعة ، وغذّتنى كل منهما بجانب فكرى وأدبى واستفدت من المعلومات العامة عن الكتاب والشعراء والمؤلفين ، فإن جامعة الإسكندرية بأساتذتها رحم الله من مات منهم وأذكر الأساتذة محمد خلف الله أحمد ومحمد طه الحاجرى ومحمد حسين وحسن عون قد ملأوا نفسى بالثقة وأحيوا فى روحى الاعتزاز بالعلم والفهم بما درسوه من علم جديد وفكر نقدى متميز وخلق روح الدراسة والمناقشة فى نفوسنا . فقد كنت أحس بحلاوة المحاضرات ومتعة الدراسة ولذة التتبع والكتابة ، فقد كانوا عونا كبيرا فى إثبات ذاتى الأدبية وقدرتى الشعرية .

وأحمد الله أننى لم انقطع عنهم روحيا ، فقد كنت وثيق العلاقة بكل منهم ، وأهديت كتبى لهم اعتزازا بفضلهم واعترافاً بفضلهم على .

كانت كلية الآداب تجرى احتفالات سنوية ترحب بالجدد وتودع القدامى . وكانت فرصة جميلة لإظهار براعة الطلاب فى هذين الحفلين إضافة إلى احتفالات الأقسام فى ندوات علمية .. ومسرحيات وتمثيليات وفى أغانٍ يرتلها الطلاب أو الطالبات لإبراز مواهبهم أو مواهبهن .

كان أكثر شعر الطلاب من الغزل يمثل عرام الشباب ونداء الطبيعة .

أول قصيد فى الجامعة

وفى الحفلات السنوية كانت القصائد تعرض على رئيس القسم لاختيار الجيد منها بعد أن تجمع عنده . ومنها يختار قصيدة لتلقى تمثل القسم فى حفل الكلية السنوى .

كنا حشداً من الطلاب ، وكل واحد منا جلب قصيدة وتمنّى أن يكون هو الفائز بإلقائها .. وكنت أحس بأنى غريب بين الطلاب لاختلاف فى

اللهجة والصحبة والمكان .. فقدمت قصيدتى وجلست بعيداً ، فكان رئيس القسم ينادى على أصحاب القصائد لتلاوة جزء منها ..

جاء دورى وكان امتحانا صعبا على،إنها أول مرة فى حياتى أدخل فى منافسة أدبية . وكان عدد من الطلاب يجلسون فى حجرة رئيس القسم الكبيرة ، فدخلت والحياء يغلبنى والخجل يسيطر على . ولم تطاوعنى نفسى بادىء بدء فى الإلقاء . وأحس الأستاذ محمد خلف الله بما يعتمل فى نفسى وبدأ يداعبنى . ولما أطمأنت نفسى وهدأت قرأت أبياتا من قصيدة (النيل) أولها :

لا تسألنّى عن جمال السكون	وعن ربيع الأمل الحالم
قد أنعشتنى فى ظلال الفتون	نفحة طيب من شذا هائم
قد صافح العطر رقيق الغصون	فاحتفلت بالموسم الباسم

رأيت وجه الأستاذ يتهلل وينصت بكل مشاعره وقلبه ويبتسم ابتسامة حلوة عذبة وكأنه اكتشف شيئاً جديدا .. ولم يتمالك نفسه فقال : أحسنت عندما أكملت المقطع الأول .. وقال : كفى ..

رجّحت أن تكون مجاملة أستاذ لتلميذه .. فقد كان يسمع مقطعا واحداً من كل قصيدة ..

والتفت إلى الطلاب وقال : انتهى الاختيار .. تفضلوا بالخروج واتركوا قصائدكم عندى ..

ولما خرج الطلاب وكنت معهم نادانى وقال : انتظر ولا تذهب . اجلس . ولما جلست قال : إنك الذى سوف تلقى قصيدتك فى الحفل ..

كانت الفرحة كبيرة .. لم أكن أصدقها . فقد كان الخوف فى قرارة

قلبى لأنى لم أكن مصريا وحسبت أن يكون الشاعر من الطلاب المصريين وحدهم .

كنت دائم الحركة والنشاط .فقد فتحت الكلية قابليتى الأدبية والفكرية . ولما نظمت الكلية موسمها الثقافى كنت الطالب الوحيد الذى ألقى محاضرة عن الأدب العربى فى العراق مع أساتذة الكلية وقادة الرأى والأدب .

وشاركت فى مواسم الشعر المتنوعة ، وكان الشعراء والكتاب كرام النفس . فكنت أدعى إلى اللقاءات الأدبية والفكرية . . و لعلى أول طالب يلقى محاضرة عامة فى نادى الكتاب ، وكانت فرحتى كبيرة عندما ذكرت خبر المحاضرة جريدة الأهرام . .

ازدادت ثقتى بنفسى ، وزادت حركتى ونشاطى فى الكلية لأنها لم تكن تقف أمام قابليتى الأدبية ، ولم تكن تفرق بين الطلاب سواء أكانوا من مصر أم من غيرها .

أردت أن أنشر شيئا من شعرى فى الجرائد وكان فى القسم الشاعر كمال نشأت وهو من خيرة الشعراء رقة فى الشعر والخلق . وكان الشاعر يؤثرنى بقصائده ويسمعنى أياها فأحس بالمعاناة التى يعانيها الشاعر ولاسيما وقد كنت أعرف الزميلات اللواتى ينظم فيهن الشاعر شعره . وصرحت له برغبتى فى نشر شعرى فقال :

فى (الزمان) صفحة أدبية يحررها ويشرف عليها الشاعر الكبير محمد الأسمر ، فارسل له قصيدة من شعرك فقد يختار منها بيتين أو أربعة أبيات لأن مايصله كثير . وأراد بذلك أن يدخل الاطمئنان إلى نفسى . .
أرسلت أول قصيدة كنت ألقيتها فى الكلية بعنوان (شهر) منها :

شهر وما أحلاه من شهر ... كأنه البسمة فى الثغر
قد مر بين الحب والطهر ... مثل الشذى الفواح فى الزهر
أواه هل تنفع أواه ؟ ... لخافق تغنيه بلواه
من نفثات الوجد أشلاه ... ضلله العقل وأضناه
وكانت الجنة مأواه ... ومن رفيف الحسن نجواه
أجاب لما العقل ناداه ... كم عقله فى الوجد أشقاه

وقلت للشاعر كمال إن نشر مقطع واحد فسوف أكون سعيداً لأن صفحة الأدب كانت مقروءة من أساتذة الكلية والشعراء والكتاب .

كنت أترقب الجريدة بفارغ الصبر ، وكانت الخيبة تؤلمنى . وما كنت أدرى بأن الصفحة أسبوعية . ولما يئست من عدم نشرها لم أعد أرقب صدورها . .

وفى الصباح قابلنى أحد الأساتذة وعلى وجهه علامة الرضا والبسمة فقال لى : مبروك يايوسف .

قرأ علامة الدهشة على وجهى .

فقال : ألم تقرأ الجريدة .

أية جريدة ؟

جريدة الزمان ففيها قصيدتك الطويلة ، وأكد على كلمة الطويلة .

أكتسحتنى موجة عارمة من السعادة ماشعرت بها من قبل . فقد نشرت فى جرائد العراق عددا كبيرا من قصائدى لكن لم أشعر بمثل هذا الشعور الممتع الجميل .

لعل أسلوب الأستاذ اللطيف وعلامة الإعجاب التى أظهرها لى هى التى نشرت المتعة والسعادة فى روحى .

هاتان شهادتان :الأولى من رئيس القسم والثانية من الشاعر محمد

الأسمر . هرولت مسرعا لأقرأ القصيدة ، فوجدتها منشورة برمتها ولم ينشر غيرها في الصفحة . كانت هذه القصيدة سببا في ظهور اسمي . فقد أخذ بعض الطلاب والطالبات يحفظونها ويحفظون ما أنشر . وليس هناك سعادة تعدلها سعادة وشهادة على جودة الشعر من حفظه من أناس لاتعرفهم .

ومن الطريف أن كلية الآداب بجامعة القاهرة زارت كليتنا واجتمع الطلاب فى حفله شاى يرحبون بزملائهم وبدأت الكلمات بكلمة أستاذنا الدكتور محمد حسين (رحمه الله) وبعد أن انتهى من كلمته فوجئت بقوله :

سيرحب الطالب يوسف عز الدين باسم الطلاب بإخوانه طلاب كليه الآداب بجامعة القاهرة . إنها مفاجأة لم أعتد على مثلها من قبل ، وفى اجتماعات عامة .. لم أكن قادرا على الارتجال كإخواني المصريين الذين يملكون مقدرة كبيرة فى الحديث ، وقليا يجاريهم العرب فى هذا الدور .

كانت المنصة بعيدة عني فقد كنت أجلس فى أواخر الصفوف . وبينما كنت أخطو بهدوء وحيرة تذكرت قصيدة (شهر) التى نشرت فى الزمان .

ولما وصلت أمام مكبر الصوت وصعدت على المنصة قلت ما معناه :

بعد مقولة أستاذى لايمكن أن أقول شيئا،فقد قطع لسان كل خطيب بعده بحسن عبارته وجميل ترحيبه ... والتفت إلى الحاضرين وقلت ما رأيكم فى أن ألقى عليكم قصيدة ؟

فصاح الحاضرون : نعم نعم ، وتعالى التصفيق .

وتلوت البيت الأول وما انتهيت من صدره حتى سمعت الطلاب يكملون البيت .. الحق كنت بين أمرين جميلين : هذا الهتاف الحار وإكمال القصيدة . فأنا أقول الصدر وهناك من يروى العجز .

بين الفرحة والخجل والخوف والرهبة والمتعة والسعادة قلت لهم :

هنا من لم يقرأ القصيدة أو يسمع بها .. هل يسمع الحفاظ الأكارم

بأن أسمع من لم يسمع أو يأتى أحدكم ليقرأها عوضاً عنى . . فصرخ أحد الحاضرين :

من فمك أحلى .

أقولها للحقيقة والتاريخ إن جامعة الإسكندرية لم تكن تفرق بين الطلاب . الطالب يأخذ مكانته ، وما أحسست بالتفرقة طوال حياتى الجامعية . فقد كان الأستاذ عبد الحميد العبادى (ر) يرسل فى طلبى وينتدبنى لأمثل الكلية فى المناسبات التى تحتاج إلى طلاب عن الكلية . قلت له مرة : أما ترى إرسال طالب مصرى يمثل الكلية أحسن منى ؟ قال برقة ولطف :

أنت الآن طالب فى كلية الآداب ، وأنت خير طلابنا ، ونحن نختار الجيد ليمثل الكلية . . ولايهمنا من أى مكان جاء مادام طالبا جيدا .

فتحت مصر عينى على أشياء كثيرة كنت أجهلها . فالمجتمع مفتوح رحب الصدر بعيد عن القبلية والإقليمية والبلدانية . . فقد سبقت العالم العربى حضاريا وفيها عاش مختلف الأمم والشعوب . وفى الإسكندرية خليط من شعوب العالم كله . وقد اختلطت هذه الشعوب فى حياة مصر وكونت حضارتها وأدارت تجارتها وصناعتها وعلومها وفنونها .

كنت مبهورا بحياة الإسكندرية وحريتها الواسعة واختلاط الطلاب بالطالبات ومناقشة الطلاب والطالبات فى السفرات التى تشمل الجميع . فالطالبة تجلس مع الطلاب وقلما وجدت من أساء إلى هذه الحرية أو خدش الحياء . وكانت تتم زيجات بين الطلاب والطالبات . والبنت أكثر صلة بالطالب وأكثر ودا واتصالا وتتخذ من السؤال والمناقشة سبيلا للتعارف ومن استعارة المحاضرات سببا للود والألفة والصداقة . ـ وكان الطالب يعمل العمل نفسه عندما تعجبه الطالبة .

والمرأة أقوى من الرجل فى مصر شخصية وسلطة ، ولعلها عادة قديمة جاءت من الفراعنة واليهود . فالمرأة كانت تحكم وصارت ملكة فى مصر . ثم إن اليهود يأخذون المهور من النساء (دوطة) وكذلك النصارى ، فانتشرت هذه العادة بين المسلمين لأن بنت اليهود والنصارى والأجانب عامة تتزوج بسرعة .

ويتزوج المصرى السيدة التى تزيد مالا وجاها ومكانة وعلما وشهادة ، ويفخر بهذا الأمر ، ويراه شيئا طبيعيا ، ولا ترى المرأة فى ذلك ضيرا . ولكن هذا يجر إلى فقدان الرجل لسيطرته على المرأة . فهل هى الحضارة ؟ أم الحياة العامة ؟ أم التقاليد فى المدن الكبيرة فقط ؟ .

والعراقى قلما يتزوج من هى أكثر منه مالا وجاها وسطوة لأنه يحس بأن رجولته تنقص وشخصيته تضيع . . وكان من نتائج ذلك قلة الطلاق فى العراق لأنه يعد مُسِّبه للمرأة بينما أجد الطلاق أكثر فى مصر . . ولعل الأمر الآن اختلف فى البلدين لتغير الحياة الاجتماعية ووجود الضمان الاقتصادى عند المرأة فى العراق .

جمعية الشبيبة العربية :

الإحساس العربى مفقود عند أهل مصر لأنهم نشأوا نشأة إنسانية واسعة بل أممية . . فالنظرة رحبة واسعة ، يشاركون شعوب الأرض حياتهم وقل اختلاطهم بالشعوب العربية المجاورة . فهم لايعرفون الأقطار العربية .

وقد كنا نحن جميع العرب نسمى بالشرقيين سواء أكنا عربا أم أتراكا . فإذا أشاروا إلينا قالوا : إخواننا الشرقيون . جاءوا أو ذهبوا . وإذا أرادوا التحديد قالوا : إخواننا من بر الشام .

ماكان المصرى يعرف إخوانه أو يفرق بين العراقى والإيرانى والتركى . نشأنا نحن على حب مصر ، وكنا نعرف كتابها وقادتها وأحزابها ومجلاتها وجرائدها .

وأهل العراق فيهم الوفدى والسعدى الذى يدافع عن حزبه حتى قال فيه محمد باقر الشبيبى :

وأما هوى قلبى فللنيل والوفد

وقلما تجد كاتبا أو شاعرا فى العراق لايذكر مصر وجرائدها ومجلاتها . كانت الرسالة والرواية والهلال والمقتطف والثقافة وغيرها من الصحف والمجلات تصل تباعا فنعجب بطه حسين والعقاد وزكى مبارك كإعجابنا بشعراء العراق والوطن العربى وكتابهم .

كانت فرق التمثيل تصل إلى العالم العربى ومثلت أكثر من فرقة فى بعقوبة على مسارح بدائية . وصلها يوسف وهبى و(شرفنطح) ووصل الكتاب الكبار إلى بغداد والفرق المصرية الكبيرة مثل أم كلثوم التى احتفى بها الشعراء والكتاب كالرصافى والزهاوى. ومع هذه المعلومات الكثيرة التى حملتها معى من العراق وجدت من يقول إننا شرقيون أو من بر الشام . ولعل قاصمة الظهر الحادثة التالية .

كنت أذهب وأنا فى السنة الأولى إلى المطعم لتناول الغداء ، وكنت مفتونا بحزب الوفد لأنه حزب شعبى ، فأقرأ جريدة المصرى لسان حاله كل صباح . فسمعت أحد الزملاء يصرخ ورائى أستاذ يوسف ، أستاذ يوسف . فالتفتت فوجدت بيده جريدة المصرى وهو يقول بصوت مرتفع :

- ثورة فى بلدكم .

وهو يشير إلى مقال فى جريدة المصرى .

وقفت حتى وصل إلى ومازالت الجريدة مفتوحة ويده على المقال :

ماذا رأيت ؟ كانت مفاجأة غريبة هزت أعصابى وآلمتنى فقد كان العنوان ثورة فى أذربيجان .

تصوروا طالبا فى كلية الآداب لايعرف العراق ، ولا يعرف شيئا اسمه الوطن العربى .

هدت الحسرة روحى وزادت الألم عندى لأن الطلاب لايعرفون العراق ولايفرقون بين الشرق والغرب .. إنهم منغلقون على أنفسهم . فمصر هى الدنيا ، وهى مركز الحضارة ، وهى رائدة الفضل لأنهم لم يتعلموا غيرها فى مدارسهم . وكانت السلطات تكره أن تتسع آفاق الطالب المصرى إلى خارج حدوده التى رسموها له .

هذا الإحساس الذى ضايقنى كثيرا شكوت منه إلى أستاذى محمد خلف الله رئيس القسم ومن ثم عميد الكلية .. وكان عربى النجار كريم الأصل يعتز بعروبته وأصله وما كنت أعرف هذا الإحساس الذى يملكه أستاذى ..

قال : ماتقترح ؟

قلت : تشكل جمعية أو رابطة هدفها الأول نشر الوعى العربى بين الطلاب .

قال إنها فكرة جميلة وأنا موافق عليها . اعمل ذلك على بركة الله ..

كان الدكتور محمد حسن الزيات قد عاد من جامعته وعين مدرسا فى الكلية .. كان الزيات نشطا فحدثته بالأمر كما حدثت أستاذى الذى طلب أن يكون المشرف عليها من أعضاء هيئه التدريس ، فراقت الفكرة له وكانت له تجارب بمثل هذه الجمعيات فى جامعته ، وأخذ يحدثنى عنها وعن نشأتها ..

ووضعت لها نظاما وعرضته على أستاذى والمشرف فوافقا على أن أبدأ العمل .. وبدأت أتصل بالعرب بالدرجة الأولى فى الكلية والعراقيين بالدرجة الثانية فوجدت ترحيبا وتشجيعا كبيرا كما اتصلت بالأساتذة .. ولما

اكتملت الفكرة دعوت إلى انتخاب هيئة إدارية بعد أن وضعت مشاركة رمزية لطبع منشورات الجمعية وبطاقات الدعوة ونظامها الداخلى . . ووجدت من اللياقة أن يكون أحد الطلاب الذين سبقونا فى الدراسة رئيسها وأكون أنا الأمين للجمعية لأحافظ على نظامها ونشاطها ، ويالتنى ماصنعت .

نظمت عدة سفرات خارج الإسكندرية وإلى مصايفها وأهم معالمها ، وكان العرب والمصريون يعقدون أواصر الود فى هذه السفرات . ففيهم المصرى والسودانى والسورى . وكنت أدعو من الكليات الأخرى من يريد المشاركة فى النشاط من العرب ، وأسعدنى بأن جميع طلاب العراق انضموا إليها .

وعقدنا الاجتماع الأول ونفذت خطتى باختيار أقدمنا فى الكلية حسب ماخططت له ، وكان الرجل محبا للظهور لايصدق فى أموره حتى تخرج.وقد توفى إلى رحمه الله .

وشرفت بالرياسة . . وفكرت فى إصدار مجلة على نطاق الجامعة . واخترت أعضاء هيئة التحرير من جميع الأقطار العربية ومن مختلف الكليات ، وأردت إصدار العدد الأول . واتصلت بقناصل الدول العربية فى الإسكندرية:السورى والعراقى ورجوتهم أن يتحدث كل واحد منهم عن قطره . ونجحت الفكرة وأصبحت كليه الآداب بؤرة تجمع وطلبت من أحد الطلاب،وكان سودانيا،أن يرسم لى خارطة الوطن العربى من المحيط إلى الخليج وجعلتها شعارا للجمعية .

كانت مفاجأة لم تكن فى الحسبان ، فقد ظهر الوطن العربى على نظام الجمعية الداخلى ، وما كان أحد يفكر فى هذا من قبل .

بدأت فى إعداد العدد الأول ، وكانت عندى مواد جاهزة من

المحاضرات التى ألقيت فى جمعية الشبيبة العربية . وكان أول المتحدثين قنصل العراق ، وكانت انتفاضة ١٩٤٨ هى موضوع الساعة وذكر أحداثها وتحدث عما قامت به الدولة . ولكن الثورة كان قد قضى عليها وجاء إلى الحكم من يندد بها ، وكنت أسهمت بقصيدة قديمة منها :

إيه بغداد غردى لاتبالى بعدو أذنابه فى الحدود
ارفعى الرأس شامخا بالمعالى واكتبى الخلد فى جبين الخلود

ومنها :

أى عهد ينهار فيه شقاء قد بنوه بالظلم والتنكيد

كنت قرأت المحاضرة وحذفت الأشياء البعيدة عن الأحكام العلمية وصغتها صياغة تلائم البحث المتجرد عن العراق . . واتفقت مع مطبعة فى الإسكندرية وسلمتها المسودات كاملة ، واتفقت معها على أن أصحح المسودات . ولما ذهبت فى الموعد قيل لى إن المحافظ أرسل فى طلب المسودات .

لم تكن هناك مراقبة ، فعجبت للأمر . لم يكن أمامى إلا الذهاب إلى المحافظ ولا أريد أن أصف ماعانيت من بيروقراطية ومشقة طويلة وضياع للوقت حتى أقابل المحافظ . وقد كان الرجل كريم الخلق رحب بى ترحيبا شديدا وجلسنا نتحدث عن سبب سحب المسودات .

قال : إن القنصل العراقى اتصل بى ورجانى أن أسحب المسودات من المطبعة . عجبت منه ، وكان حريا به أن يسألنى أنا لا المحافظ فى الأمر . وأخبره بأنه يريد أن يعيد النظر فى المقالة وقال لى أرجوك أن تأخذ توقيعه على كل صفحة ولن أسمح بنشرها إلا إذا ختمها ووقع عليها .

قلت : وبقية المواد ؟

قال : ليس لى اعتراض عليها .

أخذت المقالات إلى المطبعة لاستئناف الطبع وذهبت إلى القنصلية.ولما قرأها القنصل دهش لأنني أعددت المقالة إعداداً بعيداً عن مدح الأشخاص أو الهجوم على الآخرين . . وما أسرع ماختم الأوراق ووقعها واعتذر اعتذاراً شديداً وأحس بالغلطة الكبيرة التي قام بها .

أصبحنا صديقين بعد ذلك . . وأهداني ديوان الكاظمي الجزء الثاني الذي أخرجه لأنه زوج رباب الكاظمي . . انه حكمت الجادرجي (رحمه الله) وكتبت مقالة عن الديوان نشرت في إحدى مجلات مصر ، وأعدت نشرها في كتاب (في الأدب العربي الحديث ـ بحوث ومقالات نقدية) .

كانت المشكلة كيف أقابل المحافظ مرة أخرى لأن الرجل أصر على رؤية المقالة بعد توقيعها وختمها بخاتم القنصلية .

بقيت منتظراً في الممر أكثر من ثلاث ساعات ، فقد أخبرني السكرتير بأنه مشغول ، ولم أتمكن من مقابلته إلا بعد إلحاح . . ولما رآها وافق على النشر، ثم رجاني إيقاف إصدارها . .

ماكنت بحاجة إلى النصيحة فالمشاق التي كابدتها تكفي لإيقاف القطار السريع ـ لا ـ لإصدار مجلة مدرسية متواضعة .

إن توزيع المجلة مشكلة كبيرة والصرف عليها مشكلة أخرى ، وقد تم تعاون الجميع على التوزيع والصرف على المجلة . وأقسمت بعدها ألا أصدر مطبوعات في مصر .

أنهيت الدراسة ووفقت في الحصول على الإجازة . . ونويت العودة إلى بغداد . فجمعت أوراق الجمعية وأختامها ومنشوراتها وأودعتها لدى أحد الزملاء وظننته سوف يستمر في النشاط العلمي والأدبي ، ولكنه للأسف

الشديد أوقف الجمعية وأهمل أوراقها وأختامها وأعداد المجلة ومحاضر الجلسات وقائمة أسماء المشاركين الكرام .

العودة إلى بغداد :

وقبل أن أترك الإسكندرية بدأت أمر على جميع الطرقات من محطة الرمل إلى محرم بك وكأنى أودع صديقا عزيزا ، وتلك عادتى عندما أحب بلدا أودعه كما أودع الصديق العزيز باستثناء بلد واحد لم أودعه فى حياتى لأنه لايعرف قيمة نفسه ولاقيمة الناس ولم يترك فى نفسى أثرا حسنا . ودعته ورميت سبعة أحجار عليه .. بعد أن فقد كل إنسانية لأنه لايملك من بنى آدم إلا شكله ومساويه .

وقد ودعنى الصحب توديعا حارا جميلا ما زالت أذكره حتى هذا اليوم ..

كانت عودتى بطريق البحر. فقد كانت الكتب التى اشتريتها كثيرة ووضعتها فى صندوق كبير من الخشب . كانت الرافعة ترفعه إلى الباخرة ، وأنا أتأمل الصندوق خوفاً من أن ينكسر ..

ولما وصلت بيروت كانت الرافعة تعيد الصندوق ، ولكن قبل أن يصل إلى الأرض سقطت الكتب وتبددت على الرصيف فكانت ساعة حزن لى . وما أسرع ما أعطيت أحد الحماليين مبلغا من المال فجلب المسامير والمطرقة وأعاد الشحنة كما كانت ولم يتركها حتى أخذ منها كتابا دون أن يكون ملمّاً بالقراءة أو الكتابة، وهذه عادة حمال الكمارك يريد شيئا فوق أجرته ..

وصلت بغداد عن طريق الرطبة لأنها أرخص طريق للعودة .. كانت فرحتى بالعودة إلى أهلى خير شهادة لى وأغلى هدية وأحسست فرحة النصر فى عيونهم والسعادة فى وجوههم .

والغريب أن أحد الزملاء كان قد جاءنى وأنا أعد نفسى للسفر وقال لى :

أنت مجنون تريد السفر إلى مصر !!

استغربت من قوله وقلت : لماذا ؟

قال إن راتبك سوف يكون بعد مدة بقدر راتب حامل الليسانس . أنت تصرف أربع سنوات من عمرك فى الكد والدراسة والتعب وفى خلال هذه الفترة يكون الزملاء قد سبقوك إلى الترفيع .

ما كان الزميل الكريم يدرى بما أعانيه من شعور داخلى وإحساس نفسى،وأظنه لايحس هو بذلك وإلا ما قال لى قبل سفرى هذا القول الذى ثبط الهمة ونال من العزيمة . والغريب أنه قال كيف تعيش بنصف الراتب الذى تأخذه وأنت مجاز دراسيا ، ومصر غالية وتحتاج إلى كتب وسكن وأكل وشرب وأجور مدرسية .

أحسست بخور فى عزيمة السفر وضعف فى الرغبة وهداً للحيل العلمى . وبعدها كنت أزور طبيباً من مصر عاش فى بعقوبة وقامت بينى وبينه صداقة فهو طيب حلو اللسان جميل المعشر . فاتحته فى الأمر وبخاصة قضية الغلاء فى مصر قال :

إن أقل من نصف راتبك يأخذه المعيد فى الكلية . كيف يعيش وقد تكون له أسرة ؟ اذهب ولاتتوان ، فهناك من يحسدك لأنه لايقدر على ماتقوم به من عمل وجرأة وثقة بالنفس .

دارت كل هذه الحوادث أمامى وصاحبى الذى أراد أن يثبط عزيمتى يصافحنى ويقدم لى التهانى على عبور المشقات والصعاب وحصولى على الليسانس بشرف

هل أذكره بما قال ؟

عدت إلى بعقوبة وقد تغيرت النظرة إلى وتبدلت وجوه كانت تترفع عندما كانت تتحدث معى . . وسلست عبارات جماعة كانت ترى فى المعلم غير مترابه فى المدرس وحامل الليسانس . . . وكانت الجرائد ذكرت أسماء الذين تخرجوا ، وكنت منهم وأمام اسمى كلمة (شرف) فكان صدى هذا التخرج كبيرا فى بعقوبة إذ كانت سمعة مصر ترن فى النفوس والقلوب ، وكان المتخرج منها يعيش فى هالة من التقدير والاحترام لأنها كانت كالمنخل لايخرج منها إلا الدقيق الناعم المفيد، وقلما تمر الأحجار من هذا المنخل الدقيق . كانت تحاسب الطلاب وتحرص على سمعتها كل الحرص إضافة إلى أن الخريجين لم يكن عددهم إلا محدوداً من دار المعلمين العالية . .

سجلت مباشرة معلما فى مدرسة بعقوبة الابتدائية ، ورجوت المدير أن آخذ بعض الدروس حتى لا أبقى بلا عمل . . إلى أن يتم تعيينى فى مكان آخر . وكان مدير المعارف الاستاذ رفيق حلمى من أكرم الناس خلقا وأدبا وقد كانت تربطنى صلة به من قبل أن أسافر . . ويقيت فى بعقوبة لا أراجع وزارة المعارف التى وصلتها النتائج حتى ارتحت أياما من عناء السفر وإرهاق الدراسة .

ذهبت إلى بغداد لمقابلة المدير العام وكانت أمامى مفاجأة لم أعرفها،فقد طلب منى أن أذهب مديراً لمدرسة الحى الثانوية .

قلت له إنى جئت بعد أن سجلت فى الماجستير والحىّ مدينة بعيدة ولايمكن أن أستفيد من مكتبات بغداد .

قال : إن درجاتك عالية ولابد أن تحصل على المكافأة المناسبة .

فلما رآنى رافضاً قال : اذهب إلى متوسطة الفلوجة مديرا ، وهى قريبة من بغداد . . أحسست بأن المدير العام يريد أن يسد فراغا أو يرضى

مسؤولا فى هذا التعيين . كنت أريد أن أعين فى بغداد مدرسا فى أية مدرسة ثانوية أو متوسطة حتى أستمر فى تحضير الماجستير . . عدت إلى بعقوبة بعد أن يئس المدير العام من إقناعى ويئست من إقناعه .

عدت إلى بعقوبة ثانية ، وواليت العمل فى المدرسة الابتدائية . . ولم يكن الأمر طبيعيا فى تلك الآونة . إن خريج مصر وبدرجة الشرف يدرس فى الابتدائية . وبدأ القال والقيل بين المعلمين أنفسهم . وبدأت المدرسة الأولى تطلب أن أدرس فيها مادمت قبلت التدريس فى المدرسة الابتدائية الثانية . وكان مدير المعارف ينظر نظرة بعيدة ويرفض مثل هذه الطلبات دون أن يفاتحنى أو يضغط على . . وبعد أن هدأت الأمور ذهبت إلى بغداد وقابلت مدير المعارف العام فقال :
وجدت لك مكانا فى بغداد

قلت : على الخير موافق . وجلست معه وطلب أمراً إداريا كان قد وزع فيه دروس دار المعلمات الابتدائية على محاضرين من كلية التربية ، وطلب من المسؤول أن اعين فى دار المعلمات مع إيقاف الأمر الإدارى المذكور . . قلت : دار المعلمات ؟

قال : لم تتعجب ؟ إنها خيرة المدارس . وهؤلاء مدرسون فى التعليم العالى يلقون فيها محاضرات . . وليس هناك مكان شاغر لتدريس العربية فى جميع ثانويات بغداد . . قال : سوف أوقف إصدار أمرك حتى تفكر جديا . . وكان رحمه الله لطيفا رقيق الخلق . عدت إلى بعقوبة إلى عملى ولايهمنى نوع العمل الآن فالراتب زاد زيادة كبيرة ومكانتى ارتفعت وأحسست بوجودى .

كنت أذهب إلى الأستاذ رفيق حلمى بين آونة وأخرى وأجلس معه ويحدثنى أحاديثه التاريخية الكثيرة . جاء السيد خورشيد سعيد لقضاء بعض الأمور الرسمية ، ولم يكن الرجل قد تعرف على . ولما تعارفنا قال له مدير

المعارف : طُلب إلى الأستاذ يوسف عز الدين أن يعين فى دار المعلمات فرفض . .

فقال الرجل : لماذا لا تأتى إلى دار المعلمين الابتدائية وقد أسسنا صفها الأول بعدة فروع وأنا أشرف عليها وعلى دار المعلمين الريفية ويمكن أن تأخذ دروسك فى الصف السادس . . وقد تستفيد منك ثانوية بعقوبة أيضا . . قلت:على بركة الله فأنا أحتاج هذه السنة أن أستقر مالياً وروحياً فى بلدى وهى ليست بعيدة عن بغداد ويمكن أن أستفيد من مكتباتها أيضا . . قال مدير دار المعلمين:انا مسافر إلى بغداد بسيارة الدار هل نذهب معاً إلى وزارة المعارف ؟. قلت:على بركة الله .

لما دخلت على المدير العام فرح فرحاً شديداً بحضورى ولم أعرف سر هذا الفرح إلا بعد أن علمت بأن الوزير سأل عنى لأنه وجد كل المتخرجين من مصر قد عينوا وأنا لم أعين ، وكان قد أوصى بأن أعين فى المكان المناسب لأنى من المتقدمين فى الدرجات .

قال : هل تذهب إلى دار المعلمات ؟ قلت :لدار المعلمين فى بعقوبة . . قال : على شرط أن تكتب ورقة تقول فيها بأن التعيين تم بناء على رغبتك . . لأن الوزير ولجنة التعيينات العليا اشترطا أن تعين فى مكان مناسب . . قلت : موافق . وكتبت له ما أراد . .

أمر بإصدار الأمر الإدارى حالاً . . ولما جاء الأمر الإدارى لكى يوقع نظر إلىّ بدهشة واستغراب . . وقال:أنت معلم مجاز إجازة دراسية . . قلت: كنت مجازا والآن أنا معلم فى بعقوبة . . قال : وتداوم فى المدرسة ؟. قلت : وهل هناك من ضير ؟

قال : كل هذا وأنا لا أعرف أنك مجاز وأنت تداوم ؟ . لو كنت أعرف ذلك لأصدرت الأمر دون أن تدرى ولعينتك فى دار المعلمات وأنهيت الأمر.

كنت ذكياً فعلى بركة الله .

قلت : لم تسألنى ولم تتحدث عن الموضوع . .

فى دار المعلمين فى بعقوبة :

كانت دار المعلمين الريفية فى بعقوبة بستة صفوف يقبل بها ابن الريف والقرية لتخريج معلمين يعرفون حياة القرية ويدرسون الوسائل التى ترفع من مستواهم إضافة إلى أن بعض المعلمين يرفضون الذهاب إلى القرى والأرياف إذ ليس فيها وسائل الراحة من ماء صحى أو كهرباء ولا حياة اجتماعية إضافة إلى أن شيوخ القبائل كانوا ضد تعليم ابن القرية لأن الشيخ يظن بأن تعليم القروى سوف يخرجه عن طاعته ويفتح ذهنه على العالم .

وكان المعلمون يلاقون مشقة كبيرة فى الاستمرار فى التعليم ، فكانت بيوتهم تسرق ويهددون آناء الليل وأطراف النهار بأمر من شيخ المنطقة أو القبيلة . فاقترح إنشاء الدار حتى يعود أبناء الريف إلى قراهم وهم أعرف الناس بالمحيط والبيئة . وقد وفرت الدولة لهؤلاء الطلاب السكن والطعام والشراب والكتب واللباس خلال دراستهم وإلى تخرجهم من المدرسة الابتدائية إذ لم تكن المدارس المتوسطة أو الثانوية إلا فى حدود ضيقة،وكانت آخر هذه المؤسسات فى بعقوبة إذ بدلت بالتدريج إلى دار المعلمين الابتدائية بعد أن توفر عدد من طلاب المتوسطة وكثر الخريجون من هذه الدار التى كانت الوزارة تعنى بها عناية كبيرة منذ تأسيسها وكانت ترسل لها خيرة الأساتذة والمربين ، وقد كانت فى الرستمية فى الريف القريب من بغداد . .

ضاع بعض شهور السنة حتى استقرت أمورى فى بعقوبة . وكنت مرتاحاً لأنى أصبحت مدرساً فى مجموعة من الطبقة الجديدة ، ولم أعد كماً مهملا ينظر إلىّ المفتش ومدير المعارف نظرة خاصة . وكان عدد المدرسين محدوداً بالثانوية ودار المعلمين،وكل واحد منهم ينظر إلى أخيه نظرة احترام وود . .

ولم تعد للمدير السلطة العليا والتحكم الفردى الذى وجدته فى الابتدائية

التي كانت حكرا على مدير المدرسة، ومؤهلاته أنه أخو مدير عام في بغداد . كان عملي في إعداد الرسالة قليلا ومحدود الجهد فقد أخذت مني أمور المجتمع جانباً كبيراً من وقتي وإعداد الدروس وقتا آخر . . إذن لابد من النقل إلى بغداد ما دمت راغباً في إكمال دراستي وإلا مرّت على السنوات دون أن أصل إلى نتيجة . قدمت طلباً للنقل إلى بغداد لأني أريد إعداد رسالة الماجستير وليس بغير بغداد أجد المكتبات لاسيما وأن عملي كان في القرن التاسع عشر ، وكل مكتبات هذا العصر في بغداد والنجف والبصرة . . ويكفي أن أطلع على مخطوطات بغداد . و كان هناك من الفضلاء من يتفهم هذا الأمر ويساعد على إنجاز طلبي العلمي. وكانت لجنة التنقلات قد عقدت اجتماعها وكنت في بغداد . . كيف الوصول إليها ؟ .

كنت قد شرحت القضية للدكتور عبد العزيز الدوري وتفهمها جيداً وخشيت أن تنسيه الأعمال الكثيرة أمرى . فكتبت إليه رسالة مختصرة جداً أذكره بالأمر وعدت إلى بعقوبة . وكان الرجل عند حسن الظن . قال : لما وصلت رسالتك عرضتها على اللجنة فاستجابت .

فذهبت إلى مدير معارف بغداد ليتفق معى على المدرسة التي سوف أعين فيها . . . ومن الطريف أنني لما قابلت مدير معارف بغداد قال إن أقرب مكان إليك هو ثانوية الكرخ فإذا كنت راغباً فيها أرجو إخباري غداً لأصدر لك الأمر الإداري . الحق إنها أقرب مدرسة لي لأنني كنت أسكن (الفضل) لأن عدداً من أفراد الأسرة هم أصلاً من هذه المحلة البغدادية القديمة وليس بيني وبين الكرخ غير عبور الجسر . . فذهبت إلى المقهى التي اعتدت الجلوس فيها وحدثت جماعة من المدرسين عما دار بيني وبين مدير المعارف . فوجدت إجماعاً غريباً بالابتعاد عن المدرسة لأن المدير كان شهيراً بسخافته وسوء تصرفه مع المدرسين . . ثم أثنوا على مدير الثانوية الشرقية عبد الحميد راضي (رحمه الله) .

وبالفعل قابلت الرجل فكان مثلاً عالياً للخلق الرقيق والشمائل العالية

ورحب بي أجمل ترحيب وأحسست بالرجل قريبا من نفسي ومن قلبي . .
وأصدر الأمر الادارى . وكنت أذهب كل يوم إلى بعقوبة وأعود صباحا
للتدريس وأقطع تسعين (كيلو متراً) فى اليوم.إنها لعملية صعبة أن أركب
السيارة من الثانوية الشرقية إلى باب المعظم ومنها أذهب إلى بعقوبة وهكذا
فى العودة،ولم تكن المواصلات معدة إعداداً جيداً .

ولما نقلت الأسرة إلى بغداد بدأت أنصرف إلى الدراسة ومراجعة
المكتبات العامة والاتصال بأصحاب المكتبات الخاصة . كنت أرهق نفسى
بالعمل فى المدرسة وأواصل الليل بالنهار لإتمام الرسالة .

وعندما أصاب بالإعياء أرتمى على الأرض حتى تستريح جوارحى
وأترك لنفسى التفكير فى الفصل الذى أعده . ولكم ألهمنى هذا الإعياء من
أفكار وآراء عندما استلقى على ظهرى وأنصرف إلى سقف الحجرة أنعم
النظر فيه . كانت المدرسة فى الشرقية والمكتبة العامة فى باب المعظم وكنت
أغتنم الفرص للذهاب إلى المكتبة للاستفادة من المجلات والجرائد . وفى
أيام العطل كنت أذهب إلى المكتبات الخاصة . . إنه عمل شاق مرهق
ولكنه كان جميلاً ولذيذاً،ما أشقه على النفس وما أحلاه من شقاء وجهاد .
إن العمل العلمى متعة قلما يعرفها إلا أصحاب العلم وهواة البحث
والدراسة . فكل جديد يسعد وكل اكتشاف يملأ القلب بالرضا وكل
مخطوطة أو خبر يضاف إلى الدراسة لبنة فى صرح العلم والفكر والأدب ،
وأنا أرتاد المجاهل الجديدة والساحات التى لم يصلها إلا النفر القليل الصبور .

أثر جامعة الإسكـنـدريـة

كانت الجامعة،كما قلت،سبباً فى بعث الثقة فى نفسى والاطمئنان إلى
روحى . وزادها ثقة وسعادة عندما عرض على أستاذى أن ادرس تحت
إشرافه الماجستير ، فقد كنت فى قسم النقد (الامتياز) وقد ألغى هذا
الاختصاص وكان يسمى (الخاص) .

وقد فتح النقد وتدريس أستاذى خلف الله الأبواب النقدية أمامى ، ودرست النقد الحديث وتعلمت أشياء جديدة عن الأدب الغربي وبخاصة الأدب الانكليزى الذى لم أكن اطلعت إلا على نتف منه .. ودرست لأول مرة أثر علم النفس فى النقد . وفتح هذا العلم أمامى آفاقاً جديدة بالرغم من أننى درست علم النفس فى دار المعلمين ثم درست (من الوجهة النفسية فى تاريخ الأدب ونقده) على أستاذى مؤلف الكتاب . وأخذت أجمع كل المصادر العربية التى يذكرها استاذى فى المحاضرة إلى جانب الكتب التى جمعتها عندما درست النقد على الأستاذ محمد طه الحاجرى . وعكفت على دراسة الكتب المترجمة عن النقد ووجدت صعوبة فى فهم المصطلحات لكن كثره القراءة ومساعدة أستاذى والتتبع المستمر للنقد حلت المشكلة . كان اختيار أستاذى لى مدعاة للفخر والثقة بقدرتى الأدبية فقد كانت العادة الجارية أن يبحث الطالب عن أستاذ يشرف على رسالته .

ترك لى الأستاذ حرية اختيار الموضوع ومقابلته بعد الاختيار . كنت أميل إلى الأدب الأندلسى لأنه أقرب إلى الحياة العربية الأدبية المعاصرة ولما فيه من جمال ورقة وتطور وتجديد،وكنت أحب قصائد ابن زيدون لتطور شعره الحضارى بما يقارب تطور القرن العشرين . وفى بعض آرائه وأفكاره و شعره الرقة والعذوبة وسهولة التعبير والوضوح مع جمال الأداء والعناية بالمحسنات اللفظية .

أخذت أقرأ أمهات كتب الأدب الأندلسى وآخذ ما يروق لى من نصوص لأننى لم أحدد الموضوع بعد . ثم فكرت فى اختيار الطبيعة والجمال فى الشعر الأندلسى .. أخذت المصادر تقودنى إلى إشارات باللغتين الفرنسية والإسبانية ولابد لمن يريد الاستقصاء من معرفة هاتين اللغتين ليتم بحثه ويصل إلى مستوى أقرب إلى الدقة منه فى حالة عدم معرفته بها .

كانت نافذة اللغة الإسبانية مغلقة أمامى تماما ولم تكن اللغة الفرنسية

التي أعرفها تعين على فهم الأدب فيها . هل يمكن أن أتعلم الإسبانية في مصر ؟ لا بد من السفر إلى إسبانيا،وكم يستغرق تعلمها من الوقت حتى يتقنها الدارس ليكون قادرا على إثراء لغته منها ؟

هناك طريقان لاثالث لهما .

١ ـ دراسة اللغة الإسبانية .

٢ ـ تغيير الموضوع .

مشكلة رسالة الماجستير

أحس أستاذي بالمعاناة التي أعاني منها والقلق الذي ران على نفسي ولم أعد أحدثه عن الجديد في دراستي ، ولم تعد عندي تلك الحماسة التي ظهرت عندما بدأت في البحث . . وما أشد الألم على إنسان تاه في دروب البحث العلمي وساحات الفكر . . ولايعرف له مستقرا كالملاح التائه في وسط المحيط .

لم يكن أمامي غير خيار تغيير الموضوع نفسه . فاقترح الأستاذ عليَّ أن أختار الأدب العربي في العراق في القرن التاسع عشر الميلادي .

قلت بدون روية .

هل هناك شعر أو أدب في العراق في القرن التاسع عشر ؟

قال:حسناً أكتب رسالة تبرهن فيها على عدم وجود شعر في هذا القرن . ولأن بحثك عن العراق فهذا يساعدك على استمرار العمل داخل العراق ، فيمكن أن تعود إلى بلدك . . . فكرة رائعة لم تخطر بالبال راقت لي وكم من أفكار مفيدة قريبة لكنها بعيدة عن البال يأتي بها النقاش وتخلقها الصدفة المحضة ، وتشعّب الحديث دون إعمال الذهن والفكر العميق .

ماكنت أعرف شيئاً عن هذا القرن وماعرفت من تاريخه إلا بعض النتف القصيرة . فلابد من دراسة تاريخية بصورة مفصلة ومعرفة حياته الاجتماعية والإدارية والسياسية ، قبل أن أدرس شعره لأن الشعر جزء من حياة المجتمع وصدى لمعاناته الحضارية وثقافته ومشكلات مجتمعه وحياته السياسية والاجتماعية والفكرية . هل أتراجع ؟ .

الطريق محفوف بكل صعوبة وبكل ما هو مجهول وغامض ، لكن الرغبة في العلم والصبر على الدراسة واكتناه كل مغاليق الأمور تفتح وتسهل كل صعوبات البحث العلمي الشاقة .

واخيراً استقر الرأى على السياسة في هذه الفترة لأن العراق بطبعه سياسى . فكل أبناء العراق صغيرهم وكبيرهم يغرق نفسه في السياسة . فاخترت موضوعاً عنوانه السياسة وأثرها في الشعر العراقى في القرن التاسع عشر . وكان أحد الزملاء يدرس في دار العلوم ، فلما قرأ ماذكرته الصحف ألحف في تغيير العنوان ووسط الدكتور محمود غناوى الزهيرى فغيرت الموضوع إلى خصائص الشعر العراقى وأهدافه في القرن التاسع عشر .

اتسع البحث أمامى لأن الخصائص والأهداف كثيرة ومتنوعة ولكن اتساع رقعة البحث فتح أمامى آفاقاً جديدة من المعرفة . وتعرفت على سمات هذا القرن وملامحه وشعرائه وكتابه ومؤرخيه . قلت : رب ضارة نافعة . واضطررت للدراسة تاريخ العراق وإدارته وأشهر ولاته وتياراته الفكرية والأدبية والاجتماعية . خدمنى هذا التاريخ كثيرا فقد كتبت منه عدة مقالات وألقيت بحثا منه في مؤتمر المستشرقين في الهند . ومن الطريف أن الزميل رحمه الله لم يحصل على الماجستير إلا بعد أن حصلت على الدكتوراة وعينت في كلية الآداب ردحاً من الزمن . فقد حالت مشاغله دون إكمال دراسته ، وطلب رحمه الله منى رسالة الماجستير وقرأها واستفاد منها كثيراً وقد تركتها في مكتبة الآثار عند الأستاذ كوركيس عوّاد واشترطت عدم خروجها

من المكتبة . والغريب أنه رحمه الله لم يذكر الرسالة بين المصادر التي قرأها . وقد قال أستاذ فاضل بأن أثر رسالتك في الفصلين الأخيرين واضح كل الوضوح ولايمكن للباحث أن يخطىء النظر . كما استفاد رحمه الله من كتابي (الشعر العراقي الحديث) في أبحاثه . . وهي رسالة الدكتوراة من جامعة لندن التي وقفت حتى ١٩٣٩ بداية الحرب العظمى الثانية وأكملت ما فاتني من دراسة في الماجستير وجعلت عنوانها :

Poetry in The Social And Political Development Of 20 th Century, Iraq.

وقد درست فيها الحياة السياسية في العراق أولاً ثم حياته الاجتماعية ، ولعلي أول من كتب رسالة دكتوراة في هذا الموضوع وفي الأدب العربي الحديث في العراق . وقد طبعت ثلاث طبعات إضافة إلى الطبعة الانكليزية التي كانت كاملة . أما الطبعات العربية فقد حذف منها الفصل الذي يتعلق بالثورة العربية الكبرى لأن الطبع كان في فترة منع فيها كل شيء اسمه عربي ومايخص القومية العربية . وابتلى العراق بالمحنة وسيطر الحكم الفردي والفكر الواحد وهدد أصحاب الأفكار المعارضة في أرزاقهم وأعمالهم في وظائفهم . ونسي هؤلاء التيارات الفكرية التي تسيطر على العراق والجذور القديمة التي تظهر في فكره وعمله .

والعراق يختلف عن البلدان الأخرى في تكوينه الفكري وفلسفته الفردية وشموخ تكوينه الذاتي ويختلف عن غيره من البلاد العربية والإسلامية بحب ذاته والإعجاب بنفسه . وبالرغم من مظهره الهادىء الذي يحسبه الناظر استسلاما فهو يحمل في نفسه ثورة عميقة وتدفقا قويا وعاطفة صادقة . فعلى الحاكم السيطرة على عواطفه بأعمال البطولة التي يؤمن بها والسخاء الذي يسبغه عليه . . وهو شديد التقلب،ما أحب حاكمه في يوم من الأيام ولو انه يجامله ويستكين إلى حكمه فترة من الزمن . إن

المعاملة الجميلة والأسلوب الرقيق يجب أن يكون من إنسان يتمتع بالقوة والشجاعة والكرم والبأس الشديد . هذا هو الزعيم الذى يرضاه الشعب العراقى . إنه يجب الشجاعة والكرم والجرأة والجود .

الدراسة فى مصر :

لم أتناول دراستى فى مصر مع الدراسة خارج العراق لأنها بلد عربى ولأنى لم أجد فيها صعوبة كبيرة فى اللغة والحياة الاجتماعية والفكرية ولأننى كنت على صلة روحية وأدبية بمصر بما كنت أقرأ عنها من مؤلفات وأطالع فى مجلاتها وجرائدها .. وبالرغم من أن مصر قد فتحت عينى على الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية وتعرفت بوساطتها على الكثير من حياة الغرب كاملة أو مشوهة فإن مصر تحاول تقليد الغرب فى حياتها وتتمنى نقل الحياة الغربية إليها وبخاصة الطبقة الحاكمة التى كانت تتحدث بكل اللغات إلا اللغة العربية التى كانت تعدها لغة الفلاحين والطبقة الدنيا من أبناء الشعب .

وتشاء الصدف أن أعيش مع أسرة يونانية وأحس بما يضمره الأجانب لمصر والمصريين بالرغم من أن بعضهم لايعدو أن يكون سائق سيارة أو إسكافياً أو بقالاً أو بائع خمر يركضون وراء المصريين ويقدمون لهم خدماتهم ليحصلوا على أموالهم ولكنهم إذا خلوا إلى شياطينهم احتقروا مصر والمصريين .

رأيت أوربا فى حياة هذه الأسرة ولكن فى طبقة ليست عالية الثقافة رفيعة المستوى الاجتماعى والاقتصادى وإلاّ لما قبلت أن تخدم طالباً جاء يدرس فى الجامعة وتقدم له الطعام وتنظف فراشه وملابسه وتقدم له الشاى والقهوة مع كلمات الترحيب والابتسامة:تفضل (مسيو يوسف) وجاء مسيو يوسف وأكل مسيو يوسف . ولا أدرى لماذا استعملوا معى (مسيو) وهى

فرنسية ولعلهم شعروا بالنقص لأن الفرنسية لغة العلية من القوم أو لعلهم كانوا يجاورون المصريين المتفرنسين وهم جماعة خاصة ترى نفسها أعلى الطبقات .

مصر فتحت عيني على أمور كثيرة وأيقظت حاسة الملاحظة ونبهت في رغبة البحث والاستقصاء وأعادت إلى ثقة كبيرة في نفسي. فالفضل الأول لدراستي في الإسكندرية هو ما أولتني من ثقة واعتداد فكري وعلمي وبروز شخصيتي فيها .

في مصر علاقات مشتركة وأصول متشابكة وجذور متشابهة، فهي أقرب إلى أوربا من العراق وسبقت العراق حضاريا وتطورت أكثر من الأقطار العربية لأحداثها التاريخية ومكانتها الجغرافية والفكرية . لاشك بأن العراق حاول أن يلحق بركب مصر وقلدها شأن العرب كلهم واستعار منها الرسل الأول للثقافة مع امثالهم من بلاد الشام . وقد درسنا على عدد ليس بالقليل من الأساتذة منهم ومن الأقطار العربية الأخرى . . وكان العراق موئلا لجميع شعوب العالم العربي من ساسة أو أساتذة ومدرسين وصحافيين وحرفيين ولكن مصر كانت تأخذ الجزء الكبير من فكر المثقف بكل اتجاهاته السياسية والحزبية . فهو يقرأ المقطم والمقتطف والهلال والرسالة والثقافة وما يأتيه من الشام من صحف متنوعة وكتب متعددة إضافة إلى فرقها التمثيلية ورواد الغناء . . فأنا أعرف الشيء الكثير عن مصر قبل أن أذهب إليها وأصبحت هذه المعلومات الكثيرة جزءا من فكر المثقف وروحه . وقد كان الذهاب إلى مصر حلم كل متعلم وهدف كل مثقف وأمنية عذبة يتمناها الناس كلهم ، لذلك كانت فرحتي بمصر كبيرة ورائعة ــ سعدت بها روحي سعادة غامرة . ولما سافرت إلى أوربا اختلف الأمر معي ، فقد سافرت وحيدا إلى المجهول خائف القلب قلق الروح حيران النفس . أما في ذهابي إلى مصر فلم أكن وحيدا فقد كان معي عدد من الزملاء . فقد سبقني

جاسم عبد الحسين السعدى وكان يرسل لى أخباره ويحدثنى عن حياته فى الجامعة ويرسل لى بعض الصحف المصرية وكنت أطلع على ماتجرى فى مصر من قراءة هذه الجرائد المتنوعة . وجاء أحمد نجم الدين. وقد فضلت الإسكندرية على القاهرة مع أننى قبلت فيهما وكان فيها على جواد الطاهر طالبا فى كلية الآداب بعد أن تخرج فى دار المعلمين العالية وأرسل لى منهج الدراسة بكلية الآداب بصورة مفصلة . ولا أظن نظم الدراسة فى الجامعتين تختلف . ذهبت إلى مصر وعندى صورة عامة عنها وعن الدراسة فيها . ثم إن الدراسة فيها تجرى باللغة العربية ووجدت عددا من الزملاء فى الجامعة . وحضر بعد ذلك إلى قسم الجغرافيا إخوان منهم على شلش وخطاب صكار العانى وعبد المنعم عبد الوهاب وعلى عبد الحميد وخضير نعمان العبيدى فكان عدد الطلاب من العراق جيدا إذ لم يكن فيها غير طالب واحد فى الأدب جاء قبلنا .

وكان معى كامل مصطفى الشيبى ومحمد باقر عبد الغنى والآنسة ميرى فتوحى وتألفت القلوب وكنا أسرة واحدة يسودها الحب والمساعدة والألفة الصادقة والمحبة العميقة .

إلى لندن :

وصلت إليها ولم أكن أعرف إنسانا ولا أدرى لى مقرا . . ووجدت حجاباً كثيفاً من اللغة يفصلنى عن العالم . . كيف جازفت ؟ . لا أدرى . . وكيف جاءتنى الشجاعة إلى اختراق المجهول ؟ . إنه التحدى والطموح ورد الكرامة . .

رفضت جميع الكليات قبولى مدرسا فيها واشترطت علىَّ الحصول على الدكتوراة مع أن عميد دار المعلمين العالية (رحمه الله) لايحمل سوى

الليسانس،وفي الكلية عدد كبير من حملة الليسانس والماجستير . وضحكت وقلت :

«بوجه اليتيمة غاب القمر» . كان رد الفعل على نفسي كبيراً وفي روحي عميقاً مؤلماً . فواجهت ذلك بإرادة قوية وصبر عميق إذ لايوجد أمامي غير حل هو إكمال الدكتوراة . . لم أقنع كما قنع غيري بالعمل في الثانوية وهو يحمل الماجستير فقد رفضت الهوان العلمي والذلة الدراسية،فإن جميع الذين في مستوى الدراسي في الجامعة لم يكونوا خيرا مني . كانت الإجازة الدراسية التي حصلت عليها بعد مشقة ولأي وتعب وكفاح مميت وجهاد مستمر لاتتعدى السنتين . أجل لم يكن أكثر من سنتين ولابد أن المشرع لم يكن يعرف سنوات الدراسة ولعله وضعها لأمور أخرى غير الحصول على الدراسة في الجامعات ، ولعلها للتدريب ودخول الدورات إذ لم تكن في العراق جامعات . وأكثر الذين وصلوا إلى مواقع العمل الكبرى كانوا من غير المؤهلين للدراسة الجادة . . ومن جاء بعدهم من المؤهلين لم يكترثوا بمثل هذه الأمور العلمية لأنها لاتهم مصالحهم الفردية ويمكنهم أن يرسلوا أبناءهم وأقرباءهم في بعثات تطول حسب رغباتهم وحسب أمانيهم وبسلطاتهم .

لم أطلب بعثه علمية لأني بعد تجربة كفالة دار المعلمين الابتدائية حيث رفض أن يكفلني أحد الأقرباء الذي حسبته أقرب الناس إلينا . أخذت الإجازة الدراسية مجازفة ومغامرة في حياتي . ولكن جهزت لها نفسي ودرست بعض الدروس الانكليزية في معهد أجنبي بعد امتحان في المستوى، وبالفعل نجحت في الدورة التي أخذتها . ولكن هل هذا قدر يكفي لكتابة رسالة دكتوراة ؟

كانت الأمور في بغداد تقف حائلا دون سفري ودون مساعدتي . فقد أضعت سنة في بعقوبة حتى أستقر نفسياً ومالياً واجتماعياً . وكانت

المسؤوليات الاجتماعية مرهقة لى . وعندما ذهبت إلى بغداد رفض مدير المعارف العام أن يريحنى بعمل إدارى لأن التعليم كان مرهقا ويأخذ وقتا ضائعاً فى الإعداد للدروس والتحضير وتصحيح الكراريس فى الأماشى والامتحانات مع أن هذا المدير العام الذى ذهب إلى رحمة ربه أولى قريبا له ومن أبناء بلده كل رعاية وكل مايريد،وأراحه لأنه قريب .

الظلم الاجتماعى فى الحياة والغبن فى الوظيفة والهوان فى العمل نصيب كل من لم يملك جماعة تحميه أو كما يقول أهل العراق من ليس له (ظهر) يستند اليه.ولم أكن من أولئك المتملقين وأصحاب الزلفى للرؤساء،وكنت شديد الاعتداد بنفسى وكرامتى . أذكر أن مدير المعارف فى بعقوبة طلب منى أن أجلب له حاجة من السوق . . فأخذت المبلغ منه وناديت على الفراش وقلت له:اذهب إلى السوق واجلبها لمدير المعارف . ابتلع الإهانة التى أراد أن أتحملها ، وبعدها لم يعد لمثلها . ولكن حملها فى نفسه،وما كنت أقبل الخطأ أو ألبى أوامر لرئيس إذا لم تكن متسقة مع ما أفكر فيه من مثل عالية . . والرئيس فى كل بلد عربى يريد أن يطاع أو أن يسمع وأن يقال له نعم،وتلك للأسف الشديد تربيتنا التى قاعدتها الطاعة المطلقة وتلبية الأوامر التى كانت أهم عامل فى نفرق من الرؤساء وأصحاب الكلمة والسلطة طوال حياتى .

كم أضاعت المحسوبية من مصلحة عامة وأهدرت قضايا الأمة المسكينة لرغبة الاهواء الفردية والنزعات الخاصة . فشك الشعب بالسلطة وما كان يوما واثقاً بالدولة . فهو يراها متسلطة تعيش لأغراضها الفردية وحاشيتها الخاصة . وهذا ماحدث لى مع مدير المعارف عندما رجوته مساعدتى فى تخفيف العبء الدراسى عنى لأنى كنت أحضر للدراسات العليا فاعتذر بكثرة الأعمال الدراسية . والغريب أنه قال إنه لم يعين أحدا فى الإدارة هذه السنة ولم أتحمل هذه الكذبة الكبيرة وقلت : ولا حتى فلان .

وكان هذا ابن عمه عينه (معاوناً لمدير المدرسة) . أضمرها في نفسه . كيف يجرؤ مدرس على مخاطبة المدير العام بمثل هذه الصراحة ؟ . ولا ألومه فهو واحد من أولئك الذين اعتادو أن يعملوا وألا يحاسبهم الأتباع ، فكانت هذه الصراحة والوضوح طعنة فى سلطته الفردية ، ثأر لها بعد ذلك .

إنه من زمرة عبيد السلطة ، يتحكمون فى مصائر التابعين دون حساب أو اعتراض ويحسبون أن جيلهم هو الجيل المثالى،ويريدون منا أن نكون طبق الأصل من تربيتهم . ألم يكونوا طائعين بذلة وخضوع دون اعتراض . إنه المجتمع الذى لايرضيه أن يرفض الموظف الصغير أوامر مدير أموره وأن يناقش الطالب أستاذه والابن والده .

كيف يربى المدرس الذليل الخانع جيلا جديدا يراد منه أن يقود الأمة ويخرجها من الهوان إلى الحرية ومن الذلة إلى الكرامة . . المدرس العبد المطيع سوف يربى الطلاب على العبودية والذل والطاعة العمياء،وهذا سر بلاء الأمة وأهم عامل فى تدهورها العلمى والفكرى .

مازالت روح التسلط ــ والحكم الفردى وحب الاستبداد تسيطر على الشعب العربى . ولن تقوم للعرب قائمة إلا بالحرية الفردية والاستقلال الفردى والتفكير الواسع . . كانت هذه العادة الكامنة فى نفسى جزءاً من ثورة كامنة فى روح إنسان حر يريد لأمته سعة العقل وآفاق الفكر وجماح البحث العلمى الصادق والمناقشة الصريحة . ماتعودت على الخضوع والذلة ، وتلك العادة رافقتنى طوال حياتى . . لذلك كنت أبتعد عن مراكز السلطة ولا أحتك بالرئيس وأتقرب إلى المسؤول إلا بقدر محدود .

إن مدير المعارف العام الذى قلت له بصراحة إنه عين ابن عمه فى عمل إدارى وجد نفسه مكشوفاً أمامى . فقد عدَّ هذه الصراحة تطاولا على سلطانه . ولم يجد ما يأخذه علىَّ فأضمرها فى نفسه.فلما عرضت طلبات الإجازة الدارسية . . ووجد اسمى أول المؤهلين . . أجل كنت أول

المؤهلين .. اعترض على فرعي ولم يعترض على اسمي حتى لاتظهر اللعبة .. لكن بعض الخيرين الذين يعرفون الأمور وبواطنها تداركوا الأمر . ولولاهم لكان أمر الإجازة الدراسية في خبر كان . رحمه الله إنه عبد الله محيى الدين أنزل الله على قبره شآبيب الرحمة والغفران .

إنها هزات نفسية واضطراب روحي وقلق عاطفي لايعرف آثارها إلا أولئك الذين رزقهم الله الحس المرهف والنظرة الصادقة والعاطفة الرقيقة والشعور الدافق .

ومن الغريب أن أولئك الذين أخذوا معي الإجازة الدراسية والذين أراد المدير العام إعطاءها لهم لم يكمل واحد منهم دراسته أو يحصل على الدكتوراة . . وهكذا كانت تدار حكومة العراق دون فكر واسع أورعاية لما فيه مصلحة الشعب والدولة .

وصلت إلى لندن بعد سفر طويل ذكرته في كتابي (وعادت الذكرى بطرائفها وغرائبها) بعد أن مررت بعدة مدن . ووقفت في استانبول وتمتعت بصحبة مخطوطاتها . وعشت مع الأجداد أجمل عيشة فكرية ومع أهل استانبول ومعارفنا من العرب على ضفاف البسفور وفي حنايا آثارها الرائعة وفي أحضان بحرها الجميل وجزرها الجميلة ما لا يمكن أن أنساه ، وإلى الآن ازورت عني هذه الذكريات واختفت في عالمها الخاص وحجبت في حجاب كثيف .

كنت في لندن أسابق الوقت وأذلل الصعوبات وأواصل الليل بالنهار للدراسة والعمل والترجمة والكتابة ودراسة اللغة الانكليزية وإجادة الكتابة . وقد كنت أقبل على عملي بشوق برغم الإرهاق،وأواصل البحث والكتابة برغم المشاق التي أعانيها،ولا أحس بالوقت حتى تطل عليّ الشمس من الشباك وأحس بحرارتها تحييّ هذا الغريب الوحيد في حجرة بلسعة منها .

العراقيل والصعوبات كانت تدفع روحي إلى الاستماتة بالعمل ، برغم

وخزات مؤلمة وطعنات عميقة كانت تصلني بين الفترة والأخرى من أناس كنت أرجو أن يكونوا لي عونا وسندا ، يشدون أزرى ويعيدون الثقة إلى روحى والعزيمة إلى عملى .

أصبت بمرض فى المعدة من الإرهاق والعمل المتواصل . ولولا الطب المتقدم فى بريطانيا ومساعدة طبيب المنطقة المستمرة فى العلاج لما شفيت أو تمكنت من التغلب على هذا المرض .

القلب الكبير الذى أولانى إياه هذا الطبيب عندما عرف أننى أعمل للحصول على الدكتوراة خفف الكثير من المرض حتى إنه دعانى لقضاء نهاية الأسبوع مع أسرته فى الريف الانكليزى . ولكن أنى لى أن اضيع نهاية أسبوع واحد .

كنت أتمنى أن يفهم الناس مقدار المعاناة التى عانيتها فى لندن ومقدار الغربة الروحية التى سيطرت علىّ والخوف الذى هدّ روحى وجسمى والعمل المرهق الذى قمت به للتغلب على الصعوبات الكثيرة فى تحضير الدكتوراة .

حمدا لله تعالى فقد عبرت العراقيل والصعوبات وكانت حافزا لمواصلة العمل ولم أكترث بالإرهاق والمرض . لأنى كنت أخاف الإخفاق وضحكة الشامتين وسخرية العذال والحاقدين .

وصدق الشاعر .

كل المصائب قد تمر على الفتى
وتهون غير شماتة الحسّاد

إنهم أعداء لأنك نجحت وهم يكرهونك لأنك وقفت فى هدفك .

فالنجاح والتوفيق من أسباب كراهية بعض صغار النفوس لك . . الذين إذا مانجح الإنسان قالوا له مايريد ومتى أخفق انهالت عليه سيولة اللوم

والعتاب والسخرية :

والناس من يلق خيراً قائلون له

مايشتهى ولأم المخطىء الهبل

بل إن بعض هؤلاء يرى نجاحك وتوفيقك سبة ، ويرى تقدمك فى مضامير الحياة عيباً يجب أن تبتعد عنه وتنزوى لأنك سبقته .

ما أغرب الناس .. !!

وما أعجب أعمالهم .. !!

وتغيرت الأمور عندما عدت أحمل الدكتوراة ،وأخذنى بالأحضان والقبلات ذلك الانسان الذى أدار لى ظهره لما رجوته أن ينقلنى من عملى . وكثرت قبلات النفاق والعواطف الكاذبة وأصبحت عبقرى الزمان . وأنا الذى بخل عليه بعمل كاتب (صادرة وواردة) فى معارف بعقوبة . وكان لايرانى أهلا لهذا العمل .

حياة أوربا جديدة علَّ بكل مافيها ، ومجتمعها غريب وحضارته المتطورة تفوق الحياة التى عشتها فى العراق ومصر .. إنها مجتمع متناقض بالقياس إلى مثلى وعاداتى وتقاليدى .. إنه مجتمع بعيد عنى فى العلاقات العامة والمظاهر الحضارية والتقاليد الاجتماعية .

الحرية فى الغرب :

كل شىء يختلف عما ألفته فى طراز اللباس وتقديم الطعام ونوعه والسلوك العام فى الشارع والكلية والحديقة والبيت ، ولقاء الناس فى الحدائق العامة مع الرائحين والغادين وهم شبه عراة تحت أشعة الشمس وتمتعهم بالاضطجاع كل اثنين من ذكر أو أنثى .. والقبلات العارمة أو المعربدة أمام الناس بدون حياء أو وازع أخلاقى.لم تكن هذه من المناظر

المألوفة لى .. وهذه الحرية المطلقة فى انتقاد الدولة والأحزاب ورؤساء الوزارات وحتى الملكة وظهور الآراء المتصارعة بصورة جلية . والاتجاهات من شيوعية وفوضوية ومحافظة دون خوف من الشرطة أو هيبة من السلطة تبهر العربي لأول مرة عندما يلمسها ويراها ويسمعها .. ما أصعب التأقلم وأبعد الفارق .. كل شىء غريب .. اللغة وأسلوب السير من اليسار واختلاف المكاييل والأوزان وألوان مواقف السيارات والمواصلات .. لم أجد إلا شيئا واحداً يشابه ما وجدته فى العراق وهو بقايا صناديق البريد الحمراء وسيارات النقل العامة الحمراء ذات الدورين .

صحيح أن الملابس التى نلبسها مثل ملابسهم وهى السترة والسروال (البنطلون) ولكن هل يكفى المظهر الخارجي لكى يسبغ عليك حضارة الغرب .

فمهما كنت متأنقا ولبست أجمل الملابس وأغلى الأربطة والقبعات .. فإن الحضارة جزء من المجتمع العريق .. الانكليزى لا يكذب وهو واضح وصريح فى بلاده ولا يخدع بعضهم بعضا .. ونحن نكذب فى كل ساعة بشعور أو بلا شعور ونقسم الإيمان المغلظة دون أن نعى مانقول .. ماسمعت انكليزياً أقسم طول حياتى فى انكلترا . وإذا أراد أن يؤكد يقول لك : ثق بأنى عملت ، أو ثق بأن الحدث واقع . وهو أمين لو صدقته ونحن غُدر .. قُلّب نسير مع الأهواء حيث تميل خوفاً من الموروث الذى استكن فى اللاشعور .

إنها الحياة التى عاشها الغربى فرضت عليه مثله . فإذا كذب لن يقدره المجتمع وإذا أخطأ عوقب . كل واحد يحس بأنه جزء من الدولة لأن الدولة جزء منه لايمكن أن تخدعه ولايمكن أن يستأثر الحاكم بالمتع ويترك الشعوب تجتر الشعارات والمثل الزائفة . يحارب من خرج على المجتمع ولايقبله ويرده إلى طريق الصواب .

فإذا وقفت فى صف للدخول إلى المسرح والسينما لايمكن أن يسمح لك بالتخطى والمزاحمة . إذا اصطف القوم للدخول إلى محطة القطار فيجب أن يكون الصف للجميع ومن أراد الإسراع عليه أن يحضر مبكرا أو أن يحجز مكانه مقدما . . كل شىء بنظام لايمانعه أحد ويحترمه الجميع .

نحن كابدنا مرارة الحكم الانكليزى وجبروته وظلمه وكذبه وخداعه فى العراق والعالم العربى . لذلك كانت دهشتى كبيرة من سلوك الانكليز فى ديارهم . هذا الاختلاف البيّن بين الشرق والغرب واضح أشد الوضوح . لذلك اضطرب كثير من المثل فى فكرى وتناقضت كل المفاهيم التى أعرفها واختلفت الآراء التى كنت أحملها . أين غدر الانكليز ومكرهم ؟

وصلت إلى لندن وأنا أحمل أطنان الكراهية والبغضاء وكثيراً من التوجس والخوف والحذر من الانكليز . وكنت لا أصدق هذه المعاملة اللطيفة التى ألقاها من الشعب البريطانى وأعجب من احترام الإنسان لأخيه الإنسان فى الجامعة والدوائر الرسمية وعند البقال والبائع، ولا أجد سوى كلمة « شكرا » وعبارات الرقة فى المعاملات بين الناس .

كنت أخاف من كل مسؤول وبخاصة الشرطى . . الذى أذلنا فى العراق وسقانا مرارة الهوان والإهانة والاستعلاء . . لأنه يعكس مايلقاه من رئيسه فيصبّه على أبناء الشعب . الشرطى هنا رقيق المعاملة مسارع لخدمتك لايتركك حتى يحس بأنك رضيت ولايتركك وأنت ضائع إلا ويهديك السبيل . . فهارأيت شرطيا صاخبا أو مدعيا بدعوى كاذبة أو صائحاً . . إنه لطيف بأسلوب رسمى وإن لم يبتسم لك .

رقيق وإن لم تحس بالعاطفة الجياشة التى تظهر عند الشرقى . . إنه يخدمك ويحترمك دون أن تحس منه بالمنة والفضل .

كم مرة أوصلنى إلى المكان الذى ضللت دونه . . كنت تهت فى إحدى

الحنايا فى لندن . . فى ذيل المدينة . . فوجدت هاتفا موضوعا عليه علامة الشرطة . رفعت السماعة فرد على إنسان . . وقال :

هل أقدر أن أساعدك ! .

قلت :

ضللت الطريق

قال لى: أين تريد أن تذهب ؟ . وذكرت له المكان الذى أريده .

قال: ما اسم الشارع الذى أنت فيه ؟ ولما سميت له اسم الشارع .

قال : انحرف إلى اليسار وامش حوالى مئة ياردة سوف تجد موقف (باص) يأخذك إلى المكان الذى تريد بعد أن تدفع كذا من النقود .

قلت : أريد (الأندركراوند)

قال: إنه بعيد ويجب أن تسير حوالى نصف الميل أو اكثر .

قلت : أستعمل الباص , وأشكرك .

كان يتحدث معى بهدوء وكان يتكلم بوضوح ويكرر الكلمة مرتين فقد أحس بأننى لا أتمكن من ملاحقة حديثه . .

وقد أحب الشعب الانكليزى الشرطة وتفانى الشرطى فى خدمة هذا الشعب وقضاء حاجاته . فإذا ضاع طفل يسارع إلى الشرطى . . فيأخذه إلى داره بالسيارة أو يتصل بذويه بالهاتف . وكم هى الغرائب والطرائف التى تحدث للشرطة ومن أطرفها : أن سيدة عجوزاً لها محل (غسيل وكوى) شكت إلى شرطى فى المحلة كثرة الجرذان . وفى الصباح وجدت قطة فى المحل, فقد أدخلها فى الكوة التى يضع أصحاب الملابس الوسخة ملابسهم فيها بعد أن يكتبوا عليها أسماءهم عندما يجدونها قد أغلقت الدكان . لم أجد ثقة بالشرطى وعلاقته بالناس أكثر من ثقة بريطانيا بالشعب وثقة الشعب بالشرطى . إنه يحس بأنه يخدم شعبه ويحرص

على راحته ويخدمه بكل إخلاص ويحرص على راحة الشعب والدفاع عنه ضد الانحراف واللصوص ويحس أفراده بكل احترام وتقدير .

ففى أيام عيد الميلاد تنهال الهدايا الرمزية عليه حبا وتشجيعاً ومبادلة الحب والثقة حتى قيل إن جميع مشكلات الشعب يحلها الشرطى .

كانت مفاجأة لى أن أجد الانكليزى يحافظ على حرية الآخرين من الموظف فى البريد ، إلى موظف جوازات السفر والكمارك كلهم يعاملك بثقة واحترام حتى تشك فى أن هذه المعاملة الحسنة لك . فقد اعتدنا على أمور فى أوطاننا لم نجدها فى بلاد العدو المستعمر الغاشم .

سفرة الخارج والداخل :

دعنا نحدد معنى الدراسة فى الخارج بعد هذه السفرة الطويلة . فالسفر خارج الوطن العربى سفرة خارجية كما ذكرت،أما سفرة الوطن العربى فأعدها سفرة داخلية .

فلنبدأ بالدراسة فى الخارج للحصول على الدكتوراة . .
ذهبت إلى بريطانية سنة ١٩٥٣ .

مررت فى سفرتى بعدة أقطار ومدن كبيرة . فقد سافرت بالقطار عن طريق الموصل – تل كوجك إلى استانبول ومن استانبول أخذت بطاقة سفر إلى مارسليا فى فرنسة وكنت أنوى أن آخذ القطار منها إلى باريس فلندن .

فى الباخرة وجدت جماعة من أهل العراق،وياليتنى ماوجدتهم . فقد كنت أحس بالوحدة والغربة فى الباخرة وكانوا ينامون على ظهر الباخرة فأحسست بالراحة والرضا لأنهم من بلدى وقضيت معهم السفرة من استانبول حتى نابل . وكانوا متآلفين فألفتهم وأحببت منهم نفرا . لذلك عزمت على صحبتهم وتركت طريقى الأول لأسافر معهم . وظهرت بوادر

سفرتهم فى أثينا عندما وجدت بعضهم يريد المتع الرخيصة بل الشذوذ الجنسى وتأكد هذا الاكتشاف متأخرا فى نابولى .

فقلت لهم:هذا فراق بينى وبينكم . . أتتركون رؤية حياة الشعوب المتحضرة والفرجة على المتاحف والآثار ومواطن الحضارة إلى متعة مؤقتة . . رخيصة تافهة ؟

قال أحدهم :
أما شبعت من الدراسة ؟ !

مساكين أكثر أبناء أمتنا . يضيعون أموالهم وصحتهم وقواهم هدرا دون أن يغذوا عقولهم ويزيدوا من ثقافتهم وسعة اطلاعهم ومعرفتهم . الغربى قبل أن يسافر يعرف أسماء المتاحف والآثار ودور المسرح ومنهم من يشد الرحال من بلد إلى بلد لمشاهدة أوبرا أو رواية تعرض فى بلد آخر أو الاستماع إلى فرقة موسيقية . . يمكنك أن تجد الفارق واضحا بين إعلانات أصحاب شركات السفر . فلى أى شيء يدعونك فى الغرب . . إنها ميزان واضح للعب برغبات الأمة . . الغربى يعلن عن أماكن صنع التحف ومعارض الصور والصناعات الشعبية ودور الموسيقى . وفى الشرق يعلن عن أمور معروفة وقد لا يعلن وإنما يذكر الأماكن التى ألفها أبناء أمتنا . يذهب الشرقى للخمور ولعب القمار وغيرها من لعب فيقتل فى الإنسان إحساسه الذوقى المرهف والإنسانى الرقيق . ثم إنه يفسد من حوله بالعطايا والهبات غير الطبيعية والتى كثيرا ماتضحك هؤلاء وتسخر منهم . يقبلون هذه الأعطيات والهبات شاكرين وفرحين من سذاجتنا ومندهشين لهذا الكرم الغريب .

كانت فرصة رائعة وحلوة أن تركت هذا الركب بالرغم من أسفى على بعض النفر فيهم . فقد كانوا من ذوى الخلق والطبيعة الفطرية الساذجة

لكنهم لا يقدرون على الفكاك منهم . فقد ارتبطوا من بغداد معهم ولابد أن يعودوا مجتمعين .

بعد أن تركتهم اشتركت فى رحلة جميلة رائعة جلت فيها بأجمل الأماكن وتمتعت بالطبيعة الجميلة فى جزيرة إيطالية . رأيت مالم أكن أتصوره فتنة وسحرا وجمالا،وقد تحدثت عن ذلك فى كتابى (وعادت الذكرى بطرائفها وغرائبها) عن هذه السفره بتفصيل . . وكم كنت أتمنى أن يزور هؤلاء الأكربولس وآثار اليونان ليتعرفوا على معالم يزورهاالسياحكل سنة ويقضون فيها أياما فى ظلال التاريخ وعبق الحضارة التى ولد فيها هوميروس وأفلاطون وأرسطو . إن قول أحدهم : أما شبعت من الدراسة ؟ أعطانى الفكرة الواضحة عن جهل هذا وأمثاله وسذاجته وغفلته . . وحيوانيته الكامنة فى جسمه .

مررت بروما بعد أن جلت فى ربوعها . إنها متحف بكثرة آثارها وتعدد نوافيرها . وبعد متعة روحية أخذت القطار نحو باريس وتمت فيها بعض الأيام وجلت فى متاحفها وتمتعت بمشاهدة روائع الفن وشاهدت بعض مسارحها ثم سافرت إلى لندن فوصلت إلى محطة فكتوريا الشهيرة .

أول مظهر يحس به الغريب فى لندن الثقة بالناس واحترامهم لك فى مقابل ذلك وهما قاعدة الحياة العامة فى هذه البلاد . يثق بك ولايشك فى قولك ويحترمك ويقدرك إنسانا وإن لم تكن قد رأيته من قبل .

فبعد أن سجلت اسمى فى الجامعة وأخذت بطاقة طالب . . أرسلت إلىّ مديرية التسجيل رسالة ترجونى أن أكمل الوثائق التى تحتاجها خلال ثلاثة شهور . .

يا الله . . أصبح طالبا وأستفيد من المكتبة والمطعم والدراسة ومميزات الطالب وأنا لم أكمل الوثائق فى حين أننى أكملت كل شىء فى مصر . . ولم

تكتب لى جامعة القاهرة حتى رسالة واحدة تشعرنى بقبول الوثائق ؟ .

هذا فارق حضارى ضاع فى الشرق للأسف الشديد . وظهر فى الغرب . اعتمدت الجامعة على قولى وماقدمت لها من أوراق ناقصة . . أنها ثقة عجيبة وغربية لم نحلم بها فى الأمانى فى الشرق العربى .

كم هى تعقيدات التسجيل فى مصر وكم وثيقة مصدقة . . وما عدد الأختام والتواقيع التى تملأ الوثائق وعدد الطوابع التى تلصق فيها . . وبعد كل ذلك ترى بعض الموظفين يقول لك هنا ناقص ختم أو أن التوقيع غير واضح . . بكبرياء مفتعل ويرفض الطلب دون أن يعاون الطالب فى أهم أعماله واختصاصاته . . أو يرشده إلى سواء السبيل .

هل أنسى مقابلة القنصل العراقى فى استانبول الأولى وكبرياءه الكاذب وعجرفته المزيفه وادعاءه المختلق ونفخته الهوائية لأنى أردت منه أن يتفضل بالمصادقة على وثيقة عراقية كاملة الأختام والطوابع والتواقيع بعد أن وضعت باللغة التركية وختمت بخاتم اتحاد طلاب تركية ؟

فرفض بجفاء مموقت وقال :

ليس هذا شغلى أو عملى . . ولو ثبت على قوله لاحترمته كل الاحترام لكنه تضاءل واضمحل عندما علم بأن لى صلة بقريب السفير وأخذ يتوسل لى وأصبحت من أصحاب الألقاب ومن ذوى المقامات وقدم لى المشروب الذى تركته فى مكانه ولم أشربه ، وكان عذره انه لم يعرفنى .

هل عين ليخدم من يعرف ويسهل أمور أصحاب النفوذ؟

ألم يأخذ راتبه ومخصصاته الوفيرة من خزانة الدولة ليعيش فى خير عيش ثم يبخل بخدماته على أبناء الشعب؟

إن كثيراً من موظفى السفارات العرب فى البلاد الأجنبية يرى الوظيفة تشريفا له وميزة خاصة ، لذلك لايعرف أكثرهم واجبه إلا فى مصالحه وفى

تثبيت وظيفته بالزلفى بالرسائل والهدايا والبرقيات التى يرسلها للمسؤولين .. ذلة وكذبا ونفاقا . وللأسف أكثرهم يصدق بالمديح ويطرب له ويريده ويشجع عليه .

شغلوا أنفسهم بكل شىء إلا خدمة المحتاج ومساعدة المضطر . إن الذليل الذى تربى فى الهوان هو الذى يلتذ بإذلال الآخرين . ومن عاش فى العبودية كيف يعطى الحرية ؟

الدراسة المرهقة فى لندن :

فى لندن وطنت نفسى على الدراسة المتواصلة . وكانت أهم قاعدة لى هى اتقان اللغة الانكليزية .

سجلت نفسى فى ثلاثة معاهد .

الأول لتعلم اللغة الانكليزية،وكنت آخذ فيه ساعتين كل يوم .
الثانى لتعلم النطق الانكليزى،وكنت آخذ ساعة واحدة مركزة فى الأسبوع .

وبذلك أتيح لى الاختلاط بالطلاب الانكليز لفهم اللهجة الانكليزية والتعرف على المستوى اللغوى لهم .

وبعد ذلك سجلت فى المعهد البريطانى وبدأت آخذ دروسا متعددة كل يوم إضافة إلى التعرف على الحياة الفكرية والفنية والاجتماعية التى يقدمها المعهد للطلاب الأجانب .

تعرفت على الأدب الانكليزى بالذهاب إلى المسارح المتعددة ودراسة النصوص الشعرية وبخاصة إذا كان المسرح يعرض روايات عالية المستوى من روايات شكسبير . وكان مدرس اللغة الانكليزية يذكر أهم الروايات التى تمثل على المسرح أو تعرض فى ذلك الشهر فى دور السينما .

كان عمل مرهقا . فأنا أواصل الليل بالنهار لدراسة اللغة وكتابة فصول الرسالة وقراءة المراجع المتعددة ومصادر البحث المتنوعة . وكان يشرف على رسالتى فى أول دخولى الجامعة مشرف لا يريد أن يفهم المجرى العلمى لرسالتى. ووجود مشرف مؤقت لا يفهم ما أريد ولا يحاول أن يفهم ما أكتب أخر عمل الجامعى حتى فتحت أمامى آفاق مشرف جديد أخذ يعمل بصورة مستمرة وبعلمه وفكره معى فدفعنى إلى السير بسرعة وثقة ونشاط .

كان المشرف المؤقت متحاملا على مؤرخى العرب الذين أرخوا للفترة التى أكتب فيها ولا يرضى الاستشهاد بالكتاب الأمريكين والغربيين ولا يرضى إلا بكتاب الانكليز ومؤرخيهم . ورب ضارة نافعة . فاضطررت لدراسة ما كتب عن العراق فى هذه الفترة وصارت عندى بعض الكتب النادرة باللغة الإنكليزية .

موضوع الرسالة قائم على قاعدة كبيرة هى السياسة وأثرها فى الشعر العربى فى العراق ، وقاعدة مساندة هى المجتمع وأثره فى الشعر . فهى من التاريخ العربى المعاصر والحديث ، لذلك كان الموضوع حساسا ودقيقا ومؤثرا .

ولما عاد الأستاذ المشرف فرجت الكربة بعد شهور صعبة . وقد استفدت فائدة كبيرة بأن بعض الأساتذة الانكليز يجانب الصدق والصواب ولا يحب أن يسمع الحقيقة إذا كانت ضد الانكليز. ولا ألومه فى ذلك وبخاصة أن الحقيقة قائمة على نصوص وشواهد لا يمكن أن يكذبها صاحب الرأى الحر والبحث العلمى المجرد .

ساءلت نفسى : هل هذا الأستاذ تأثر بنا وأصبح شديد الحساسية نحو ما يكتب عن وطنه لأنه شديد العناية بجزء من الوطن العربى ؟ وقالها بصراحة فى جريدة (التايمس) وأثار عليه نواب البرلمان فردوا عليه .

كان أستاذى الذى اتفقت معه من بغداد (ألفردكيوم) . وهو قس ، ومثال للطيبة والخلق الرضى وقد خدم الإسلام والعرب عندما ترجم السيرة النبوية إلى اللغة الانكليزية وأسهم فى كتاب (تراث الاسلام) فى طبعته الأولى وكتب كتابا عن الإسلام . ولما أحس بالمشكلة حلها بأن عهد بالإشراف إلى الأستاذ داوود كاون لأنه سوف يترك الجامعة أستاذاً فى إحدى جامعات أمريكا .

حاول مساعده إغرائى بأن أعين محاضراً فى الجامعة لأنه سيكون هو رئيس القسم . . وأن القسم بحاجة إلىّ ، وأنه يثق بعلمى وبحثى . لكن تجريبتى معه لم تشجعنى على العرض ولأنى جئت فى مهمة واحدة هى الحصول على الدكتوراة ، وقبولى العمل فى الجامعة معناه أن أتأخر فى لندن عن زوجتى وأولادى الذين يزداد شوقى إليهم كل يوم ، ورغبة فى العودة إلى العراق لخدمته ورد جميله على . وفضلت المصلحة العامة على رغبتى الشخصية . وعندما أكون عضواً فى هيئة التدريس فى جامعة لندن سوف ينظر إلى أبناء العرب نظرة عالية لشعورهم بالنقص أمام كل انكليزى استعمر بلادهم وأذل أرضهم . وتلك طبيعة الأمم ، تنظر للغالب نظرة عليا . . ولكن لم أكترث بهذا . كانت حصيلة لندن إضافة إلى الدكتوراة مجموعة شعرية طبعتها الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة ثانية سميتها (لهاث الحياة) . فقد عانيت من شدتها وبأسائها الأمرين وكنت أجد فى نظم الشعر تسلية وعزاء، كما كنت أكتب بعض المذكرات باللغة العربية لأحس بأنى مازلت قادراً على الكتابة باللغة العربية بعد أن غمرتنى اللغة الانكليزية وحياة الانجليز وحضارة الانكليز ومجتمعهم وملأت حياتى ، ولا أجد فكاكاً من هذا المحيط إلا بالكتابة بالعربية . وأصبحت مذكراتى مطبوعة بين يدى القارىء وفيها آلام النفس وغربتها وسفرى ما بين بغداد ولندن . . إنها خطرات صادقة ومذكرات واضحة لعواطف شاب ملتهب العاطفة صادق فى مشاعره يعمر قلبه بحب البشر وما داخل قلبه الحسد لأى

سبب من الأسباب وما عرف الحقد حتى على أولئك الذين أساؤا إليه .
وفى كل يوم يقول سامحهم الله وهداهم إلى الخير لأنه يؤمن بأن الحب يطهر النفس وأن الود الصادق يدخل الاطمئنان إلى القلب ، وما عرف الطمع فقد أعطاه الله خير ما أعطى وسخر من الحساد وأصحاب الحقد والجشع واختلق لهم الأعذار مرددا قول الرسول الكريم :

(خير الناس أعذرهم للناس)

أجل كنت أختلق الأعذار لكل مسيء إلى وكل إنسان لا يريد الخير للبشرية ، ففى ذلك راحة النفس .

كانت جامعة لندن باعثا فكريا لى وحضاريا لروحى وكانت حياة المجتمع الحضارى من أهم العوامل المؤثرة فى تطورى الفكرى وصدقى العلمى . ففى الجامعة تعلمت أصول البحث العلمى المحايد وأساليب الدراسة المتقنة .

كنت أتمنى أن أحصل على الدكتوراة من القاهرة بعد أن حصلت على الماجستير من الإسكندرية . . وكانت أوراقى كاملة فى القاهرة .

بعد التحدى الذى قوبلت به فى بغداد أرسلت بطلبى إلى لندن وأكسفورد وكامبردج وأجابتنى الجامعات الانكليزية ، وسكتت جامعة القاهرة .

فسافرت إلى لندن وواليت الرسائل إلى القاهرة . . لأنى كنت شديد الخوف وعميق الهيبة من جامعة لندن لغة وفكرا وحضارة .

فما ردت على القاهرة برغم مرور سنتين وأنا أخب فى كتابة الرسالة .
ولما انتهيت من الكتابة وطبع الرسالة وتجليدها وأنا فى الطريق لتسليم النسخ إلى مسجل الجامعة جاءت المعجزة الكبرى برسالة من جامعة القاهرة تتعطف على وتتلطف فى قبولى طالبا فى الدكتوراة ، وعـدت السنتين

الضائعتين سنة واحدة فى (أسلوبها الجامعى) ويجب أن أقضى سنة أخرى حتى يحق لى الحصول على الدكتوراة .

بخ . بخ يا جامعة القاهرة .

هذه هى أمتنا . كم أضاعت من وقت؟

وكم أهدرت من قوى الإبداع ومقومات الفكر الأصيل لأنها ما تزال تسير بأسلوب قديم ونهج عتيق .. أكل الدهر عليه وشرب كل طعام العالم ومياه البحار

كل شئ معقد فى عالمنا العربى خاضع للشعور بالنقص وعدم الثقة وإظهار العنتريات الفارغة والفروسيات الكاذبة .

المظاهر والتعقيد وحب الذات والشك فى الآخرين من مظاهر التخلف العميقة فى النفوس . فالموظف لايثق بزميله ولا برئيسه ولابمن يعاونه فى عمله . الشك وسوء الظن والاتهام هى القاعدة.واشتهر القول (إن سوء الظن من حسن الفطن) . المدرس لا يثق بطلابه،ومتى وثق بهم عد ضعيفا . والمشترى لايثق بالبائع والا عد مغفلا . إنها حلقة متصلة وقوية الرباط فى مجتمعنا سداها ضياع الثقة ولحمتها الشك فى كل شىء .

وتتوغل فى بعضهم حتى يشك بنفسه .. إنه المجتمع الذى ابتلى بوافدات كثيرة خلقت منه الشك وسوء الظن .

عندما كنت فى الإسكندرية تقدمت بعنوان الرسالة لأستاذى المشرف وقد كان رحمه الله رئيسا للقسم وعميدا .. فقدم العنوان إلى مجلس القسم وبعد الموافقة والمناقشة التى لا بد منها حسم الأمر لأن للمشرف سيطرة إدارية ثم أرسل العنوان إلى مجلس الكلية . وبعد الموافقة ذهب إلى الجامعة ولا أعرف ماذا جرى له ثم عاد إلى الكلية .

إنه وقت ضائع أصله الشك وعدم الثقة بالأستاذ والكلية ومجلسها .

وفى لندن اتفقت مع أستاذى المشرف بجلسة واحدة على العنوان وسجله وأخبر الجامعة بذلك وكفى الله الباحثين شر الروتين . . ولما انتهيت من إعداد الرسالة قال لى الأستاذ المشرف :

متى تريد أن تناقش الرسالة ؟

وبهذه البساطة وبكل الوضوح رجوته التأجيل لأنى مرهق الأعصاب . أنا أحدد الوقت الذى أريد ؟ قال:عندما ترتاح عُدْ ، وحدد لى الموعد الذى تريد.إنه أعجب العجب أن يكون للطالب رأى فى وقت المناقشة . بعد أن سافرت للراحة من عناء البحث وإعادة قراءة الرسالة . عدت إليه فقال لى برقة :

هل أنت مستعد الآن ؟

قلت : نعم !

قال : هل يلائمك يوم الإثنين ؟

قلت : نعم .

وسألت : هل قرأ المناقشون الرسالة ؟ قال : نعم . عند ذهابك للاستراحة والاستجمام اتفقوا معى على الموعد . .

ذهبت إلى غرفته ولم يكن فيها غير المناقشين،وفى الغرفة إبريق للشاى وأكواب.صب لى أستاذى كوباً من الشاى ونحن نشرب جرت المناقشة بكل بساطة وبكل سهوله ويسر،ولم أجد فى المناقشة محاولة لإظهار البراعة العالية أو العنتريات الفكرية ولا إحراج فى الأسئلة ولا مباهاة فى القول . . وبعد حوالى الساعة والنصف قام أستاذى . ولما رأيته قائما قمت فصافحنى وشكرنى على الرسالة .

وخرجت من غرفته هادىء النفس مطمئن الأعصاب .

الماجستير :

أربع ساعات أو تزيد كانت مناقشة الماجستير فى جامعة الإسكندرية .
وكان عدد الحاضرين فى القاعة الكبرى كبيراً وبالرغم من أن الأساتذة الذين ناقشونى هم من خيرة الأساتذة علماً وخلقاً وفضلاً وتواضعاً فقد طال أمد ساعات النقاش . رحمهم الله وهم محمد خلف الله أحمد ومحمد طه الحاجرى ومحمد حسين فقد كان جو المناقشة مشحوناً بتوتر الأعصاب وطافحاً بالرهبة . هيمن عليه الخوف والقلق .

ولما انتهيت انهال علىّ الزملاء بالأحضان والقبلات وكأنى أخرج من معركة من معارك الحرب وقد انتصر فيها القائد الجسور وبقيت أعصابى ثائرة مضطربة مع أنى أحسنت فى العمل وكان المناقشون من أحب الأساتذة إلى نفسى وأقربهم إلى روحى وكنت أرتبط بهم بوشائج عميقة استمرت طوال حياتهم . .

غير أن للامتحان والمناقشة العلنية وأمام الجمهور رهبة فى نفسى تخلق جوّاً من التوتّر والقلق والخوف .

الدراسة الخاصة :

بدأت فى دراسات خاصة فى المسجد لدراسة اللغة العربية والفقه ولكن الأسلوب الذى سار عليه الأستاذ كان شديد الإرهاق ، فقد كان يطلب منى حفظ المتون حفظاً دون أن يشرح لى شرحاً مقنعاً . فإذا ناقشته فى الأمور قال لى إنها فوق مستواك العقلى ، فتركت الدراسة غير آسف عليها . كنت طالباً فى المدرسة فى الصف الخامس فى الابتدائية وكنت كثير الأغلاط فى القراءة . وكان يغضب ويقول : لاتلحن .

ولم أكن أعرف كلمة (اللحن) وما كان رحمه الله يعرب لى الكلمة التى أغلط فيها أو يدلنى على الصواب .

ودرست القرآن الكريم عند عدة مدرسين على الأسلوب القديم . وكنا نجلس على الحصير ويقرأ المدرس ونحن نردد مايقوله،أو كان يوجه طالبا أقدم منا لتدريسنا . والطريف أن بعض هؤلاء كان يدرسنا علامات الإعراب باللغة الفارسية (كالزبر والزير والبيش) عوضا عن الضمة والكسرة والفتحة . وكان علينا أن نحفظ ذلك غيبا أيضا . وهو إرهاق أكثر ودراسة دون فهم . وكان هؤلاء يعتمدون على الحفظ على الغيب لذلك كثيرا ما كنت أتبرم من هذه الدروس . ولما كانت هذه الدورات في الصيف فقد كنت أشتاق إلى الدراسة في المدرسة النظامية فأجلس على راحتى وعندى مكان واسع ويساعدنا المعلم على الفهم بالسبورة والطباشير . وكانت هناك فترة راحة بين الدروس لاتملكها في هذه المدرسة الأهلية القديمة إلا لقضاء حاجة . . أو شرب الماء . .

وبعض هؤلاء كان يضع القربة وفي فمها قصبة نمتص منها الماء داخل محل التدريس حتى لا نترك القاعة أو الحجرة التي ندرس فيها . وكنا نسعد سعادة غامرة عندما يرسلنا المدرس لقضاء حاجات الدار في الخارج أو يرسلنا إلى السوق لجلب (النركيلة) المعمرة من القهوة المجاورة .

ودرست القرآن على (لا لا عارف) و (ملا شهاب) وتطورت هذه الكتاتيب . وجلب لها بعض الرحلات أسوة بالمدارس من جراء تدخل المعارف . وكانت الدروس في بيوت المعلمين ثم خصصت (التكية) في بعقوبة لتعليم القرآن واقتسم المعلمان هذا البناء اللطيف الذى هدم للأسف الشديد وهو من طراز معمارى جميل ودخل الشارع العام بعد توسعة الشارع الذى يسير مع نهر خراسان .

إن ضبط التاريخ ليس من السهولة ، فقد كنا ندرس أيام العطل المدرسية بصورة عامة . وبدأت قبل دخول المدرسة الابتدائية ،وخلال الدراسة في المدارس الابتدائية درست في بعقوبة ثم الخالص (دلتاوة)

ثم منصورية الجبل (دلى عباس) ثم فى المقدادية (شهربان) وكان ذلك سببا فى خلق حالة نفسية من الاضطراب والقلق ، لأننى لا أكاد أكون صداقات وآلف المحيط حتى ننقل إلى مكان آخر من لواء ديالى .

الفصل الرابع

النبوغ والاكتشاف

الفصل الرابع

النبوغ و الاكتشاف

إن المبتكر والمكتشف الواثق من نفسه لا يفخر بما اكتشف أو يباهى بما ابتكر ، ولا سيما إذا كان صاحب نظرية جديدة فى الأدب أو الفن أو أضاف شيئا لم يسبق إليه باحث فى ميدان علمه وساحة دراسته.وقد لا يعرف أنه اكتشف جديدا أو ابتكر رأيا حديثا لأن الاكتشاف الجديد والنظرية الحديثة غالبا ما تكون جزءاً ذاتيا من فكرة فردية وحالة ذاتية يفرضها عليه العمق الروحى والفكرى . ولا يعرف ذلك إلا إذا وجد صداه فى المجتمع أو الفكر أو إذا كان له رد فعل فى الساحة الحضارية . لأن الإبداع لا يمكن فصله عن فكر الإنسان الذى يحس بأنه جزء لاصق بهذا الفكر . . ومتى ظهرت آثار هذا الرأى فى ساحته الفكرية علم أنه جاء بشىء جديد . . لذلك وجدنا كثيرا من المبدعين والمفكرين والفلاسفة لا تكشف نظرياتهم عن إبداعهم إلا بعد موتهم وأحيانا بعد قرون متى توفر للدراسة باحث أو أراد دارس أن يكشف عن إبداع أحد العلماء والأدباء والمفكرين . فنظرية العمران التى جاء بها ابن خلدون لم تعرف إلا فى العصر الحديث بعد أن توفر لها باحثون ودرسوا المقدمة فوجدوا بأن ابن خلدون جاء بشىء جديد فى علم الاجتماع . والقاضى الجرجانى ونظريته فى الملكة الشعرية والتعويل على

التأمل الباطنى الذى اخذه من عبد القاهر الجرجانى فى كتابه (دلائل الإعجاز) وشرح نظريته فى النظم وأسس كتابه على الأسلوب النفسى فكان كتابه (آراء البلاغة) من أوائل الدراسات فى علم النفس والأدب. ولم يعرف ذلك إلا فى العصر الحديث . فعبد القاهر أول ناقد عربى بحث الأسلوب العلمى النفسى فى النقد كالطرب والألفه والغربة التى عرفها العصر الحديث متأخرا .

وإذا كان لصاحب النظرية أو الرأى الجديد من يدل على أعماله أو إذا انتسب إلى مجموعة فكرية أو طائفة علمية أو شلة حضارية فسوف يشتهر علمه ويذيع صيته وبخاصة إن كان هناك من يحسن الدعاية لنفسه ومنهم من يحجله العلم والرؤية العميقة والتأمل الواسع عن نشر فضله أو ذكر إبداعه وجديده .

والمجتمع المتحضر الذى يتتبع آثار المفكرين يعرف قيمة الجديد والمبتكر بعد أن خصصت مؤسسات للاختراع فى الغرب وأصبح للعلم عيونه التى يتابع بها كل إبداع .

ومع ذلك،فالصدف أو الحظ يلعب دوره فى شهرة الإنسان المبتكر ، والظروف العامة تعمل عملها وتؤثر أثرها حتى فى الغرب . فقد منحت جائزة نوبل إلى ت س إليوت مع أن عزراباوند هو الذى صحّح له شعره وهو الذى نقح له قصيدته المشهورة (الأرض الخراب) وحذف منها ما لايراه جديرا بالبقاء .

يبدع المبدع دون أن يحس المجتمع به إلا إذا كان متطرفا فى الرأى ثائرا فى قوله موغلا فى التطرف والإثارة.فقد أرسلت مقالاً إلى مجلة (العربى) بعنوان (تجديد الرصافى) ونشرته المجلة بعنوان (شذوذ الرصافى) فأحدث ضجة لأن العنوان كان مثيرا.ولما غيرت العنوان لم يلتفت أى باحث إلى الموضوع لأنى أعدته إلى (تجديد الرصافى) وطبع فى كتابى (فى الأدب

العربي،بحوث ومقالات نقدية) فقد صدم الساحة الأدبية بالعنوان فقط . حتى ثار على الأدباء وأصدر أحدهم كتاباً كله شتائم وسباب . رحمه الله . فقد اعتذر قبلَ موته ولكن ترك وراءه أثراً يدل على عقله وفكره . ولولا العنوان المثير الذى وضعته المجلة لمر المقال بكل هدوء ولم يلتفت إليه باحث .

فالمبدع إذا لم يكن وراءه جماعة تنشر رأيه وجمع يتبنى نظريته وحزب سياسى يسند قوله وينشر فكره وتحلق المؤسسات منه شيئا كبيراً فلن يسمع به أحد أو يصبح رائداً،لأن الجماعة أو النادى أو الحزب يريد أن يرتفع بارتفاع أسماء أعضائه وشعرائه وكتابه ويشهر أسماءهم وينشر صيتهم .

فكم من إمام فى الفكر الإسلامى لم يعرف إلا بعد أن تبنّت آراءه جماعة وتحزبت فئة أو دولة أو سلطان لنشر فكره وفقهه .

وهل انتشرت المسيحية إلا بعد أن تبناها الملوك ؟!

وهناك مراكز عامة للشهرة . فالعواصم تكون بؤرة الشهرة ونشر إسم المبدع ، فشاعر فى بغداد أشهر من شاعر الديوانية والنجف . وشاعر القاهرة أشهر من شاعر بغداد ، وشاعر لندن أشهر من شعراء العالم الثالث وباريس تدفع بالكتاب إلى الشهرة فجاء إليها همينغواى فاشتهر وسافر إليوت إلى انكلترا فطار صيته .

رائد الأدب :

إن ما قمت به من جديد لم يصحبه الدوى والدعاية ، فقد كانت آرائى هادئة فى كتبى،ونظرياتى رابضة فى طيات ما نشرت . ومتى أتيح لها باحث سوف يخرجها من السكون والتواضع إلى الضوء الساطع . صحيح أن خطوط علمى الجديدة معروفة وأسلوب بحثى واضح كل الوضوح عند المفكرين والكتاب وطلاب العلم الذين جاءوا بعدى ولكن المعاصرة

حجاب .. بل إن أحد الزملاء أخذ كثيرا من إنتاجي واستفاد منه ولم يذكر حتى اسم كتبي ضمن المراجع والمصادر التي استفاد منها . سيأتي الوقت الذي تعرف فيه جدة أبحاثي وريادة فكري عندما يقف ناقد نفسه فيدرسها ويعرف مقدار أثري في المعاصرين. وكتبي أول لبنة في البحوث الجامعية ولكن لم يتح لها باحث أو دولة أو ناد ينشرها. وكم من أعلام حرموا نصيبهم المقدور ومن شهرة طارت بعيدة عنهم كل البعد. فالخيام اشتهر بعد أن ترجمت رباعياته إلى الانكليزية على يدي الأديب (فتزجرالد) وأصبح على لسان كل إنسان مع أن الرجل كان عالما من رواد العلم وباحثا له نظرياته الكثيرة التي واكبت الحضارة الإسلامية. وهذا كافور الإخشيدي من أحسن حكام مصر وأقدرهم على إدارتها وقد رضي بلقب أستاذ ولم يلقب بالسلطان . وهذا (قراقوش) وهو من خير من ساس وقاد الجيوش وبنى العمارة في مصر لكن سمعته ملطخة بالوحل لأن (ابن مماتي) كتب عنه (الفاشوش في حكم قراقوش) وأظهره بمظهر الأحمق التافه. وصدق الناس هذه الأقاويل وهذا ميكيافيلي وآراؤه السيئة في الحكم طار صيته مع أن كتابه نموذج للانتهازية وسوء الخلق الرديء . . لأن أحد الملوك قد تبناه.

وإذا تتبعنا الشهرة التي حصل عليها بعض الناس لوجدناها كالطبل صوتا ومثل بطنه خواء. فالشهرة ونشر الإبداع الفكري لابد لها من مسببات وإعلان مستمر دائم. وضعت القواعد الأولى للأدب العربي الحديث والنقد النفسي وتاريخ الأدب في العراق في كتبي وسبقت الكثير من الباحثين والدارسين في بحوثي العلمية والجامعية مثل :

١ ـ الشعر العراقي في القرن التاسع ، خصائصه وأهدافه . العراق .
٢ ـ والشعر العراقي الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية .
٣ ـ وفي الأدب العربي الحديث : بحوث ومقالات نقدية .

٤ ــ وتطور الشعر الحديث: بواعثه النفسية وجذوره الفكرية
٥ ــ وأثر الأدب العربي في مسرحي الأدب الغربي

وهي وغيرها من كتبي الكثيرة الرائدة في حقلها إذ لم يسبقها في نهجها رسائل علمية في هذا المضمار سواء في مصر أو أوربا — في الدكتوراه أو الماجستير حسب علمي، مع وجود دراسات عامة قبلي لم تسر في الأسلوب العلمي المنظم وتضع القواعد الحديثة للدراسة المنهجية وتمهد الدراسة للبحث بأسلوب علمي منظم. وأحسب أنني أول من تبنى في العراق دراسة النقد النفسي في كتابي (في الأدب العربي الحديث) و (قول في النقد وحداثة الأدب). وفي كتبي بواكير رائدة لكثير من الآراء التي أصبحت منتشرة بين المثقفين لأني درست عددا كبيرا من الطلاب الذين أخذوا مركز الصدارة في الحياة الأدبية والفكرية وأسعدوني عندما أصبحت آرائي جزءاً من فكرهم دون أن يحسوا بأنني أول من قلت هذه الآراء والنظريات. فقد وضعت عدة قواعد وأرخت جذور الأدب مما لم يسبق إليه باحث.

نظرياتي الجديدة :

أشرت في كتابي (التجديد في الشعر الحديث: بواعثه النفسية وجذوره الفكرية) إلى نظريتين مهمتين في تاريخ الأدب الحديث في العراق والعالم العربي.

الأولى : أثر القبح في الأدب والقلق في الإبداع وبرهنت على ذلك بالأثر النفسي في الإنتاج الفني للشعراء وتوجيه علم النفس في إبراز الظواهر النفسية والفنية في إبداع الشاعر العربي بصفة عامة.

الثانية : الوثنية وأثرها في الإبداع في العالم العربي. فقد ظهر لي أن الشعراء في العصر الحديث يعيشون في دوامة الوثنية الشعرية، وأصبحت القاعدة العامة لكل الشعراء والمبدعين في الوطن العربي، واتخذوا من

الزعماء والرؤساء أصناماً وآلهة جديدة وأوثاناً حديثة يقيمون لها الشعائر الأدبية ويحرقون لها البخور الشعرى وضاعوا فى خدمة هذه الوثنية بفكرهم وشخصياتهم وأصبحوا جزءاً من الوثن الكبير والصنم الشهير بشعرهم وأدبهم، وصدقوا الصنم الشعرى والوثن الأدبى الذى خلقوه بأنفسهم والأمثلة كثيرة، وقد ذكرت بعضها فى كتابى (التجديد فى الشعر الحديث: بواعثه النفسية وجذوره الفكرية).

ومن الأمور الجديدة القديمة التى ماالتفت إليها الباحثون الخلط بين فترة الدولة العثمانية التى انتهت بالدستور العثمانى المعلن فى ١٩٠٨ ودور الأتراك الاتحاديين الذى قلبوا ظهر المجن للعرب. وجاء الباحثون فخلطوا بين العثمانيين والتتريك، وهوجم الأتراك على أنهم العثمانيون، وعد الباحثون العثمانيين هم الأتراك. ولا شك فى أن الباحث السطحى لن يرى فرقاً كبيراً مع أن الحياة الشرقية والمسألة الشرقية قامت على هذا الاختلاف، وفى مظلته هدمت الدولة العثمانية وانتشر الاستعمار الغربى فى الوطن العربى وهيمن الغرب على المقدرات السياسية والاقتصادية والفكرية للوطن العربى كله. وكان من جراء الخلط بين العهدين ظهور نتائج مضطربة وأحكام غير صحيحة فى تاريخ الشرق العربى الإسلامى وعدم الفهم لبعض الأحداث التى جرت فى عالمنا الفكرى الأدبى والسياسى.

فالدولة العثمانية كانت تنظر بدون تفاوت فى النظرة، إلى العالم العربى نظرة خاصة وتحرص عليه كل الحرص لأن العرب أمة الرسول العربى التى تدين بدينه الدولة العثمانية وهم جزء مفضل من العالم الإسلامى وكانت للعرب مكانة خاصة فى الإدارة العامة وتعيين الولاة واختيارهم، كما كان للعرب احترام واضح فى تفكير هذه الدولة ونظرتها إلى الضباط العرب الذين كانوا ضمن الجيش العثمانى. وقد أوضحت ذلك فى كتابى (الاشتراكية والقومية) ولما أعلنت جمعية الاتحاد والترقى مبادءها اختلفت

نظرتها إلى الأمة العربية وبالتالى إلى الضباط العرب واللغة العربية وأخذت تنظر اليهم نظرة طورانية قومية وورثت إن الأتراك طبقة خاصة أعلى من أية أمة فى إطار الدولة العثمانية .

فارادت تتريك العرب والشعوب التى تحكمها والأمم غير التركية التى تسيطر عليها بعد أن ورثت الدولة العثمانية المسلمة .

وبذلك وضعت حداً بين العثمانية المسلمة والتركية الطورانية المتطرفة . وما زال بعض الباحثين لا يفرقون بينهما .

ولعل أول من فرق فى كتبه بين الأدب الصناعى والإبداع . فإن الشاعر أو الأديب أو الفنان بصورة عامة يجب أن يكون صانعا ماهرا حتى يكون مبدعا لأن الصناعة المحكمة فى الأدب يجب أن تتسم بالأسلوب الجيد والعبارة الممتازة والفكر العالى والمعنى الدقيق مع الحفاظ على قواعد اللغة وصرفها واتقان علومها وبعد ذلك يأتى الجيد المبدع فى الإنتاج الفنى .

إن المبدع هو الذى يأتى بشىء يفيد الأدب ويطوره ويضيف إليه إضافة جديدة لا يعرفها الأدب ولم يألفها الشعر وجهلها الفكر من قبل . . وكل مبدع يفيد فى إبداعه فائدة جديدة بإضافته الممتازة الواضحة سواء كانت فى المعانى أو فى استعمال الكلمات أو فى طريقة المعالجة الفنية . . وليس كل صانع ماهر مبدعا .

الفكر العربى والثورة الفرنسية :

ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إننى أول من تنبه إلى أثر الفكر العربى والإسلامى فى الثورة الفرنسية وقلت هذا بكل هدوء وتواضع لأنى لا أحب التهريج وهى نظرية تحتاج إلى براهين كثيرة أحسست فيها بالأثر غير المباشر وعسى أن يبرهن على الأثر المباشر من يتقن اللغة الفرنسية ويعرف آدابها وتاريخها معرفة عميقة .

إن ديدرو ومنتسكيو وفولتير قرأوا الأدب العربي والفكر الإسلامي وتأثروا به لأنهم ردوا عليه وهاجموا الإسلام وسخروا من الرسول الكريم ومن القرآن الكريم. ولابد لمن يريد أن يهاجم أن يقرأ وأن يتفهم ثم يهضم وبلا شعور يتأثر المفكر العميق النظر بما يقرأ من الأمور السليمة والآراء الصحيحة التي غيرت تاريخ البشرية وبدلت طراز حياتها وفكرها.

وقد درس هؤلاء حرية النقاش التي أثارها علماء الكلام، والنقاش الذي كان يدور بين قادة الفكر الإسلامي في مختلف العصور بعد الانقسام الفكرى في الفقه الإسلامي والنظرات المتعددة التي جاء بها المناطقة وأعداء الدين الإسلامي والشعوبيون الذين يكرهون العرب.

إن النقاش الحر الذي تولد من اختلاف وجهات النظر ظهر واضحا في تقليد الفكر الإسلامي وهجاء الشرق أسلوبا ووعاء أخفوا في طياته أفكارهم التي وقفت ضد الملكية ونظامها وضد رجال الدين الذين تسلطوا على الشعوب واستذلوها ورأوا سماحة الدين الإسلامي وحرية المسلم في النقاش والحوار. فقد كتب فولتير (زاديك) وهو اسم (صادق) العربي وحكايات من الشرق وانتشرت بينهم حرية الرأي التي وجدت عند المسلمين.

ولقد ألقيت محاضرة في البحرين وأعدت تلاوتها في مجمع اللغة العربية بالقاهرة والإمارات العربية والطايف وفي ومانجستر أحاول فيها أن أبعث الفكرة وأنبه طلاب العلم لدراسة هذه النظرية التي أراها ضرورة مؤثرة في الغرب من اثر حضارتنا غير المنظورة في فكر الغرب وأتمنى أن يكمل هذا البحث غيري فيضيف إليه الأفكار التي لم أستطع الوصول إليها لحاجة البحث إلى الشواهد العلمية والنصوص المتعددة وهي متوفرة بكثرة في أدب فرنسا بالدرجة الأولى ولدى كتاب الغرب بصورة عامة.

وبالبحث الدقيق الواعي والفهم العميق للتواصل سيجد الباحث أمورا كثيرة متى وقف نفسه على إعداد رسالة علمية أو كتب كتابا جادا متتبعا

كتابات علماء الغرب مثل السير (هملتن كب) و (اوليرى) و(سيكردهونكه) و (كوستاف لوبون) و (كبريللي) و (ريزيتانو) ومن القدماء (فكتورهيكو) و (شلر) و (بايرون) و (وردزويرث) و(كولرج) واخيرا الاستاذ زميلى (بوزورث) وأستاذنا (آربرى) .

إن اعتراف القوى الغالب بالمغلوب ليس سهلا فيجب انتزاعه انتزاعاً بالرغم من أن بعض الباحثين تحدث بإنصاف وعدل . . ويجب أن نتتبع ذلك باستمرار وإيمان صادق حتى نصل إلى ما نريد من النتائج والأحكام الواضحة .

بين مصر والعراق :

أما بالنسبة لى وما قدمته . . فإنى إنسان معاصر لا مثالى من المفكرين. وفى العراق يختلف الأمر، فإن كل باحث ولو كان ناشئا ، يظن أنه الرائد الأول والمبدع الأول وكل الناس أصغر من أن يدرسهم، بعكس الحياة الفكرية فى مصر التى تقدر الفكر المتقدم وتعطى أهمية للسابق من الفضلاء وتركز على أصحاب الرأى الأوائل . . وهى فى الحق وثنية فكرية ورثتها مصر من أيام الفراعنة لكنها سلبية فيها إيجابية لبناء الحضارة الجديدة والقديمة .

فالمصرى لا يهدم وإنما يبنى شيئا جديدا. فعندما أرادت مصر إدخال العلوم الجديدة قدمت أكثر من تجربة حتى بنت دار العلوم بعد تجاربها. ولما أرادت محاكاة الغرب ومحاربة الاستعمار بنت الجامعة المصرية. وفى العراق هدمت أول جامعة أراد الأحرار بناءها وتألبوا عليها وقضى فهمى للدرس أسفا وألما . . لأنه كان رائدا سبق عصره ، ولأنه كان مفكراً أراد أن يبنى شيئا جديدا لأمته ولكن فردية العراقى حالت دون تحقيق أمله .

هل أجد المنصف ؟ !

المعاصرة حجاب . وليس عندى انتماء لفئة أو طائفة فكرية أو تجمع سياسى أو شلة بلدانية أو تيار اقتصادى لدعم أفكارى ونشر كتبى وخلق رأى عام يؤازر أفكارى . . وأنا لا أحب أن أكون حرفا فى سطر من السطور ، أو سطراً فى صفحة من الصفحات أو كتابا فى مكتبة . أريد أن أكون علما مفردا . وقد قامت كل شهرتى على ما بذلت من وقت وما قدمت من خدمات فكرية وآراء أدبية ومن مشاركات فى حقول المعرفة العامة .

فهل سيأتى المنصف المحايد والباحث العلمى الصادق ليرى مقدار ما قدمت للفكر العربى وتاريخ الأدب وتيارات النقد ، وينصف هذا الأدب وأسلوبه الذى حاولت فيه خدمة أمتى وتعليم شعبى وبث فكرى . ولو درس أدبى الباحث الجادّ فسيتعب ولكن يربح البحث العلمى الشىء الكثير منه ومن صدقه وصبره ونتائج بحثه عندما يدرس إنتاجى الكثير .

لم أدخل نفسى فى التجمعات لأن معنى ذلك أن أجامل على حساب الحقيقة أو أسكت إذا رأيت أمراً سيئاً لأن الموازين فى العالم العربى فيها خلل واضح من جرّاء المصائب والكوارث التى أصيب بها فى حياته ومجتمعه . ولا قدرة لى على قول غير الحق وما أراه حقا . وأرى أن أصحاب المثل العالية لن تكون لهم مكانة فى مجتمع مضطرب الموازين ، ويحقق هؤلاء لأن الحياة المضطربة ليس لها قابلية على السير فى المثل السامية لأن المثل السامية بحاجة إلى هدوء اجتماعى واستقرار حضارى وفكرى يرتفع عن الصغائر .

فقدان المثل العليا :

فى مجتمع تدنت مثله واضطربت تقاليده وانحطت تصرفاته خوفا من الأذى وهلعا من التعذيب وتجنبا من الاهانة لابد للمرء من أن يفقد المثل العالية التى ورثها وعرفها والتذ بسماع ثنائها وفضائلها .

إن الرجل النبيل الذى يخشى من الهوان النفسى والذلة الروحية يتقدمه أصحاب السوء ، لأن الناس يخافون منهم فى حين يترفع الشريف عن الرد عليهم . وفى مثل هذه المجتمعات سيكون هؤلاء هم أصحاب الرأى برغم جهلهم العلمى ، أغنياء بالزلفى والنفاق والذلة حتى قال الشاعر :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فالمتلون والمنافق والهين هو الذى يقدر على مجاراة اختلاف الحياة وتنوع الحكام وتباين الآراء التى تأتى فى كل دورة اجتماعية مضطربة المثل . والنفاق قديم فى العراق ، وهو مرض ليس لنا فيه يد.ولدته الحوادث والمصائب والكوارث ووجود حكام تحكموا فى الرقاب وأبيح لهم قتل الناس وسجنهم وتعذيبهم . وعادة يكثر النفاق إذا استبد الحكام ، ويكثر فى الشعب أصحاب الزلفى عندما تكمم الألسنة وتقتل العدالة وينتشر الظلم فيلوذ الانتهازى باستبداد سيده ويحتمى بتسلط حاكم وتكثر السجون وتعمر بالأبرياء ويتقدم التافه ويختفى النابغ لأنه يعرف قيمة نفسه وتنحق النظرية الاقتصادية (العملة الرديئة تطرد العملة الجيّدة) .

إن آرائى فى الدعوة إلى الحرية ومحاربة الاستعمار والانتهازية ونقل المجتمع العربى من حالته المتردية إلى مستقبل أفضل نثرت فى كتبى بصور مختلفة،فيها إرشادات واضحة وفى سطورها رمز واضح لكل ماأردت أن أقوله ، ولن يعرفها إلا من تمرس بالفكر العميق والنظرة النافذة ، ولن يأتى هذا الإنسان بيسر وسهولة وأنا على قيد الحياة . وبرغم ما كتب عنى من دراسات ليست بالهينة أو القليلة فما سبر غور فكرى أحد .

أنا والبحث العلمى :

كتبت كتبى فى حقول المعرفة المختلفة فى تاريخ الأدب والإبداع ، ودرست المظاهر الفكرية والتيارات الحضارية التى مرت بالعراق والعالم

العربي . وكانت بعض دراساتي ذات أثر واضح في مسيرة الثقافة العامة وتاريخ الأدب . بدأت مسيرة البحث وسط كثافة بدائية لم يدخل سوحها إلا القليل ، وسهلت الصعوبات والعقبات في الحصول على المصادر المخطوطة والجرائد القديمة التي كانت بحوزة الأفراد ولا يظفر بها المرء إلا بجهود ومشقة وتوسط الأصدقاء . كأني أدخل إلى غابة مهجورة ما دخلها أحد قبل فقطعت الأشجار التي تعوق الحركة للوصول إلى الهدف ومهدت الطريق حتى أجد بغيتي من الصيد ، ورسمت خطوطها العامة ومسيرتها الواضحة . وجاء بعدي أناس وجدوا الأمور سهلة والطريق ممهدة فصف في الطريق بعض النباتات وزين الطرق وأكمل المسيرة وقلد الخطى ولم يزد إلا بعض الشوارع الفرعية وقطع بعض الأعشاب البرية في إنتاجه وفي الحقائق التي وصل إليها .

وقد سعدت بأن كنت أول الرواد في غابة العلم المتشابكة الأغصان وبأني فتحت الطريق .. وتمنيت أن يرتاد الجدد طرقا جديدة لأن ساحة الأدب والبحث العلمي في العراق ما تزال خصبة . ووضعت لهؤلاء أسماء لمواضيع جديدة وعناوين لبحوث لم تدرس ، واقترحت بعض الرسائل الجامعية ليسير في هديها الجيل الذي جاء من بعدي .. وللأسف لم يأخذ بما اقترحت أحد لصعوبة كل بحث جديد لم يعبد لأنهم استسهلوا الأمر وفاتهم طعم الجديد وحلاوة الكشف الحديث لأنهم لم يتذوقوه . إنه أسلوب أكثر طلاب العلم والبحث العلمي في العراق إذ يسلكون أسهل الطرق وأسرعها للحصول على الشهادة العالية ولو بالجراءة على التأليف والتحقيق . ومن الغريب أنهم لا يذكرون الذين سبقوهم في هذا المضمار ومن مهد لهم هذا البحث ووضع لهم مصادره ومراجعه وحصرها لهم فسهل لهم البحث ووضع الأمور سهلة بين أيديهم .

بل وجدت من يأخذ حتى الأغلاط المطبعية وينقل دون أن يتأكد

من صحة النص وصدق المصادر والمراجع .

احمد الله أن أجد فى عملى ما يستفيد منه الدارسون ، وأن جهدى لم يذهب هباء وأعد عملهم زكاة عملى الكبير الذى قضيت فيه الجهد والشباب والعمر .

ولعل من المفيد أن أشير إلى أننى أول من وضع وحدد بداية القصة فى العراق فى مقال لى . وأخذها الدارسون دون تمحيص قبل أن أكتب كتابى (الرواية فى العراق) ، وكنت مازلت فى فترة العلم . فقد ظننت الأستاذ الألوسى هو واضع أسس القصة فى (سجع القمرية) وقرأتها مخطوطة وأنا أعد لدرجة الماجستير ، فالتقط باحثون هذا الرأى دون تمحيص وحللوا الفكرة ووسعوها فى كتب لهم فى بيروت ومصر . ولا يعرف المشرفون فى غير العراق أدب العرب فى العراق . ثم صححتُ آرائى ووجدت أننى كنت متسرعا . واختلط الراى على أستاذة فاضلة أشرفت على رسالة علمية وكنا نتحدث بالموضوع فاستغربت لما أخبرتها بالحقيقة .

وفى كتابى (الشعر العراقى فى القرن التاسع) مثل هذا الأمر الذى استفاد منه باحث كنت سلمته الأطروحة بيدى ، ولكنه رحمه الله لم يذكر حتى اسم الكتاب فى أطروحته وهو الذى استفاد من كتبى ومن (الشعر العراقى الحديث) أيضا فى بحوثه .

كتب عن إنتاجى الكثير وفى أكثر من مكان فى الوطن العربى واستفاد منه طلاب البحث فى العراق ومصر وأمريكا والهند وأوربا . ولا شك فى أن هناك بعض طلاب العلم الذين لم أطلع على مؤلفاتهم الذين استفادوا من كتبى . وقد جمع بعض ما كتب عنى ووضع لأول مرة فى (من رحلة الحياة) ثم أضيف له بعض الشىء عندما صدر كتاب (شخصية يوسف عز الدين الأدبية) ، وأقول بعض لعدم القدرة على الحصر ولأنى لم أكن أعتنى بجمع ما كتب عنى فقد كنت غارقا فى أعمال متعددة ولم أكن أقدر وأنا فى أول

البحث العلمى أن يتسع إنتاجى وتكثرمؤلفاتى ويقرأها الباحثون ويكتبون عنها ويستفيدون منها بمثل هذه السعة .

إن الاهتمام كان منصبا على الإبداع،والإبداع عندى هو الشعر . فقد كتب عنى بالانكليزية وترجم منها إلى الفرنسية والإسبانية والبولونية،وفى اللغة العربية صدرت عدة دراسات.وكنت أتمنى أن تدرس آرائى فى الاجتماع والنقد والحركة الفكرية . . مع إنتاجى الشعرى .

الدكتور المقالح وعمق النقد :

آخر من كتب عنى هو الدكتور عبد العزيز المقالح ، وهو أول من وصل إلى أشياء فى النقد الحديث فى مقالة له نشرها فى جريدة (سبتمبر) العدد ٢٦٣ فى ٢٩/١٠/١٩٧٨ عندما كنت فى اليمن . وكانت المقالة على صفحة كاملة ومن عناوينها :

الدكتور يوسف عز الدين شاعر معروف وناقد يرى أن الناقد يمتلك النظرة العميقة والرؤية السليمة إلى العمل الأدبى ، هو الناقد المبدع أو المبدع الناقد .

ومنها :

معظم الأحكام التى يصدرها النقاد غير المبدعين لا تصدر عن تجربة أدبية أو معاناة حقيقية ، لذلك لا تكون دقيقة فى كشف قدرات الأعمق فى الإبداع . والرجل الناقد الشاعر انتبه إلى هذا بعد أن صدرت الطبعة الثالثة من كتابه (فى الأدب العربى الحديث) **ولم يسبقه ناقد أو باحث لفت نظره أحكامه فى الإبداع**

ومما قاله (وكان أول ما لفت انتباهى فى الكتاب النقدى المذكور الفقرة التالية من المقدمة وهى تفصح منذ وقت مبكر عن ضرورة أن يكون الناقد

أديباً مجيداً . أو بمعنى آخر أن يكون مبدعاً . والناقد الجيد هو الأديب الجيد الذى يتحول إلى النقد وهو الذى يملك النظرة العميقة والرؤية السليمة والفكر الصائب عندما يكشف جوانب الأديب الخافية المتوارة بالفن والأصالة وسداد الرأى فيساعد القارىء على الفهم ويمتعه بالتذوق لأن بين القراء من لا يريد أن يفهم . وإذا فهم تجاهل الحقيقة ولم يفصح عنها.وتتوقف سعادة الكاتب على مقدار فهم القارىء والسمو الروحى معه فى تجاربه الفنية وتقديره لنبضات روحه وفهم فلسفته) .

(**كان ذلك فى أوائل السبعينات ولم يكن الحديث عن الناقد قد أصبح مثاراً أو متداولاً كما هو عليه الآن** . حيث صارت الإشكاليات العديدة للنقد الأدبى المعاصر تتمثل فى أن كثيراً من النقاد لا علاقة لهم بالإبداع وأن معظم الأحكام التى يصدرونها إزاء الأعمال الأدبية لا تصدر عن تجربة أدبية أو معاناة حقيقية ، فضلاً عن أن المبدع الناقد يتملك على مر الأزمنة قدرات أعمق فى النظر الدقيق إلى مقومات الإبداع بغض النظر عن التطورات المنهجية .

(**وأعود مرة أخرى لكى أكرر القول إن الناقد المجيد هو المبدع الجيد وإن تلك الإشارة الصغيرة قد صارت منذ سنوات ظاهرة تتمثل فى عدد من المبدعين الذين يحاولون تأسيس تقاليد جديدة فى الكتابة النقدية تعكس التطور الذى لحق بالآداب والفنون . .**)

كم ناقد ومؤرخ درس كتبى ووجد ما وجده الدكتور عبد العزيز المقالح ؟ ومتى درست كتبى دراسة عميقة فسوف يجد الناقد المبدع من الآراء والأفكار ما لا يجده فى غير كتبى لأنها صدى المجتمع العربى الذى أعيش فيه وتسجيل حقيقى لمعاناة الفكر والأدب والفن والإنسان فى أوطاننا المسكينة التى عانت من حوادث الأيام ومن حكامها ومن أعدائها الكثير .

وفى كل كتبى فى الأدب أو النقد وحتى التحقيق وكتب الإبداع فى القصة والرواية والشعر يجد البحث أموراً واضحة تارة وأخرى تأتى فى طيات

الحديث عن الأدب أو الفن لتسجيل الواقع الذى عشناه بكل مرارته وآلامه وأحزانه .

كان رائدى التجديد فى البحث والأصالة فى الاستنتاج والصدق فى الحقائق التى توصلت إليها .

وبذلت كل جهد فى لم شمل كثير من الحقائق المتفرقة وجمعتها ونظمتها بأسلوب علمى لأتوصل إلى نتائج قد لا أرضى عنها نفسيا ولا تطابق وجهات نظرى العاطفية ولكنى ذكرتها محايداً .

إن إنتاجى جمع بين التراث الأصيل والمعاصرة المفيدة لأن الجمع بين التراث وبين الجديد من ضرورات استخراج النتائج الصادقة ومعرفة الجذور . لهذا ستبقى بحوثى زادا وموردا للتراث الحضارى والإبداع المتجدد .

قد عشت فى جيل رأى التطرف الأعمى وسعد بالاعتدال الأصيل لذلك لم أندفع فى رأى إنما أخذت من القديم خيره ، واستفدت من الجديد أحسنه فمزجت القديم بالجديد فكان باهر النتائج .

المساهمة فى المؤتمرات :

المؤتمرات التى حضرتها كثيرة فقد بدأت منذ ١٩٥٠ وهى سنه تخرجى من جامعة الإسكندرية إذ عقد المؤتمر فى الإسكندرية وكان من المشرفين عليه الملحق الثقافى العراقى عبد الله القصيبى الذى عاد إلى السعودية وسعيد فهيم الذى كان يعمل فى الجامعة العربية ومن أوائل المربين الصحفيين،فقد خدم الطلاب بمجلته (التلميذ) فضمنى إلى الوفد العراقى الذى لم يكن فيه غير عبد الله القصيبى وغيرى على ما أذكر . . وكنت أحضر عضوا ، وهو أول مؤتمر تعرفت فيه على جماعة من كبار رجال العلم والأدب ، وكانت أول مرة أجلس فيها مع الدكتور طه حسين ، ورأيت كيف يأكل على المائدة بحذق

وانتباه وبالطبع لم أقدم شيئا غير الحضور فى الاجتماعات والمساهمة فى اللجان ساكتا . . والاستفادة من العلماء الذين سبقونى .

ولكن المؤتمرات التى حضرتها بعد حصولى على الدكتوراة وانضمامى عضوا فى هيئة كلية الآداب ثم أميناً للمجمع العلمى العراقى ثم عضوا وأمينا عاما له كانت كثيرة سواء أكانت فى الوطن العربى أم خارجه بداية من العراق إلى بيروت ومصر وتونس والأردن والإمارات وانتهاء بلندن ودلهى وبكين وشنغهاى وإيطالية (روما وصقلية) وموسكووطاشقند وبرلين الشرقية وفايمار .

وأكثر المؤتمرات تخص الأدب والفكر العالمى باختلاف أماكنها ومحل انعقادها . وكنت أسهم مساهمة فعالة فى المناقشات العامة وأكتب بحثا فى المشاركة بهذا المؤتمر . . وقد جمعت أكثر ما ألقيت فى المؤتمرات ونشرته فى كتبى منها .

١ ـ فى الأدب العربى الحديث،مقالات وبحوث نقدية،طبع فى بيروت والقاهرة والرياض .

٢ ـ قضايا من الفكر العربى ، طبع فى القاهرة .

٣ ـ قول فى النقد وحداثة الأدب ، طبع فى الرياض .

٤ ـ تراثنا والمعاصرة ، طبع فى القاهرة .

إضافة إلى مؤتمرات مجمع اللغة العربية السنوية مع مؤتمرات المجمع العلمى العراقى ومجامع اللغة العربية التى عقدت فى بغداد والقاهرة ومؤتمرات بيت الحكمة فى تونس . وفى مؤتمرات المجامع يحضر عادة أعضاء المجامع .أما فى مؤتمرات كتاب آسيا وإفريقيا فيحضر عدد من أدباء العالم ومثلها مؤتمر المستشرقين وفى كل مؤتمر ألاحظ الاختلاف فى الوجوه إلا القليل الذين يحضرون أكثر من مؤتمر وحسب مكان المؤتمر والقصد الذى عقد من أجله . ولم أكن أتخلف عن مؤتمر لا يتعارض مع أعمالى الجامعية

وعملى الإدارى فى المجمع العراقى.إن المؤتمرات أتاحت لى التعرف على عدد كبير من الأدباء والمفكرين والعلماء فى مختلف الاختصاصات والاتجاهات الفكرية المتناقضة ما بين اشتراكى الفكروأسماليى الاتجاه وإسلامى العقيدة إلى قومى الرأى من عرب وأجانب،وأحسب أن لى بين مختلف أنحاء العالم أصدقاء ومعارف كثيرين وأنا من عادتى الحفاظ على الصلات الأدبية فما أتغاضى عن الرد على رسالة أو شكر مؤلف يكتب لى أو الرد على بطاقة تصلنى بمناسبة .

ولو سجلت الأسماء لكانت أعدادهم كثيرة فإن لى صلات مع أكثر بقاع العالم من الشرق إلى الغرب .

ففى المجامع عدد كبير من الأحبة لأنى عضو فى مجامع متعددة وكذلك من أساتذة الجامعات عدد لا يستهان به بحكم عملى أستاذا ومن الأدباء والشعراء جمع أعتز بهم لأنى شاعر وناقد . وفى الصحافة أعداد طيبة مازالت صلاتى بهم إضافة إلى عدد من الطلاب الأوفياء الذين أصبحت لهم الصدارة فى الحياة الفكرية والسياسية فى بلدانهم .

هذا التنوع فى الصداقات والعلاقات والمعارف من مختلف التيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية نابع من طبعى القائم على حب الناس وأن الحب والود والعلاقات الطيبة أجدى من التسلط وفرض الرأى،وإيمانى بأن كل إنسان لابد أن يكون فى أصله طيب النفس حلو الأخلاق،فكان التقدمى والرجعى والمسلم والمحافظ والعربى والانكليزى والروسى والصينى والكردى والأفغانى والهندى والتركى والإيرانى يتصلون بى لقضاء حاجاتهم العلمية وإهداء كتبهم لى وأنا أبادلهم الفكر والكتب والرسائل . وبذلك أقدم الفكر العربى والأدب الحديث لكل الأمم وكل التيارات.وآمل أن يفهم هؤلاء قضايانا من دراسة إنتاجنا وفهم أدبنا ومعرفة شعرنا وحضارتنا .

أنا لا أؤمن بالقطيعة بين بنى آدم لأن القطيعة تبتر الصلات وتقطع

العلاقات وتخلق البغضاء والحقد ، إلا إذا كان الإنسان خلق معقد النفس من جراء تجاربه المريرة وحياته المؤلمة ، وهؤلاء قلة بين بنى البشر .

وأذكر من الراحلين الذين كانت لى بهم صلة :

الدكتور طه حسين ويوسف السباعى ويوسف وهبى وأحمد رامى وصالح جودت ومحمد عبد الحليم عبد الله وعبد السلام هارون ومحمد خلف الله ومحمد عبد الغنى حسن ومحمد طه الحاجرى والسرهملتن كب والحاج جرمانوس المجرى وآربرى وألفرد كيوم ومن السويد نايبرغ ومن إيطاليا رزيتانو وغيرهم كثير ، أما الأحياء أطال الله أعمارهم فهم أكثر من أن أحصيهم فى مختلف أنحاء العالم من المفكرين والأدباء وأعضاء المجامع وقادة الرأى والفكر وأرباب الصحافة والشعراء والكتاب .

ومن أمثلة المؤتمرات التى حضرتها دون التقيد بالتسلسل التاريخى :

اسم المؤتمر	مكان انعقاده	الملاحظات والمحاضرات
١ - المؤتمر الثقافى العربى	الاسكندرية ١٩٥٠	لم أقدم شيئا
٢ - مؤتمر المستشرقين	الهند ١٩٦٤	الحياة الإدارية فى القرن التاسع عشر فى العراق
٣ - مؤتمر الكتاب العالمى	برلين وفايمر ١٩٦٥	الادب العربى والتطور الانسانى
٤ - كتاب أسيا وافريقيا	بكين وشنغهاى ١٩٦٦	١ - العلاقات الثقافية بين العرب والصين ٢ - اثر العامل الاجتماعى فى الادب العربى (فى احد المعاهد وفى شنغهاى (المرأة والادب العربى) وتطور الادب العربى فى العراق
٥ - مؤتمر أسيا وإفريقيا	طاشقند	لم أسهم الا فى النقاشات العامة
٦ - مؤتمر أدباء العرب	بغداد ١٩٦٩ والقاهرة وبيروت وغيرها	
٧ - مؤتمر مجمع اللغة العربية	القاهرة . عدة مرات	جمعت المحاضرات فى (تراثنا والمعاصرة)
٨ - مؤتمر بيت الحكمة	تونس	مساهمة فى المناقشات العلمية
٩ - مؤتمر مصطلحات العلوم الفلسفية والاجتماعية	الجامعة التونسية من ٣ — ٨ ايار ١٩٧١	مناقشة عامة فى المصطلحات المعدة للمناقشة
١٠ - مؤتمر الجزيرة العربية	الرياض ٨١ — ١٩٨٣	قدمت بحثين ١ - التعبير عن النفس فى الأمثال العربية ٢ - الدعوة الإسلامية فى مراسلات النبى (ص)
١١ - مؤتمر مؤسسة آل البيت	الأردن ٨٦ — ١٩٨٧	مساهمة فى المناقشة العامة .
١٢ - مؤتمر تعريب التعليم الجامعى	بغداد	القيت بحثين هما ١ - توحيد المصطلح العلمى ٢ - المصطلح والتراث
١٣ - مشكلات النشر الجامعى	العين ١٩٨٥	افتتحت المؤتمر بكلمة عن مشكلات النشر فى العالم العربى
١٤ - مشكلات النشر الجامعى	القاهرة	مشكلات الكتاب العربى والنشر
١٥ - مؤتمر مصطلحات علم الاجتماع والفلسفة	القاهرة ١٩٨١/٥/٣	أسهمت فى المناقشات
١٦ - مؤتمر الوحدة والتنوع	القاهرة ١٩٧٢/٥/١١	عقدته الجامعة العربية وأسهمت فى المناقشات العامة
١٧ - مؤتمر المجامع العربية	بغداد ١٩٦٥	أثر الفكر فى الأدب الحديث
١٨ - مؤتمر المجامع العربية	القاهرة	

الصحف والمجلات الذى نشرت فيها :

نُشِر إنتاجى فى كثير من الصحف والجرائد فى العراق أولا ثم مصر والوطن العربى بصورة عامة وكنت أكتب وأنشر قضايا متعددة وأشياء مختلفة ما بين شعر وقصة وتعليق أو نقد .

فقد أتيح لى أن أكتب وأنا فى المدرسة المتوسطة رداً أو أكثر فى جريدة العالم العربى سنة ١٩٣٨ التى كان يصدرها سليم حسون .. وكنت مندوبا لجريدة العراق التى يصدرها فى بغداد رزوق غنام ومساهما فى جريدة الزمان التى كان يصدرها توفيق السمعانى كما نشرت عدة قصائد فى جريدة (الاتحاد) التى يصدرها العبيدى وغيرها من جرائد بغداد التى نسيت أسماءها لبعد العهد وموت أصحابها .. لأن الجرائد فى العراق تنمو مع صاحبها وتموت،إذ لا توجد روح الاستمرار فى حياة الجرائد والمجلات التى أجدها فى مصر .

فالأهرام زاد عمرها على المئة سنة. وها هى الهلال وآخر ساعة وروزاليوسف ما تزال حية برغم ترك رؤساء التحرير لها ومجىء آخرين . وبرغم اختلاف المشرفين والمحررين فى مجلتى المصور والكواكب فقد استمر تا فى الصدور . وهذا هو الفارق بين أهل العراق وأهل مصر دائما . أهل مصر يبنون ويستمرون فى البناء ويحافظون على التراث بصدق .

ثم بدأت كتاباتى تكثر بعد الماجستير، فكتبت فى عدد من الجرائد والمجلات وتوزع إنتاجى ما بين العراق ومصر وسورية فى (العربى) — والرأى العام فى الكويت والمعرفة السورية والهلال فى القاهرة وأكتوبر القاهرية والمجلة التى كان يشرف عليها **يحيى حقى** فى القاهرة وغيرها مما لا يمكن أن أتذكره ومنها المساء فى القاهرة .

أما فى العراق فلعلى كتبت فى أكثر الجرائد بعد ١٤ تموز وفى مجلاتها كالحرية والاستقلال والجمهورية ومجلة الإذاعة والتليفزيون والأقلام وبغداد

إضافة إلى عدد من المجلات والجرائد التى أسهمت فى أصدارها أو كنت عضوا فى مؤسساتها مثل مجلة المجمع العلمى العراقى ومجلة مجمع اللغة العربية . ونشرت فى الأخبار وآخر ساعة **وأكتوبر والهلال فى مصر** .

وفى مجلة الكتاب التى أصدرتها جمعية المؤلفين والكتاب كنت أكتب **المقال الأول** وكذلك فى مجلة المعلم الجديد ومجلة الأستاذ وبعض مجلات النجف الأشرف التى احتجبت وفى الجرائد والمجلات التى تصدر فى المملكة العربية السعودية مثل الفيصل والجزيرة والمدينة المنورة وعكاظ واليوم **والمجلة العربية والشرق الأوسط والندوة وغيرها** .

ومن الصعوبة أن يجد الكاتب التواريخ والسنة لكثرة ما كتب ولبعد المسافات بين الكتابات ، يضاف إلى ذلك كله فقد جمعت أكثر هذه المقالات فى كتب متعددة وإن فاتنى منها عدد لا أعرف مقداره .

ومع ذلك فلا أ . نفسى من كتاب الصحف السيارة لأنى أفضل أن أكتب كتابا على كتابة مقال فى جريدة يذهب أثره فى اليوم التالى.فقد ألفت كتابة البحوث العلمية بمصادرها ومراجعها وحواشيها . . على الكتابة السريعة التى تتعامل مع الرأى العام .

وأكثر كتاباتى فى الجرائد تأتى من حافز الأصدقاء والأصحاب فى الجرائد نفسها . وقد عرض على أكثر من مرة أن أكتب أسبوعيا أو يوميا ولكن لست مؤهلا لذلك ، فقد أكتب عمودا فى الجمهورية وأشرف على صفحة الأدب ولكن أعمالى الكثيرة **كانت** تحول دون الاستمرار . .

وأرى ان الكتابة اليومية الناضجة أصعب من الكتابة العلمية ، لأنك يجب أن تأتى كل يوم بجديد إذا أردت احترام نفسك وتقدير القارىء ، وإن أكثر كتاب المقالة اليومية أصبحوا محترفين ومنهم من أسف وفرغ من العلم فركب موجات فكرية أو أمورا شخصية بحتة .

إن أول مساهمة لى فى الصحافة كانت كما قلت سنة ١٩٣٨ وعندى فى بغداد على الأرجح بدايات نثرى وشعرى فى هذه الفترة فى **مكتبتى** وبذلك أكون قد قضيت نصف قرن فى خدمة الحرف العربى .

أما أول مجلة أصدرتها وأنا رئيس جمعية الشبيبة العربية فلم يصدر منها غير عدد واحد . وأصدرت أول وصولى إلى بغداد مدرسا مجلة فى كلية الآداب لم يصدر منها غير ثلاثة أعداد أو عددين جعلتها ميدانا لأقلام الطلاب .

والمجلة التى أصدرتها فى الإسكندرية كانت عربية الفكرة واضحة النهج والأسلوب .

واخترت أعضاء التحرير من كل كلية ومن كل قطر عربى . وكانت المجلة التى أصدرتها فى بغداد صدى لأفكار الطلاب التى كانت متصارعة بين الفكر القومى والفكر المناهض له وكانت تمثل صراع الطلاب الفكرى **فى زمن عبد الكريم قاسم . وكان عميد الكلية إذ ذاك العلامة الجليل عبد العزيز الدورى فلما جاء الدكتورمهدى المخزومى بعد ذلك واختلف الرأى معه تركت إصدارها .**

أول مجلة :

ولما عاونت فى وزارة الإعلام كان همى الأول إصدار مجلة إذ لم تكن فى العراق مجلة أدبية تصدرها الدولة . . فاقترحت على وزير الإعلام الأستاذ عبد الكريم فرحان إصدار المجلة فقال:اصدرها أنت ونحن نشارك فى شراء أعداد منها،يقصد وزارة الإعلام .

قلت له : متى ماأوقفت الدولة المساعدة ماتت المجلة . وألفت لجنة للإشراف على المجلة وكتبت إلى جميع الأدباء والمفكرين الذين أعرفهم فى الوطن العربى وفى العراق وأعددت المواد لتكفى لعدة أعداد وصدر العدد

الأول من الأقلام ثم الثاني.ولم أستمر في وزارة الاعلام وعدت إلى المجمع العلمي . والغريب أن هيئة التحرير ، وهم من الزملاء ، لم يشكروا هذا الإنسان صاحب الفكرة في المجلة أو يذكروا جهوده.والحق يقال إن وزير الإعلام بعث إلى برسالة شكر وكان ذكر خيرا من هؤلاء الزملاء الذين كنت أظنهم أحرص من الوزير على ذكر إنسان أخرج أثرا فكريا مازال يعيش حتى اليوم .

وقد أصدرت مجلة **الكتاب** ، **عندما ألفت** جمعية الكتاب والمؤلفين ، وملحقها الندوة التي أشرف عليها جليل العطية . .

وكنت أتمنى أن أكون في بغداد لذكر تواريخ إصدار هذه المجلات والجرائد وهي موجودة في المكتبات العامة . وفي مكتبة المجمع العلمي العراقي نماذج منها .

أسماء مستعارة ؟

كتبت بأسماء مستعارة متعددة ولكن أشهرها (سمير الريف)و(يعين) وسمير الريف اتخذته اسما عندما كنت معلما في الريف العراقي وبخاصة عندما عينت في قرية (إمام عسكر) . وقد اشتهر هذا الاسم في وقته وكانت تأتي لي رسائل به إلى **بعقوبة** ونشرت عدة مقالات وقصائد شعرية في الجرائد العراقية لا سيما (العراق) و (الزمان) و(بالك) و (الاتحاد) وغيرها من الجرائد **التي لم أعد اذكرها** .

واتخاذ هذا الاسم أتاح لي التفكير في أدبي وشعري لأني لم أكن متسرعا وإنما كنت أرى رد الفعل لدى الفكر الأدبي في العراق.ولما بدأت كتاباتي تنضج كتبت اسمي الصريح وكان ذلك في مصر . ولعلي اتخذت الاسم **المستعار** تقليدا لبعض الكتاب الكبار كالأخطل الصغير وبدوي الجبل والشاعر القروي . . أو انني خشيت السلطة التي كانت تمنع الموظف من

الكتابة . . لا أذكر الدافع الأصلى لهذا الاسم المستعار الذى أصبح علماً على أذيع به قصائدى من الإذاعة وأكتب فيه كل خواطرى فى الجرائد . . وكتبت كذلك تحت توقيع (أبونزار) و (ى . ع) و (السيد) وكنت أكتب عموداً فى جريدة الجمهورية العراقية تحت اسم (يعين) وهما الحرفان من أول اسمى .

وكانت جريدة الزمان المصرية المسائية أول جريدة أكتب فيها اسمى كاملاً وأنا طالب فى كلية الآداب ، ومجلة (الأسرة) بالإسكندرية التى كانت تصدرها أسرة اللغة العربية فى كلية الآداب فقد ألقيت محاضرة عن المرحوم محمد رضا الشبيبى ونشرت فى المجلة ولعله أول مقال لى عن الأدب فى العراق وأنا طالب فى الكلية .

أحاديثى فى الإذاعات العربية والتلفاز عديدة وكثيرة وعسير تذكرها كلها فقد كنت أقدم الأحاديث من الإذاعة وأنا طالب فى دار المعلمين الابتدائية ولما صرت معلماً استمر إنتاجى بصورة محدودة . ولكن بعد أن صرت أستاذاً زادت هذه الأحاديث مع لقاء أجهزة الإعلام وبخاصة عندما ازدادت صلتى بالإعلام . فقد كنت أعد بعض الأحاديث الأسبوعية ولكن لم أكن قادراً على الاستمرار وإذا كانت الأشرطة فى أذاعة وتلفاز بغداد ففيها عدد لا بأس به.أما قبل التسجيل فقد كانت تذاع على الهواء مباشرة . .

إن أعمالى الجامعية والإدارية التى أقوم بها لم تترك لى وقتاً للاستمرار . . فقد كنت أميناً عاماً للمجمع وأستاذاً فى الجامعة ورئيساً لجمعية المؤلفين وعضواً فى الهلال الأحمر إضافة إلى أعمال كثيرة فى عدة نقابات ومجلات وجرائد .

وقد أذعت من تونس حديثاً طويلاً بالتلفاز وفى الهند سجلت حديثاً أو أكثر وفى الصين عندما زرتها سجلت لى الإذاعة والتلفاز شيئاً . وكانت لى عدة مقابلات فى صوت العرب مع الدكتور رشاد رشدى،والأستاذ أنيس

منصور وعدد من المذيعين في إذاعة القاهرة .

وفي الرياض انتشر الفيديو والكاسيت فسجلت لقاءات من التلفاز والإذاعة وبعض المحاضرات في نادى جدة الأدبي ونادى الرياض وجمعية الفنون في الطائف ، وآخر ما أذاعه التلفاز لقاء طويل مع الشاعر فاروق شوشة بعنوان (فرسان الكلمة) من تلفاز الرياض وقد نشرت بعض هذه المقابلات في كتبي ومازال بعضها لم يسجل من الأشرطة .

أكثر هذه المحاضرات واللقاءات تدور حول الأدب العربي الحديث والفكر العربي المعاصر والنقد . وبعضها سجلته في العراق لحياة الشعراء مثل الرصافي والزهاوي ومحمد رضا الشبيبي وإبراهيم صالح شكر ومحمد صالح بحر العلوم إضافة إلى الحديث عن التيارات الفكرية والأدبية في العراق والعالم العربي والحداثة والمعاصرة والمؤثرات النفسية والعوامل الروحية وأثرها في التطور والتجديد ويمكن ان أذكر على سبيل المثال بعض ما أملك من هذه الأحاديث المسجلة :

المشاركات الأدبية والفكرية

(١) لقاء عن الأدب والفكر ـ أذيع من صوت العرب / القاهرة ـ عدة مرات .

(٢) العرب بين الفصحى والعامية ـ أذيع من صوت العرب / القاهرة .

(٣) حوار عن رواد النهضة الأدبية في تلفاز الرياض .

(١) لقاء عن الفكر الحديث والأدب في تلفاز الرياض مع الرياض مع الدكتور / بدوى طبانة

(٥) لقاء عن لغة الأديب في تلفاز الرياض مع الدكتور / رضا حوارى .

الدكتور / أحمد الضبيب ، والدكتور منصور الحازمي ، والدكتور / أحمد كمال زكي .

(٦) ندوة عن علاقاتنا بالتراث ـ في تلفاز الرياض ـ مع الدكتور / أحمد الضبيب والدكتور / شكرى عياد .

(٧) لقاء طويل مع تلفاز تونس ـ عن الأدب والفكر والنقد .

(٨) بين قوسين ـ في ملتقى الرياض ـ مع

(٩) محاضرة عامة عن أثر الأدب العربي في الأدب الغربي ـ ألقيت في جامعة الخليج العربي ـ البحرين ـ ١٩٨٧ م .

(١٠) محاضرات عن الفكر العلمي عند العرب ـ ألقيت في جامعة الرياض ١٩٨٧ م .

(١١) محاضرة عن التجديد في الشعر الحديث في نادى جدة الأدبي .

(١٢) محاضرة : أثر حضارة العرب في تطور حضارة الغرب ـ نادى الرياض الأدبي .

(١٣) محاضرة عن الأدب العربي في جمعية الثقافة والفنون بالطائف.

(١٤) تراثنا والمعاصرة في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م)

(١٥) الأثر النفسي في تعريب التعليم في مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٨٥ م)

(١٦) المجتمعات العربية - في مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٨٤ م)

(١٧) التراث الزراعي عند العرب في كلية الزراعة في الرياض ٢٥ / ٨ / ١٩٨٣ م

(١٨) التعبير عن النفس في الأمثال العربية - مؤتمر الجزيرة العربية في الرياض.

(١٩) الدعوة في رسائل النبي (ﷺ) - مؤتمر الجزيرة العربية في الرياض.

(٢٠) توحيد المصطلح العلمي - مؤتمر تعريب التعليم العالي - بغداد - ٤ / ٧ آذار ١٩٧٨ م

(٢١) المصطلح العلمي والتراث العربي - مؤتمر تعريب التعليم العالي في الوطن العربي - ٤ / ٧ آذار ١٩٧٨ م

(٢٢) الأصالة والمعاصرة (لقاء الفكر) في تلفاز الإمارات العربية المتحدة في أبو ظبي ما بين ١٨ / ١٢ / ١٩٨٥ - ٢٥ / ١٢ / ١٩٨٥م في الساعة الثامنة والربع.

(٢٣) الشعر العربي (لقاء الفكر) في تلفاز الإمارات العربية المتحدة في أبو ظبي في التاريخ السابق ألقي الجزء الأول.

(٢٤) الشعر العربي (لقاء الفكر) وهو الجزء الثاني من اللقاء في التاريخ نفسه واليوم نفسه.

الخطب العامة :

مجال الخطب في العراق ضيق وساحاتها محدودة لأن مجال الخطب أو الخطيب هو في محافل النقاش المفتوح والمنافسة الحرة في العمل الفكري في العالم . . ولم يمر العراق إلا بفترات محدودة من المنافسة من أجل الحصول على مكان يتنافس عليه أكثر من شخص . . وبخاصة الانتخابات العامة التي تتسع فيها الحرية التي حرم منها أكثر العرب.

ولأن الحياة السياسية في العراق لم تستمر وكانت أيامها محدودة وحرية الأحزاب المعارضة والأحزاب الرسمية مرت سريعا فقد غابت الظروف التي تخلق خطباء في السياسة والاجتماع والفكر . فشخصية الأديب الخطيب تخلقها الحرية والتعبير عن المشاعر الحقيقية العميقة الصادقة وفي محيط يقبل النقد ويكون واسع الصدر متمرنا على قبول قول الخصم بروح عالية، والعراقي بصورة عامة ضيق الصدر لا يقبل رأى الخصم ويريد الانتصار حتى ولو أدى الانتصار إلى استعمال القوة . إن قبول الرأى

المعارض لا يأتى إلا بعد أن يمر الشعب بفترة طويلة من الحرية ويصبح النقد جزءاً من حياته ويقبل رأى الخصم برحابة صدر وإن كان قاسياً ومخالفاً له فى الاعتقاد . والعراقى شديد التبرم بكل نقد ولو كان فى صالحه لا يرى غير رأيه صائباً .

ولعل المكان الوحيد الذى يمكن أن نجد فيه خطابة بحدود ضيقة هو المحاكم عندما يتبارى المحامون فى الدفاع عن موكليهم ولكن فى أحيان كثيرة يطلب القاضى الدفاع مكتوبا وهو يقرأه بعد ذلك .

وحكام العراق جزء من هذا الشعب ، فقد كان المعارضون يقابلون بعنف ويساقون إلى السجون وقد يُنفى بعض المعارضين إلى جزء من العراق وتاريخ الفكر مشحون بمثل هذه الأعمال التى قام بها الحكام وقد يكون الانتقام غير منظور لمحاربة المعارض فى ماله ورزقه أو يقتل دون أن يدرى الناس به . ويسجن دون أن يعرف أهله أى جب حواه .

إن أية كلمة صريحة معارضة أو نقد بناء من المفكرين وأصحاب الإصلاح يقابل دائما بالرفض والسخط والغضب ، ولو كان قصد المصلح خير الحاكم وصلاح البلد وتطور الأمة .

وقد ازدهرت الخطابة الشعريه فى مآتم الحسين ازدهارا كبيرا لوجود المنافسة الحرة فى ذكر محاسن آل البيت والتغنى بأمجادهم وبطولاتهم ومواقفهم **من الاستبداد بحزم وقوة مما ساقهم إلى الموت والعذاب .**

فقد كان الشاعر يقول دون حرج أو خوف من السلطة ، وبرز فى هذا المضمار شعراء أجادوا وأبدعوا فى الرثاء لوجود المنافسة الحرة . والمجال الواسع فى ذكر فضائل آل البيت الكثيرة وتضحياتهم الكبيرة دون حدود .

فكانت النجف الميدان الشعرى للصراع الأدبى والنبوغ الفنى وخير الشعراء هم أولئك الذين تغنوا بثورة الحسين على الظلم والاستبداد والحكم الفردى .

وهناك مجال آخر للشعراء فى التغنى بمولد الرسول الكريم والاستلهام من سيرته العبقة وجهاده فى سبيل الله حتى كون دولة كبيرة وأعان على خلق أمة جديدة .

وبذلك ازدهر الشعر أكثر من ازدهار النثر فى العراق ماعدا أيام الاحتلال البريطانى فى العراق ، فقد بدأت نهضة كبيرة فى الخطب السياسية لأن الجميع كانوا ضد الاحتلال البريطانى والوصاية الانكليزية. فقد كانت الحرية واسعة بالقياس إلى أيام الحكم الوطنى الذى مارس فيه أبناء العراق حكم بلادهم . وأذاقوا الشعب العذاب ، والمفكرين الويل .

طبع المصرى والعراقى

والشعب العراقى عاطفى رقيق الإحساس تهزه الكلمة الثائرة وتسعده الكلمة الخيرة الرقيقة فإذا أطلق له العنان دمر كل ما أمامه دون وعى ودون مسؤولية لأنه لم يكن فى يوم من الأيام حرّ التعبير عن آرائه والإفصاح عما يعانيه من أوجاع اجتماعية وآلام سياسية وأزمات اقتصادية طاحـــــنة لذلك تتجمّع هذه الآلام وتتراكم هذه الأحزان وتتركز هذه الرغبات وعندما يجد منفذا نراه يثور مثل (الحلفاء) (وهى نبات سريع الاشتعال) سريع الخمود يعرفها أهل العراق .

ومتى وجه الشعب نحو دروب الخير وطرق الإصلاح فسوف يأتى بالعجائب فى إخلاصه فى العمل وتفانيه فى أدائه . وهو معروف منذ القدم فقد حدثنا التاريخ أن معاوية بن أبى سفيان لما أراد تعمير المسجد الكبير فى دمشق طلب معونة المسلمين ومساعدتهم وكان يرقب العمل فوجد أحد المتبرعين يحمل حجرين أو أكثر على ظهره وينوء بالحمل دون أن يكل أو يمل فلما لاحظ هذه الظاهرة بعث فى طلبه وسأله :

من أى بلد أنت ؟

قال : من العراق

فقال له ما معناه : لماذا تحمل أحجارا أكثر من غيرك ؟ قال : طلبا للأجر والثواب .
فقال معناه :
أجل يا أهل العراق أنتم تبالغون فى كل شيء .

إن العراقي لم يجد جواً يعبر فيه عن رغباته **طوال حياته إلا فى** القليل . لذلك كان مضطرا لأن يجارى الأوضاع العامة حفاظا على حياته وماله وعرضه من السلطة فانتشر المثل :

ويهاو وياهم ، عليهم عليهم .

إن استبداد السلطة ـ فى تغير عهودها ـ وحكم الفرد فى العراق صيّر الشعب خائفاً مضطربا فقد وجد أبناؤه الحاكمين، أشد قسوة من الأجنبى لذلك وجد خير سبيل أن يجارى السلطة التى تتبدل فقال :

(كل من يتزوج أمى أسميه عمى)

أما فى مصر فالأمر يختلف، فقد مرت حياة مصر الفكرية والسياسية بفترات من الحرية والمنافسة بوجود الأحزاب ومجلس الأمة الذى أتاح للمفكرين والخطباء تطوير الخطابة وتجديد أساليبها **وإتقانها** .

فقد برز فى مصر متعلمون وخطباء وأدباء ومفكرون **فازدهرت** الحرية الفكرية . يضاف إلى هذا كله أن الشعب المصرى شعب مسالم بصورة عامة وهادىء الطبع كثير الطاعة لا يحب الهدم والتخريب بالقياس إلى الشعوب العربية الأخرى . والآثار القديمة الموجودة دليل على احترام الآباء والأجداد والقدماء وحماية التراث والاعتزاز بالماضى فبنى الحضارة وحافظ عليها .
والشعب العراقى لم يترك وراءه من معالم الحضاره شيئا بارزا برغم أن الحضارة العربية الإسلامية كانت مزد هرة فى بغداد التى لم يبق من آثارها العباسية شيء له قيمة كبيرة وأهمية فنية . وقد تتبعت الآثار القديمة فلم أجد

منها إلا بعض المعالم المحدودة . لاحظ (بغداد) فى كتابى (قضايا من الفكر العربى) ، فأين الحضارة المزدهرة ؟ أين البيوت المترفة والأبنية السامقة ؟ وأين الأثاث والرياش التى بذل الصانع والفنان لياليه وسنواته فى سبيلها ؟ فقد زار ابن بطوطة العراق ووجد قبور الخلفاء **ومبانيها سليمة** سامقة . أما اليوم فلا نجد أثرا واحدا يرجع إلى العصور العباسية الزاهرة ، **وخيرها يرجع إلى العصر العباسى المتأخر ، وهى محدودة بالمستنصرية والقصر** العباسى وبعض المنائر وجامع أبى دلف .. فى سامراء .

وفى مصر خطباء مفوهون سجل لهم التاريخ خطبهم وخلد أسماءهم وهم أبناء السياسة والأحزاب التى ازدهرت فى العهد الملكى وقتلت فى عهد الجمهورية وماتت فى فترة الحكم الفردى والاستبداد الشخصى . ومع أن المصريين بصورة عامة أكثر شعوب العرب طاعة وأكثرهم هدوءاً **فهم** خير العرب خطبة وأفصحهم كلاما وأجزلهم عبارة . والنثر فى مصر يزدهر دائما لأنهم أكثر الشعوب العربية هدوءاً وتحكيماً للفكر والإرادة والعقل . وقائمة خطباء مصر طويلة بالقياس إلى أسماء الخطباء فى العالم العربى .

كما برز فى الشام فى عهود الأحزاب وفى ظل الاستعمار الفرنسى القاسى خطباء مفوهون عندما حاربوا الاستعمار ووقفوا ضده ببساله وقوة . فقد سمح للأحزاب السياسية بالمنافسة فى تشكيلها واختيار النواب والوزراء . الحرية تموت فى ظل الحكم الفردى والتعسف الذى يتابع كل معارض بالتعذيب البشع والقتل والسجن الذى لا يخرج منه إلا إذا فقد عقله أو أصابته عاهة مستديمة لا تفارقه حتى الموت وتكون سببا فى منعه عن الحركة **والقول السديد والرأى الصريح الرشيد** .

أول خطبة عامة لى :

لعل أول خطبة رصينة ألقيتها وأنا معلم فى يوم مولد الرسول فى جامع

بعقوبة الصغير . فقد احتفل بمولده احتفالاً رسمياً (أزيل المسجد بعد توسعة الشارع) وحضر هذا الحفل علية القوم ، وكان على رأسهم المتصرف ــ المحافظ ــ ولم تكن هذه أول خطبة لى فقد جاء بمذكرات صديق الطفولة والدراسة الأخ كمال القيسى المحامى بأنى كنت ألقى خطبى فى مناسبات عديدة ونحن طلاب فى المدرسة الابتدائية والمتوسطة . كنا نشترك بالتناوب صباح كل خميس فى تحية العلم ، وكنا ننال استحسان الإدارة والتلاميذ معا ، كما كنا نشترك فى كتابة جريدة الحائط المدرسية فنملأها أشعاراً وأدباً وحكماً وقصصاً ونوادر . إلخ .

وقال فى ذكرياته :

(فى أحد الأيام زار المدرسة قائم مقام القضاء وأذكر أنه الأديب الكبير المرحوم إبراهيم صالح شكر فاختارنى مرشد الصف لإلقاء كلمة فى تحيته والترحيب به بواسطة الخطاب المكتوب ففعلت ذلك . ويظهر أنه كان قد أسس بناية المدرسة .

(وفى مرة أخرى زار المدرسة متصرف اللواء (محافظ ديالى) فاختار مرشد الصف الأخ يوسف لتحيته والترحيب به بواسطة الخطاب المكتوب . وهكذا كنا نحن الاثنين الوجه المشرف واللسان الذرب لمدرسة شهربان الابتدائية)

وإذا جاز أن تكون مطارحات الشعر ومساجلاته من الخطابة فقد قال الأستاذ كمال القيسى المحامى :

وفى بعقوبة كنا أيضا فى صف واحد فى متوسطة بعقوبة وكنا من الطلاب النابهين بحيث لا ننهى واجباتنا المدرسية بل نحفظها ونحضرها يوميا،هذا إلى إزدياد ميلنا الشديد إلى الشعر والأدب . نطالع الجرائد والمجلات والقصص والروايات لطه حسين والمازنى والمنفلوطى وسلامة

موسى . **وكنا نميل إلى المنفلوطي** لأدبه المشرق وأسلوبه الرصين في النظرات والعبرات . **وكنا أحياناً** أنا ويوسف وبعض الزملاء مثل وحيد الحكيم وصبحي **البصّام ومحمد** علي البصّام نتطارد في الأشعار فكان يوسف الفارس المجلي الذي لا يبارى ولايجارى . ، وأخذنا نكتب في جرائد بغداد ما يعن لنا من خواطر أدبية واجتماعية مما كان له أكبر الأثر في ترسيخ وترصين أقلامنا الغضة الطرية . .)

إن أول خطبه سياسية كانت في مظاهرة سياسية عامة،وكنا طلاباً في دار المعلمين الابتدائية . فقد خرج طلاب دار المعلمين من الأعظمية باتجاه بغداد إلى كلية الحقوق وكانت مركز السياسه وثقل الفكر الثائر في المدارس ، إذ لم تكن الجامعة قد تأسست باسمها .

فلما وصلنا قرب باب المعظم تصدت لنا الشرطة لترّد الطلاب إلى الأعظمية حتى لا تتصّل المظاهره بطلاب بغداد .

كان مدير الشرطة وقوة الشرطة يقفون أمامنا ، وأشهد أن الرجل كان رقيق القول لطيف الإقناع وأخبرنا بأن المظاهرة انتهت في بغداد وقد أقنع الطلاب بحلاوة لفظه وجميل عبارته . فسرى الوهن **وفترت** الحماسة في النفوس . وبعد سفرة من الأعظمية إلى بغداد مشيا على الأقدام وقفت خطيبا أحث الطلاب على مواصلة السير والالتحام بالمظاهرة في بغداد وعدم الخوف من القوة والسلطة والشرطة وألا يخدعهم معسول اللفظ وحلو الكلام .

ولم يخطب غيري ، وكانت قوة الشرطة كبيرة أحاطت بنا من كل جانب وبخاصة أن عددهم حال دون تقدم المظاهرة خطوة واحدة . ولما طالت وقفة الطلاب ولم تسأم الشرطة من الحصار أخذ الطلاب ينسلون واحداً إثر واحد ، ثم هرب الباقون . وبقي عدد قليل من المعاندين سمحت لنا الشرطة بالذهاب إلى بغداد . . فآثرنا العودة بعد أن كانت الشرطة قد

عاملتنا معاملة لطيفة خلافاً لما هو معروف عنها . ولعل التعليمات كانت صادرة بعدم استخدام العنف مادمنا لم نستعمله حتى لا تستفز الطلاب .

وفى كليه آداب الإسكندرية كان مجال الخطب والقصائد كبيراً فقد كانت حرية القول واسعة فى زمننا وكان الطلاب يقولون كل شىء ضد الدولة وبحرية كبيرة ، فقد كان منهم الوفدى والسعدى ومن الإخوان المسلمين واليسار .

فلم أر طالبا سجن أو معارضا حبس .

وقد ألقيت عدة قصائد وخطب فى مناسبات متعددة مثل تأسيس الجامعة العربية سنة ١٩٤٨ ، وكنت شديد الميل إلى حزب الوفد الذى كنا نراه يمثل رغبات الشعب المصرى ولأنه كان جريئاً فى القول والحماسة فى الخطب وكانت له شعبية كبيرة بين طبقات الشعب .

ولعل أجرأ خطبة خطبتها وأنا طالب كانت فى قصر رأس التين عندما دعانا الملك فاروق إلى مائدته فاختارت الكلية جماعة من الطلاب وكان العراقيون أول من دعى إلى حفلة الإفطار فى شهر رمضان .

وكان الملك فاروق قد جلس فى مكان يستمع إلى الخطباء دون أن يحضر مع المدعوين على المائدة إنما حضر رئيس الأمناء أو رئيس التشريفات، وكنت جالساً إلى إحدى الموائد الرئيسية . والذى كنت أسمعه عن الملك فاروق والذى جسمه لنا خيالنا وكبرته الأحزاب السياسية غرس فى نفوسنا البغض والكراهية .. وعدم الحب والإعجاب ، فقد كانت الإشاعات كبيرة وكثيرة قصفت سمعة الملك ووصلت إلى الشعر فقال أحد الشعراء :

قف واستمع ماقاله قاضى الهوى لجليسه
تلك الملاح يحلها فاروق عند جلوسه

ويحل تكة أمه من حل تكة كيسه

وأختلقت على **الملك** أحاديث كثيرة .. ظهر زيفها بعد ذهابه .

طلب من الطلاب إرسال خطبهم قبل مدة لكى يقرأها المسؤول فى الديوان الملكى ولم تسلم لنا إلا فى ساعة إلقاء الخطب .. ولما جاءت خطبتى لإلقائها وجدت كثيرا من السطور قد حذف .

وما كنت أحفظها .. ولما وقفت أمام مكبر الصوت (الميكرفون) وقف بجانبى وأنا أهم بإلقاء الخطبة أحد كبار الحرس وكان برتبة كبيرة وقال لى برقة ودبلوماسية ناعمة أرجوك أن تلتزم بالموجود من خطبتك ولا تحرجنى بإلقاء شىء جديد غير موجود فى الخطبة . لأنى سوف آلام على ما سوف تقوم به .. وكان الرجل يرقب ما أقول فى الورقة .. ولم يكن أمامى من خيار غير إلقائها أو ترك الحفل .. فآثرت أن يسمع صوتى وأزيد بعض العبارات الجديدة . ولعل الخطبة موجودة بين أوراقى فى بغداد .

كان الخطباء من مختلف أنحاء الوطن العربى ، وكانوا يشيدون بالملك فاروق ويحيون أعماله ويبالغون فى مدحه مع أن الخطبة كانت فى شهر رمضان ، وكانوا يفتتحون الخطابة بقولهم : سيدى صاحب الجلالة المعظم الملك فاروق ملك مصر والسودان . وخالفتهم وقلت باسم الله الرحمن الرحيم .. يا أبناء مصر الأعزاء .. وكان لهذه الخطبة على ما حذف منها أثر سىء فى نفوس المصريين الذين حضروا الحفل ، فقد عدوا عدم ذكر الملك وتغافلى **اسمه** إهانة لمصر كلها ، فاجتمعوا يريدون الاعتداء علىَّ بعد أن **خرجنا من قصر رأس التين إلى الساحة إذ ذهبنا سيراً على القدمين إلى (الترموای) للعودة إلى دورنا .**

فلما أحس طلاب العراق والعرب بذلك **التفوا حولى** من كل جانب .. وخوفا من الضجة **تركت** الأمر وعدت إلى الدار ..

وقد ظهر أثر هذه الخطبة فى المذيع ، لأن الخطب كانت تذاع على الهواء مباشرة ولم يعلق بكلمة واحدة على ما قلت . ولما جاء دور الطالب السورى الذى أغرق الملك فاروق مدحا وزاده ثناء وأطنب فى أفضاله قولا ، أطال المذيع فى مدح الخطبة وأثنى عليها وقرّض قوله ومدحه مما لفت نظر السامعين وعرفوا بأنه مدح الطالب السورى وتجاهلنى لأننى لم أمدح الملك فاروق مع أننى أثنيت على مصر وأهل مصر وأشدت بفضلها على العرب وعلى بصورة خاصة .

المحاضرات العامة :

أما محاضراتى فى المجالس العلمية فهى متعددة.فكنت أحضر المؤتمرات وأسهم ببحث أو مناقشة أو تعليق . وجمعت أكثر المحاضرات فى كتبى كما نشرت فى المجلات وهى تشكل عدداً من الكتب منها :

١ ـ قضايا الفكر العربى ، طبع فى الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٢ ـ فى الأدب العربى الحديث ، مقالات وبحوث نقدية ، طبع عدة طبعات

٣ ـ قول فى النقد وحداثة الأدب ، نشر فى الرياض وطبع فى القاهرة .

ومن الخطب التى ألقيتها خطبة فى الكرادة الشرقية دعانى إليها الشيخ محمد رضا **الشبيبى** وكنت أمين المجمع العام وكان رحمه الله رئيسا للمجمع بمناسبة مولد الإمام على كرم الله وجهه . وقد قطع التلفاز البث لما هاجمت الحكم الفردى وأظهرت ديمقراطية الإمام على . (كرم الله وجهه)

الصوت :

منحنى الله صوتا جيدا جهوريا يؤثر فى السامعين متى خطبت . ولى

قابلية السيطرة على المكان لأنى أنسجم كل الانسجام فى محاضراتى وخطبى وأراعى حاجات الناس إلى الراحة ولا أطيل .

وأحس بالهدوء والإنصات ، ولا أدع الملل يتسرب إليهم . وعندما أحس بانهم ملونى آتيهم بنكته أو طرفة لأشد السامع إلىّ ثم أواصل الكلام .

الشخصية :

أحمد الله أن لى شخصية محبوبة من أكثر الناس ، وأن من يكرهنى هو الحاسد الذى يرى ما أحطت به من فضل وعلم وسمعة حسنة بين الناس ، ولا أبادل الناس الكراهية . . وأنا أبرر أعمالهم وأعذرهم فى بغضهم لأن الإنسان إذا لم يحب أو يكره ليس بإنسان فعال . ومادمت تعمل فالحسد والبغض من الأمور الطبيعية . فقد قال لى أحد الإخوان الكرام:إنك محسود ويكرهك بعض الناس . قلت له :

إن العرائين مازالت محسدة ولا أرى لصغار الطير حسادا

وقلت لصديق آخر :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فمازال غضبانا على لئامها

المكافآت والأجور

أن أول مكافأة لى كانت (٧٥٠) فلسا من دار الإذاعة العراقية على قصيدة ألقيتها بمناسبة حركة رشيد عالى الكيلانى ، وكنت طالبا فى دار المعلمين الابتدائية . . وبهذا المبلغ فصلت ولأول مرة بذلة جديدة فى بغداد . . لأن خياط بغداد كان بالنسبة لنا أهل بعقوبة كالخياط فى باريس أو لندن بالنسبة للمترفين من أهل المشرق والعالم . واستمرت الأجور أو المكافآت من الإذاعة عندما كنت ألقى حديثا أو قصيدة منها أو من التلفاز

إذ ألقيت منها عدة بحوث لا سيما بعد أن تخرجت وأصبحت مدرساً فى كلية الآداب وعضوا فى المجمع وأتيحت لى الفرص للمساهمة فى إدارة بعض وسائل الإعلام فى العراق . وأعلى أجر حصلت عليه فى مصر (١٥٠) جنيهاً من دار الهلال على ثلاث مقالات وكانت تدفع للكاتب (١٠) جنيهات . . وخصص لى مرة (٥٠٠) دولار عن مقالة لى فى موسوعة من الموسوعات أعدتها لها ثم لم أستلم شيئاً لأنى نشرت المقالة فى جريدة عربية ورفضت تسلم أجرين عن مقال واحد ولم يكن هذا المبلغ إلا خمس ما تسلمته من المجلة العربية . ولما رأى رئيس التحرير (الصك) المرسل لى رجانى أخذه لأن لا يتعارض مع نشر المقال عنده ولكنى أعدت المبلغ وعساه وصل لأهله . وأخيرا وصلنى ٥٠٠ جنيه مصرى عن مقابلة لى فى سلسة (فرسان الكلمة) التى يخرجها الشاعر فاروق شوشة . دعيت عدة مرات من أدباء العالم مثل الصين الشعبية وكانت الدعوة لمدة شهرين قضيت منها أربعين يوما وطلبت العودة إلى العراق . إذ لم أطق الحياة وجفافها الروحى وسيطرة الحزب الشيوعى وكثرة الشعارات وعبادة ماوتسى تونك . . وقد عرض على أكثر من مرة بعض المبالغ لقاء إذاعة الأحاديث واللقاءات المتعددة فى الإعلام فرفضت ذلك برغم الإلحاح الكبير . .

ومن الطريف أن المسؤول الأول عن النفقات قال لى إن فلانا أراد أكثر من المبلغ الذى قدمناه ، وأنت ترفض المبالغ التى قدمناها لك .

وحدث نفس الشيء فى الهند وألمانية الشرقية ، حتى إننى كنت أصرف على من كان معى من المصاحبين لأنى عرفت أن هناك مبالغ مخصصة لى وأردت أن أوفرها لهم لعلمى بحاجتهم إلى مثل هذه المبالغ .

وفى إحدى المرات رفضت تسلم مبلغ من مؤسسة عربية كبيرة أنا عضو دائم فيها فجاءنى مسؤول كبير عضو معى وقال إن عملك يحرجنا فأرجوك أن تقبل المبلغ لأن رفضت المبلغ مثلك فتألموا منا وقالوا نحن مؤسسة واحدة

وأعضاء فى مؤتمر عربى عالمى والمبلغ يخصص لكل عضو وكل واحد أخذه .

وفى كثير من الأحيان لم أتسلم ما يخصص لى من المبالغ فى بعض الأقطار العربية وبخاصة مصر والأقطار العربية لأن إجراءات الصرف والوقوف أمام المحاسب أمور لا أعرفها ولا أريد أن أعرفها .

أخذت مكافأة ليست قليلة من معهد الدراسات والبحوث العربية عندما كنا فى القاهرة ، كما تسلمت أجور النقل بالطائرة وأخذت من الأردن فى مؤتمر آل البيت مبالغ رمزية على شكل مصروف للجيب .

كان اهتمامى بمعهد الدراسات والبحوث كبيرا ، فقد كان له فضل كبير على الرأى الفكرى العربى بما أصدره من بحوث وكتب متعددة . وقد صدر لى عن المعهد الكتب التالية ، وما كان العائد المادى كبيراً . ومن هذه الكتب :

١ ــ الاشتراكية والقومية وأثرهما فى الأدب الحديث ، وقد أعيد طبعه فى القاهرة ١٩٧٦

٢ ــ فهمى المدرس من رواد الفكر الحديث ، وقد أعيد طبعه فى بغداد ١٩٧٦ .

٣ ــ القصة فى العراق : جذورها وتطورها ، طبع سنه ١٩٧٤ .

٤ ــ الرواية فى العراق ،تطورها وأثر الفكر فيها ، طبع سنة ١٩٧٣ .

٥ ــ إبراهيم صالح شكر وبواكير النثر الحديث فى العراق ، وقد طبع سنة ١٩٧٥ .

٦ ــ خيرى الهنداوى ، حياته وديوان شعره ، وقد أعيد طبعه فى العراق سنة ١٩٧٣ .

وبذلك كانت مكافأتى الأولى هى طبع هذه الكتب فأحسست بأنى قدمت خدمة كبيرة للفكر العربى . وخير أجر وأحسن مكافأة هو أن تقدم

إنتاجك الفكرى فى خدمة أمتك ولاسيما أن هذه الكتب فيها الجديد الذى لم يطرقه باحث من قبل وهى تمثل جهوداً متواصلة لجلاء الغامض من الأدب العربى والفكر الحديث فى العراق لأن هذه الكتب كانت توزع بالدرجة الأولى بشكل مجانى على جميع الجامعات والمجامع العالمية ، وبالفعل كنت أجد مطبوعات المعهد فى كل الأقطار والجامعات الغربية التى زرتها ، وغبطق بوجود كتبى هى مكافأة وأحسن أجر . وزكاة العلم نشره .

الأوسمة :

إذا كانت الأوسمة هى المعادن البراقة التى تعلق على الصدر ويزدهى بها صاحبها فأنا لم أعلق على صدرى وساما واحدا منها ، لأن الأوسمة لا تعطى إلا لفارس أو مقاتل دخل معركة وانتصر فيها . وهؤلاء هم أحق الناس بالأوسمة والتقدير . ومثل هذه الأوسمة مهما غلت ليست إلا الرمز والتعبير عن تقدير الأمة لهم ، فقد قدموا أرواحهم فداء ودماءهم تضحية لأمهم وشعوبهم .

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

حصلت على أوسمة تقدير كبيرة وخالدة هى اختيارى عضوا فى المؤسسات الأدبية والفكرية فى العالم العربى والعالم الغربى . وهل هناك وسام أرفع من عضوية مؤسسة فكرية أو مجمع أدبى أو جمعية أدبية ؟ وأحمد الله فقد شملنى العلماء والأدباء بفيض من هذه الأوسمة التى أعتز بها وأفخر بانتمائى إليها لأنها التقدير الحقيقى الذى ليس فيه زلفى لإنسان أو تقرب لسلطة أو مديح لسلطان .

والأوسمة فى الوطن العربى والعالم الثالث لا تعطى إلا لمن له قابلية خاصة أو مجاملة محدودة فى عمل معروف . وللأسف أن الأوسمة المخصصة لأصحاب العلم وقادة الرأى محدودة جدا . لأن هؤلاء لهم من علمهم

وفضلهم مانع كبير يملأ نفوسهم ثقة وفخراً بإنتاجهم وما قدموه لأوطانهم من كتب ومقالات وطلاب علم يملأون الساحات الفكرية بنشاطهم ومساهمتهم فى خدمة العلم والفكر واللغة .

إن أى سلطان فى العالم لا يقدر أن يعطى العالم أكثر من قدره ومن قيمته . لأن الدولة التى تقدر العلم والأدب والشعر والفكر إنما تريد أن يقدرها العلم والأدب ، لأن الفكر والأدب والعلم والفن أخلد من أى سلطان وحكومة . فقد بقى المتنبى خالدا يردد اسمه الناس ، وبقى شعر المعرى رمزا يلجأ إليه المفكر والفيلسوف،وبقى كتاب الطبرى برغم مرور الأيام وتوالى القرون مرجعا . ويذكر المؤرخون كَين وفولتير وكوته وشكسبير وتين وبرونتى أكثر من ذكر ملوك الإنكليز وأباطرة التاريخ فى العالم كله ، وهم الذين يمنحون الأوسمة . لأن عمل المبدع خالد خلود الحرف وأعمال القادة والزعماء حتى المصلح الكبير سوف يطويها التاريخ وينساها البشر لأن إصلاحه وفضله موقوت بالزمن الذى عاش فيه .

وبعض الأوسمة تقدم لأصحاب الولاء والمقربين لأصحاب الشأن والسلطة .ولم أكن فى يوم الأيام راغباً فى التقرب منهم برغم وجود الأكارم والأبطال بينهم الذين حاولوا مرات عديدة التقرب منى بأساليبهم المتنوعة الكريمة ، لاعتقادى بأن المقربين إلى السلطان لابد وأن يضحوا بشىء من شخصيتهم وأنا أردد قول الجرجانى :

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدما

وهو القائل :

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

إن من طبيعة الإنسان الشرقى وحكام المشرق كله هى عدم الارتياح إلى أصحاب الشخصيات المعتدة بعملها الواثقة من نفسها البارزة فى فضلها

إلا إذ طأطأ رأسه وأضاع كبرياءه ، وأغر الحاكم بأنه أكبر منه وأعلى درجة من علمه .

ولعل خير وسام حصلت عليه هو تقدير العلم والعلماء واحتفاء أصحاب الفضل بإنتاجى فى أنحاء العالم ، وعناية الأحرار والرواد بما أنشر وخير وسام حصلت عليه هو القرآن الكريم الذى قدمه لى رئيس جامعة مؤته الدكتور على المحافظة مع الشارة العلمية وشعار الجامعة الذهبى بعد ما ألقيت محاضرة لى فى رحابها .

وعندى بعض الأوسمة الأخرى أعطيت مجاملة من مجمع تونس لكل الأعضاء وبعض أوسمة شكر من جامعات أخرى لاتدخل ضمن الأوسمة اللماعة ذات القيمة العالية معدنيا . .

من كتب عنى

من الكتاب الممتازين ؟

لا يمكننى إحصاء ما كتب عنى فأكثر المكتوب عنى ، بعيد عن متناول يدى وأنا بعيد عن مصادر البحث التى جمعت أسماء من كتب عن كتبى ومؤلفاتى . . فقد سعدت بكثير من الثناء والإطراء ، وقد تعددت المقالات لأنى كتبت فى عدد من المواضيع المختلفة . ففى البحوث لى عدة كتب . وفى الشعر عندى عدة دواوين . ولى فى الرواية والقصة القصيرة مساهمتان . وفى التحقيق لم أتخلف عن هذا المضمار . ولى فى النقد آراء ونظريات . لذلك كثرت المقالات التى تعرض كتبى ومؤلفاتى ولا يمكن أن تكون جميع المقالات متحيّزة لى ولمؤلفاتى ، فهناك بعض النقاد والباحثين الذين وقفوا موقفا مغايرا منى وهم عدد ضئيل .

وقد جمع ما كتب عن شعرى فقط ونشر فى كتابى (من رحلة الحياة) .
وقد أعيدت القائمة مع الإضافات الجديدة التى أضيفت من المقالات ونشرت فى (شخصية يوسف عز الدين الأدبية) للمرحوم عبد الرزاق البدرى المطبوع فى القاهرة . وللأسف لم أفكر فى جمع المقالات التى كتب عن مؤلفاتى . ومما لاشك فيه أنها تعطى فكرة جيدة عن رأى النقاد والكتاب فى فكرى وأدبى ونقدى . وقد أسهم فى هذا الفضل كتاب من العراق ومصر والمملكة العربية السعودية وتونس ولم يتخلف أدباء العالم ففى روسية كتب المستشرق شربا توف مقالا بعنوان (عالم من العراق) باللغة الروسية كما كتب أكثر من مرة عنى باللغة البولونية .

وأسهم أساتذة فى بولونيا وانكلترا وإسبانية فى ترجمة بعض إنتاجى والتعريف به.ومن الدراسات المنفردة التى صدرت :

١ ـ شاعرية يوسف عز الدين للأستاذ خضر عباس الصالحى ، طبع فى بغداد .

٢ ـ الرؤية الشعرية عند يوسف عز الدين للأستاذ صاحب كمر وطبع فى بغداد والقاهرة وقدم له الدكتور داود سلوم .

٣ ـ شخصية يوسف عز الدين الأدبية للأستاذ عبد الرزاق البدرى ، وطبع فى القاهرة وقدم له الدكتور صالح أبو أصبع .

٤ ـ يوسف عز الدين شاعرا وناقدا تأليف إنجى دريفونفسكى وترجم إلى العربية وطبع بالقاهرة . وهو رسالة ماجستير باللغة البولونية .

٥ ـ الإطار والمضمون فى شعر يوسف عز الدين للدكتور عبد الله درويش طبع فى مجلة البلاغ للشيخ محمد حسن آل ياسين واستلَّ منها منفصلاً .

٦ ـ التلقائية فى أشعار يوسف عز الدين للدكتورة درية نجم . وأعيد

طبعه فى القاهرة . سنة ١٩٩٠ وباللغة الفرنسية
٧ ــ نغم من بغداد ترجمة جماعة من العرب والمستعربين بالإنكليزية والعربية وطبع فى لندن ١٩٨٤ .

إن الحصول على المقالات التى كتبت عنى ليس سهلا وأنا أنتقل من بلد إلى بلد ويمكن الحصول عليها فى بغداد وفى الجرائد التى ذكرت فى كتبى وهذا ليس بالأمر الصعب . ولو كنت فى بغداد لأمكن تصوير بعض هذه المقالات من مظانها فى المتحف العراقى والدار الوطنية أو مكتبة المجمع العلمى العراقى .

الجمعيات والنوادى الأدبية :

أول تجمع أدبى أو فكرى له كيان واضح وخطة موضوعية وطريقة عمل مرسومة كان تجمع جمعية الشبيبة العربية التى أنشأتها أنا وفكرت فى اتخاذها وعاء للعرب والأدب بمساعدة من أستاذى محمد خلف الله أحمد رحمه الله وعون الدكتور محمد حسن الزيات ومؤازرة الطلاب العراقيين وبعض الطلاب العرب فى الإسكندرية ١٩٤٨ .

ولما عدت إلى العراق جمعت جماعة من أساتذة كلية الآداب الذين سبقونى فى التدريس وعرضت عليهم فكرة إنشاء تجمع أدبى يضم الأدباء. وقد اجتمعت بالفعل مع بعضهم مرتين وظهر خلاف بينهم . وما كان منهم إلا أن شكلوا اتحاد الأدباء فى عهد عبد الكريم قاسم دون دعوتى حتى إن اجتماع الجماعة المؤسسة غير مرة واحدة أرادوا بعدها أن أوقع على برقية ترسل إلى عبد الكريم قاسم فرفضت . ولم أدع بعدها ولم أقبل عضوا فى الاتحاد وأبعدت عن نشاطه لأنى رفضت توقيع برقية تأييد للزعيم الأوحد .

فدعوت جماعة أخرين ووضعت نظاما جديدا لجمعية المؤلفين والكتاب العراقيين واستعنت بالزميل عبد المجيد حسيب القيسي وكان جارى فى الأعظمية على وضع القانون لأنه من القانونيين البارعين، وفاتحت أحد الزملاء فى الأمر وأرد الاطلاع على النظام وأخذه هو بدوره ومرره إلى صديق ثالث ولم يعد النظام مرة أخرى. وعدوت الدكتور على الزبيدى وجلسنا على انفراد ووضعنا نظام جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين واجتمع معنا نفر من الأدباء والمفكرين وجرت الانتخابات الأولى، وصرت أمينا لهذه الجمعية ولم ألبث أن أصبحت رئيسا لها. وبدأنا من الصفر. وعندما ألفنا الجمعية المؤسسة كانت لنا حجرة فى شارع المتنبى وبعض الأثاث المتداعى. ورفعناها جمعية لها شهرة كبيرة وأخرجنا لها المطبوعات والمجلة واستأجرنا لها مركزا كبيرا.

وكان عبد الكريم قاسم يراقبها ويرسل أعوانه للاطلاع عليها. وفى يوم من الأيام أرسل الانضباط العسكرى ليقف أمام باب الجمعية يرهب الأعضاء لأنها كانت تجمعا لكل المفكرين على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية التى ظهرت فى تلك الفترة وتجمعاً لكل من كانوا ضد عبد الكريم قاسم. وتعاون معنا نادى التضامن تعاوناً تاماً. وكثرت أعداد المشاركين فى أجزاً مؤسسات ذلك الوقت بإلقاء المحاضرات العديدة وعقد الندوات المختلفة والأمسيات الشعرية فما كنت أترك أسبوعا إلا وفيه نشاط واضح وملموس. وللأسف دخلتها الأغراض الخاصة فعصفت بها، وكنت فى حالة سيئة من معاناة الأدب وأهله فتركتها وأغلقتها الدولة وحجبت مجلتها بعد أن تألف اتحاد الأدباء فى بغداد.

أما المؤسسات العلمية التى أشرف بعضويتها فهى :

١ ــ المجمع العلمى العراقى وكان لى شرف تبديل النظام فيه ووضع قانون جديد له يدعم رسالته، وقدرت على اختيار الأعضاء وتأسيس البناية وارتفع صرحه بعد أن كان أبنية عادية اتخذت الآن مكانا للطبع

وأستفاد منها بعض الفوائد الأخرى . وجئت إلى المجمع باختياره لى فى ٢٠ / ٦ / ٦١ من قبل المرحوم الدكتور ناجى الأصيل . ولما اختل النظام بقلة الأعضاء وعدم وجود العدد القانونى اقترحت استبدال النظام بقانون جديد سنة ١٩٦٣ وكنت ألفت لجنة بالتعاون مع الدكتور عبد العزيز الدورى من عدة أساتذة وكانت رئاستها لأستاذى عبد الرزاق محيى الدين وكنت أنا مقرر هذه اللجنة وكان الدكتور الدورى أول عضو يدخل المجمع . وبعد إكمال العدد القانونى انتخبت أمينا عاما .

ومن الطريف أن أحد المسؤولين (رحمه الله) لم يوافق على أن أكون عضوا فى المجمع برغم المجهود الذى بذلته فى خلق مؤسسة جديدة حتى ترك الوزارة وانتخبت بالإجماع عضوا فى ١٩٦٤ ، فأنا :

٢ ـ عضو مجمع اللغة العربية القاهرة .
٣ ـ عضو مجمع اللغة العربية دمشق .
٤ ـ عضو مجمع اللغة العربية الأردنى .
٥ ـ عضو بيت الحكمة فى تونس .
٦ ـ الزمالة الفخرية لرابطة الأدب الحديث القاهرة .
٧ ـ عضو جمعية اللغة الحديثة الأمريكية .
٨ ـ عضو جمعية الآداب الملكية لندن .
٩ ـ عضو جمعية الأدب المقارن العالمية . جامعة ماكيل ـ كندا .
١٠ ـ عضو المجمع العلمى الهندى فى الهند .
١١ ـ عضو اتحاد الأدباء فى بغداد .

ومن الصعوبة على وأنا بعيد عن أوراقى أن أذكر التواريخ التى شرفت بعضوية هذه المؤسسات لأنى سعدت بالعضوية بأوقات متفاوتة متباعدة وأوراق هذه المجامع فى العراق .

الفصل الخامس

الصلات الفكرية والعلمية مع المبدعين

الفصل الخامس

الصلات الفكرية والعلمية مع المبدعين

بداية الصلات

بدأت صلتى الجادة بأرباب الفكر فى كلية الآداب . فقد كانت صلتى بأساتذتى وفاء وتقديراً ، وتعرفت على عدد من الشعراء والكتاب فى جامعة الإسكندرية عندما كنت أساهم فى مهرجانات الشعر مثل مهرجانى الربيع والبحر ، فقد كان يحضر هذه اللقاءات عدد كبير من الرواد والكتاب ولكنى لم أكتب لواحد منهم شعوراً منى بكبر الأسماء وخشية إهمال هؤلاء لرسائلى فأصاب بالإخفاق الروحى .

ولعل من الأسماء المشهورة التى كانت تربطنى به رابطة قوية المرحوم محمد رضا الشبيبى ، وبقيت هذه الرابطة حتى توفى . فقد كان الرجل يعطى الناس ثقة كبيرة بأنفسهم لذلك كان أول شاعر تحدثت عنه فى محاضرة فى جامعة الإسكندرية، وكنت الطالب الوحيد الذى أسهم فى موسمها الثقافى . وقد سعد رحمه الله بالمحاضرة . ثم لما بدأت أحضر الماجستير دفعنى البحث العلمى لزيارة الرواد والاستفادة من مكتباتهم مثل هاشم الألوسى وحسن النائب اللذين قدما لى خدمات كبيرة أعانتنى فى كتابة الماجستير .واتسعت حلقة الوصل بينى وبين المفكرين والعلماء بعد إنجاز الدكتوراة وكثرت سفراتى العلمية والفكرية والأدبية . وللأسف إن كثيراً من

هذه الرسائل لم احتفظ به ، وفى العراق عدد كبير منها من مختلف المفكرين والأدباء والشعراء الذين استمرت صلتى بهم . إن أكثر الرسائل تكاد تكون شخصية إلا القليل منها الذى يحدث عن كتاب لى أو ديوان شعر صدر أو كتاب نشر ، وفيها طابع المجاملة والود ، ولم أدخل مع واحد منهم فى مناقشات علمية .

طبيعة الإعجاب

الناس قسمان : هناك من يعجب بالإنتاج ، وهناك من يعجب بالمنتج. وما حاولت يوما من الأيام الذهاب إلى مفكر أو شاعر أو رائد أتعرف عليه وإنما كانت الظروف تجمعنى بهم فى المؤتمرات العامة والاجتماعات الفكرية والأدبية . ومتى تعرفت على إنسان وأحسست بوده فلن أفصم عرى الود بعدها أبدا ، إلا إذا أحسست منه إعراضا أو شموخا بمنصب أو عمل . لم يحدث أن قاطعت إنسانا لأنى أحب البشر وأختلق الأعذار لأغلاطهم وتجافيهم .

ولأنى أعجب بالإنتاج الفكرى والشعرى فقد اخترت من كل شاعر قسما من شعره وجانبت مالا أحب ، فلم يخلق هذا الجزء إعجاباً بالشاعر كله أو المؤلف برمته .

وهناك قسم آخر يعجب بالفرد ، فإذا قرأ له أو سمع شهرته يسارع فى أقرب فرصة للذهاب إليه والتعـــــرف عليه مباشرة بعد أن أعجبه إنتاجه وأدبه.وقد يدفع هذا الإعجاب إلى عبادة إنتاجه ورؤيته فرداً والدفاع عنه أدبيا ويتحول إلى وثن يسيطر عليه ولا يرى سواه أديباً أو شاعرا ، وهؤلاء هم مراهقو الفكر .

وبذلك حرمت من التعرف على المشهورين . كنت أتمنى أن أتعرف عليهم ، فقد كانت لى صداقات مع كتاب القصة والرواية ومع ذلك لم أسع إلى رؤية توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ إذ لم تجمعنى بهما مناسبة فكرية .

ولعل من الطريف أن أذكر أن المرحوم أحمد رامى كان كثير الزيارة لى عندما أكون فى القاهرة . وسكنت مرة قرب أم كلثوم ، وكان يذهب إليها ثم يأتى إلى شقتى أو يأتى إلى شقتى ويذهب إليها . وحاول مراراً أن أذهب معه لزيارتها فرفضت . ولا أعرف السبب حتى الآن مع أننى أحب أم كلثوم وما كان يفوتنى صوتها وحفلاتها . وعندى الكثير من أغانيها ، وكنت أقدم من الإسكندرية مع الدكتور كامل مصطفى الشيبى للاستماع إليها لأنى إنسان يرفض فى قرارة نفسه عبادة الوثن والتسلط الفردى حتى ولو انصرف ذلك إلى أحب الكتاب إلى والمفكرين الذين سحرنى إنتاجهم .

لم أحاول أن أبدأ فى الكتابة إلى المشهورين لأنهم مشهورون ولأنهم من المرموقين لأنى أحس بالرغبة فى التعرف الفردى . **فأقتصر على متابعة إنتاجهم وكتبهم .**

طه حسين

كنت شديد الإعجاب بطه حسين ولم أزره إلا بعد أصبحت عضواً فى المجمع وجمعتنى به أعمال المجمع . . وكنت أزوره فى داره وكان رحمه الله شديد التواضع مع أننى كنت طالباً فى الإسكندرية وهو رئيس جامعة الإسكندرية . فلما تعرفت عليه وزرته أول مرة قال لى إن زيارتك واجبة على لأنك قادم إلى القاهرة .

قلت له : أنت من يحج إليه ويسعد بزيارته
فضحك رحمه الله . . . وقال : أنت تأتى فى السنة مرة .

وكان يصحبنى فى زيارته عدد من الأفاضل مثل الدكتور إبراهيم مدكور ومحمود تيمور وعدد من أصحاب الرأى والفكر وأعضاء من مجمع اللغة العربية .

ومن الطريف أنه كان يميل إلى السكاير العراقية وكنت آخذها معى إليه . وطلب منى مرة كتابى (الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر) .

فقلت له سوف أرسل لك الطبعة الأولى . . . والنسخة الوحيدة عندى . قال : أحتفظ بها لأنها سوف تكون من ذكرياتك الحلوة . . قلت يمكنني الحصول على نسخة وأرسلها لأن فيها فهارس ، أما الطبعة الثانية . فقد حذفت منها الفهارس لأن المجلس الأعلى للآداب طبعها طبعة شعبية وبأعداد كبيرة .

صلاتى بالرواد

ولما أصبحت معروفاً بدأت الرسائل تأتينى رسمية أولاً ثم تطورت العلاقات بعد اللقاءات مع كرام الناس . فلى فى كل بلد أصدقاء وأحباء ومراسلات تنمو كلما تقدمت بى السن وكثر إنتاجى العلمى . وأذكر الذين رحلوا لأن الأحياء كثيرون منهم من فى مصر رحمهم الله جميعا طه حسين ومحمود تيمور وأحمد رامى ويوسف السباعى وعبد السلام هارون وأحمد أمين وعبد الرحمن الشرقاوى ومحمد عبد الحليم عبد الله ويوسف وهبى وصالح جودت وعزيز أباظة وبالطبع أستاذى محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد طه الحاجرى والدكتور محمد حسين وغيرهم كثير .

وبقيت عندى عادة ألا أزور إلا من يزورنى . ومتى بدأ فى الود فسوف أغمره بالحب والتقدير والإعجاب . وأنا شديد الحرص على حب الإخوان وصداقتهم ، ويسعدنى حب الناس لى .

إن كثيراً من الرسائل فُقد لأننى انتقلت من مكان إلى مكان ، وكان من الصعوبة الاحتفاظ بالرسائل والهدايا من الكتب إلا إذا وصلتنى من بغداد . ومن عاداتى أننى لا أتجاهل أية رسالة تصلنى أو كتاب يبعث به مؤلفه . . ومع ذلك فما تزال بعض الرسائل عندى فى بغداد ،وهى من جميع أنحاء العالم مثل روسية والصين وإسبانية وإنكلترا وأكثر البلاد العربية إضافة إلى بعض بلاد العرب ممن تربطنى بهم صلات الفكر والود . والظاهرة

الواضحة أن كتاب الصين وروسية يحذرون من الكتابة إلى الدول غير الاشتراكية ، ولكن الظاهرة أخذ يزول جانب منها وأخذت تصلني بعض الرسائل . أما الدولة الاشتراكية التي لي بها صلات فكرية فهي بولنده فقد ترجمت من شعري وكتبت عن فكري وأدبي مرات عديدة .

طبيعة الرسائل

تختلف الرسائل باختلاف كتابها . فمنهم من يكتب نثرا ومنهم من يكتب لي شعرا . وعلماء المغرب يسألون عن بعض القضايا الأدبية والفكرية أو يطالبون بكتاب من كتبي أو كتب ليست متوفرة في أوطانهم أو تصوير مخطوطة في العراق . وكنت ألبي هذه الطلبات وأشترى لهم كل ما يطلبون . وكان منهم من يحاول أن يرسل لي مؤلفاته ومنهم من يكتفي بشكري ، ولم يسكت واحد منهم عن الرد والشكر . وبعضهم يسأل عن قضية فكرية أو أدبية في كتبي .

لم أتمكن من جمع كل الشعر الذي نظم في إنتاجي . . وقد جمعت قصائد بعض الشعراء التي قدمت لي وعسى أن أقدر على طبعها بمجموعة . فقد كتب عدد من الفضلاء عن شعري في الجرائد والمجلات وأرسلت قصائد فيها نفح الود وعمق الأحاسيس الغالية وهي التي أحاول طبعها مع ترجمة لكل شاعر منهم[1] .

أما النقاش والجدل والحوار فأنا أتجنب الدخول فيها وأرد باقتضاب وحسب مقتضى الكلام . . إذ أن بعض الحوار قد يساء فهمه أو يصدم عقيدة من تناقشه . وما أردت يوما إيذاء إنسان مهما اختلفت معه فكراً وأدبا ولاصدمت مفكراً في عقيدته لأني مؤمن بأني لا أقدر أن أغير عقائد الناس . والذين آنس فيهم الطيبة وعدم الإيذاء هم الأصدقاء ، ومتى أنست من

(١) يقوم بهذا العمل الأستاذ حماد السالمي مدير جريدة الجزيرة بالطائف مشكوراً وأرجو أن يوفق .

إنسأن شراً أو رغبة فى التسلط والعصبية الفكرية فلا أديم معه النقاش والحوار وأبتعد عنه . فلا جدوى من محاولة فرض الرأى المعارض .

وكم من فائز فى نقاش ورابح فى حوار خسر ود نظيره وغرس فى قلبه الحقد والبغضاء لأنه انتصر عليه .

أنا دائماً ابني جديداً ولا أنقد فاضلا فقد كنت فى بداية حياتى الفكرية ناقداً جامحا أهاجم الكتاب والمنحرفين لردهم إلى الصواب .

وما غفر لى حتى قول الحق والنقد العلمى السليم هذا العنف .

وقد قبلت جميع النقدات وسعدت بكل الآراء التى قيلت عنى ولو كانت كاذبة وحاقدة لأنى أتعلم منها الجديد . ومتى كتب الناقد فهو يكتب إما لأنه حسد إنتاجى وأراد أن ينفس عن حقده وبذلك يرتاح وينفس عن نفسه وينسى عداءه لى بعد الكتابة ، أو أنه يرى إنتاجى كبيراً ويريد أن ينال منه للضخامة التي يراها فى هذا الإنتاج وليحس بأنه لا يقل قيمة وقابلية عنى فى إنتاجه .

ما حاولت إيقاف ناقد كتب عنى ومنعته من الكتابة حتى فى المطبوعات التى كنت أشرف عليها ، لأنى حريص على حرية الفكر . ولو لم يكن إنتاجى مستحق النقد لما أضاع الناقد وقته فى دراسته والكتابة عنه . إن خير مثال أردده أن الشجرة المثمرة هى التى يكثر عليها ضرب الأحجار لتقع ثمارها ويأكل منها الجائعون . وهل رأيت شجرا بلا ثمرة يضرب بالحجارة ؟

أجوبة المبدعين

الرسائل التى تصلنى ووصلتنى كثيرة ولا يمكننى عدها وبخاصة أننى أتلفت كثيرا منها لما ضاقت بها الملفات وكثرت أسفارى خارج العراق وتنقلت من قطر إلى قطر ومن منزل إلى منزل فى القطر نفسه . فلو جمعتها

لأخذت حيزاً كبيراً لا طاقة لى به . وكانت الرسائل التى تصلنى وأنا فى المجمع أكثر من الرسائل الرسمية التى تصل إليه . وعندما كنت عميداً فى

العين كانت أضعاف ما يصلنى من الرسائل الرسمية . فقد حبانى الله بأصدقاء كرام وأحبة أوفياء من كل الأصناف والطبقات من الموظف الصغير إلى صاحب الرتبة العليا . . وما سكت واحد منهم عن الرد أو عن الإجابة ما عدا أولئك الذين غرتهم السلطة وتملكهم غرور الكرسى ، وهم قلة أكتب إليهم مضطراً وللحاجة رسمية .

ومازال بريدى يفيض بآلاء الأخوة وحب الزملاء وجميل هداياهم الفكرية وأشعر بسعادة عندما يكتب لى صديق أو زميل . وإذا تأخرت رسائل الأصدقاء الأحباء أكتب لهم وأسأل عنهم وأبحث عن أسباب التأخير .

إن الرسائل التى وصلتنى ومازالت تصلنى فكرية أو شخصية وقلما هاجمتنى رسالة أو نقدت كتاباً أو قصيدة . ولم يتفضل مفكر أو ناقد أن كتب لى رسالة توجهنى نحو الصواب وتبصرنى بالخطأ . فالمجتمع العربى مجامل إذا رأى الخطأ لا يقومه وإذا بصر بسوء تصرف تركه دون أن ينبه إلى السيء . لذلك كثرت فى الساحة أعمال أصحاب الشر ، وللأسف انتشرت مقولة (أنا شعليه) أو كما يقول المصريون(معليش) .

إن كثيراً من الكتاب والشعراء يكتبون أشياء تخالف أفكار النقاد الأدباء فلا يرد عليها كبار الرواد ــ خوفاً من الرد القاسى وابتعاداً عن قولة السوء . وكان حرياً بالمفكر الرائد ألا يسمح بانتشار ما يراه مجانباً الرأى الأصوب ومتى كان الكاتب سليط اللسان يعتمد على جماعة أو حزب أو ناد فكرى اجتنب الناقد الرد عليه . وانتشرت مقولة (القرج خاتونة المحلة) فانتشر بعض الأدب والفكر الذى برهنت الأيام على ضآلته وضحالته .

حفظ الرسائل

ليست لى طريقة فى حفظ الرسائل ، فأنا أضع الرسائل فى ملفات لأنى لا أجمع كل الرسائل التى تصلنى لكثرتها بعد أن اختار ما استفيد منها فى رأى للشاعر أو الكاتب أو فى خبر أوثق به آرائى ، أو حادثة حدثنى بها مفكر عاصرها .

لى صلات وصداقات واسعة مع كثير من كتاب العالم وعضويتى فى مجامع اللغة العربية وجمعيات الأدب والفكر تكاد تشمل عشرات من المبدعين والكتاب والشعراء ، وأكثرهم معروف وقد كتب عنهم فى كتب أو معاجم أو فيما يصدر عن المؤسسات مثل مجامع اللغة العربية فى القاهرة وبغداد ودمشق والأردن .

الفصل السادس

المؤلفات

الفصل السادس

المؤلفات

إن أول مطبوع لى كان مجموعة شعرية سبق أن نشرت كثيراً منها فى الصحف المصرية وأردت أن أختم حياتى الشعرية وأبدأ حياة جديدة . فعمدت إلى إحراق الشعر الذى نظمته فى تجاربى فى كلية الآداب وقد رثيت هذه القصائد بقصيدة مطلعها :

احترقى والتهبى يا نفثات الكبد ضاعت لمان حلوة بين لقا وموعد
لم يبق من لذيذها إلا جوى التنهد فــاحــترقــى والتــهــبى

وبعدها ندمت على حرقها . وقد كان أحد الصحب الكرام معجباً بشعرى جمع مجموعة منه . ولما رأى الأسف على ما قمت به جاءنى بالمجموعة التى يحتفظ بها . وخشية من أن تعاودنى فكرة إتلاف هذا الشعر بادرت إلى طبع المجموعة فى الإسكندرية سنة ١٩٥٠ م وكانت الطبعة الأولى ولما نفدت الطبعة الأولى ، ولم يكن العدد غير ألف نسخة وجدت عند بعض عشاق الشعر يوماً نسخة مخطوطة من هذه المجموعة التى أسميتها (فى ضمير الزمن) فأعدت طبعها فى القاهرة وكنت شديد التردد فى طبعها فأخذتها للشاعر صالح جودت وحدثته بالقصة وقلت له : لا أريد أن أطبع المجموعة لأنى وجدت بعض أدباء ينسخونها بخطهم فهل

تصلح المجموعة لإعادة الطبع ؟ .. قال أرجو أن أراها .

أخذها الشاعر الكبير معه ورجوته أن يكون قاسيا ويخبرنى بأن أطبعها أم لا . وكنت أقابله يومياً لأنى كنت أحاضر فى معهد الدراسات العربية وكان لى صديق عزيز آخر هو أحمد رامى وكنا نلتقى يومياً فى دارى أو دار صالح جودت . فقد كان صالح أكثر الناس كرماً وأجمل الناس خلقاً وإن اختلفت معه فكراً وسياسة وما رأيت فى مصر أكرم منه يداً ونفساً .

وبعد ثلاثة أيام أعاد إلى المجموعة ومعها رأيه بصورة مفصلة فوضعت هذا الرأى مقدمة للطبعة الثانية التى وجدها صالحة وأثنى عليها رحمه الله . . . وكتب لها نقداً مفصلاً وقد أعيد طبع هذه المجموعة للمرة الثالثة بنفقة دار أمية للنشر فى الرياض بعد أن حذفت ما أمر الرقيب بحذفه مما لا يماشى آراءه.لذلك فالطبعة الخاصة بالسعودية ليست النسخة الكاملة وعسى أن أعيد طبعها طبعة رابعة خاصة فى العراق لأن أكثر شعرى طبع فى القاهرة .

رأى النقاد

مع أننى كنت جديداً على عالم التأليف فقد قوبل شعرى قبولاً حسناً من الكتاب الذين كتبوا عنه والزملاء الذين قرضوه . وقد فُهرس فى (من رحلة الحياة) وأعيد نشر قائمة فى خاتمة (شخصية يوسف عز الدين الأدبية) . ومن أوائل الذين كتبوا عن مجموعتى الأولى بصورة مستقلة :

١ ــ الكاتب التونسى أبو القاسم كرو ، فقد نشر المقالة فى جريدة اليقظة فى بغداد وأعاد نشرها فى تونس فى (الندوة) .
٢ ــ الأستاذ فيصل حسون فى جريدة لواء الاستقلال ببغداد .

٣ ـ الأستاذ وحيد الدين بهاء الدين فى جريدة كركوك العدد ١٣٨٣ سنة ١٩٥٢ وأظنه نشر هذه المقالة فى أحد كتبه .

٤ ـ عبد الحميد الدجيلى ضمن مقاله الأسبوعى عن الإنتاج الأدبى وقد أذيع من إذاعة بغداد ونشر فى إحدى جرائد بغداد ولعلها (اليقظة) .

كما كتب عن هذه المجموعة جماعة ضمن كتبهم منهم :

١ ـ الدكتور داوود سلوم فى كتابة تطور الفكرة والأسلوب فى الأدب العراقى فى القرنين التاسع عشر والعشرين . مطبعة المعارف ١٩٥٩

٢ ـ الأستاذ خضر عباس الصالحى فى كتاب شاعرية يوسف عز الدين مطبعة المعارف ١٩٦٢ مع مقالات فى البيان اللبنانية .

٣ ـ الدكتور عبد الله درويش فى مقال نشر فى مجلة البلاغ . العدد ٤ ـ يناير ١٩٦٦ بعنوان الإطار والمضمون فى شعر يوسف عز الدين .

وتوالت المقالات من عدد من نقاد وكتاب كرام لا أذكر أسماءهم ولا المجلات التى نشرتها .

تواريخ المؤلفات المطبوعة

١ ـ **فى ضمير الزمن،الإسكندرية ١٩٥٠ ثم ١٩٧٠ ، ١٩٨٥**
مجموعة شعرية صورت حياة طالب الجامعة الوجدانية .

٢ ـ **ألحان ، الطبعة الأولى الإسكندرية ١٩٥٣ ثم ١٩٧١ ، ١٩٨٥**
مجموعة شعرية فيها حياتى العاطفية والسياسية فى سن العلم .

٣ ـ **الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر ١٩٥٨، ١٩٦٥ ، ١٩٧٧ .**
أول دراسة جامعية كتبت ونشرت عن العراق فى هذه الفترة .

٤ – الشعر العراقى الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية–١٩٦٠ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٧ .

٥ – لهات الحياة–١٩٦٠ ، ١٩٧٧ .

شعر يعكس حياة الشاب فى رحلة الغربة وبخاصة فى أوربا وأثر الغرب ومشكلاته فى شعره .

٦ – Poetry And Iraqi Society 1900 - 1945

حياة العراق الاجتماعية والمرأة والفقر والتعليم والإقطاع وأثرها فى الشعر .

٧ – مخطوط شعر الأخرس ١٩٦٤ .

قصائد من شعر عبد الغفار الأخرس ليست منشورة فى ديوان شعره .

٨ – فى الأدب العربى الحديث : بحوث ومقالات–١٩٦٧ ، ١٩٧١ ، ١٩٧٣

مقالات متعددة عن شعراء العرب والتيارات الأدبية والفكرية فى ضوء علم النفس والنقد التطبيقى الحديث . أول كتاب فى النقد النفسى فى العراق .

٩ – داوود باشا ونهاية المماليك فى العراق–١٩٦٧ ، ١٩٧٦

بحث عن حياة العراق الأدبية فى القرن التاسع عشر مع توضيح مكانة داوود باشا وكيف انتهت حكومة المماليك على يد على باشا اللاز .

١٠ – مخطوطات عربية فى مكتبة صوفية الوطنية–١٩٦٨

قائمة بمخطوطات الأدب والتاريخ وغيرها الموجودة فى مكتبة صوفية فى بلغارية مع وصف علمى لكل مخطوط والإشارة إلى المطبوع منها وهو أول كتاب عن مخطوطات فى بلغارية .

١١ – الاشتراكية والقومية وأثرهما فى الأدب العربى الحديث–١٩٦٨، ١٩٧٦

تطورت فكرة الاشتراكية حتى أصبحت سياسة للأحزاب وتطورت فكرة القومية والاشتراكية فأثرتا في الأدب العربي وتجديده .

١٢ ـ فهمي المدرس من رواد الفكر الحديث-١٩٦٩ ، ١٩٧٦

دراسة عن مفكر من رواد الفكر الحديث وما عاناه في تأسيس أول جامعة في العراق ، وبحث عن التعليم العالي وجذوره وبداياته وأثر المتناقضات الفكرية في العراق .

١٣ ـ النصرة في أخبار البصرة (للأنصاري) تحقيق-١٩٦٩ ، ١٩٧٦

تقرير كتب إلى والي البصرة في القرن التاسع عشر يوضح فيه حياة البصرة الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية وطرق الإصلاح لرفع المستوى الحضاري للبلدة .

١٤ ـ شعراء العراق في القرن العشرين جـ١-١٩٦٩

جمعت فيه عددا من الشعراء في العراق كتبوا تراجم حياتهم بأنفسهم مع مختارات من شعرهم . وهو أول كتاب في اللغة العربية يكتب فيه المبدعون عن أنفسهم . وأدخله أستاذي محمد خلف الله أحمد ضمن كتابه (من الوجهة النفسية) لريادة البحث في علم النفس الأدبي .

١٥ ـ من رحلة الحياة-١٩٦٩ ، ١٩٨٥

ترجمة مركزة لحياة الشاعر من شعره وقائمة بأسماء الكتاب والنقاد الذين كتبوا عن شعره .

١٦ ـ Modern Iraqi Poetry: Social and Political Trends 1971

يبحث في التيارات السياسية والاجتماعية من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين حتى ١٩٣٩ .

١٧ ـ الرواية في العراق : تطورها وأثر الفكر فيها-١٩٧٣

بداية الرواية العربية في العراق وأثر الرواية الغربية في تطورها واتجاهات الرواية وأشهر كتاب الرواية وروادها في العراق .

١٨ ـ القصة في العراق : جذورها وتطورها-١٩٧٤

كيف بدأت القصة في العراق من المقامة ثم الأحلام وكيف كانت وعاء لكتاب القصة وكيف تغلب الكتاب على الأسلوب القديم وأهم الرواد الذين كتبوا القصة .

١٩ – إبراهيم صالح شكر وبواكير النثر في العراق –١٩٧٥

تناول الكتاب حياة أحد رواد النثر الفني في الصحافة وكيف تحول النثر من الأسلوب القديم إلى الأسلوب الحديث والصلات المتعددة للرواد . وفي الكتاب مقالات مختارة .

٢٠ – تطور الفكر الحديث في العراق–١٩٧٦

بحث عن بداية النثر في القرن التاسع عشر وأثر العوامل الخارجية والداخلية في التجديد وعوامله المؤثرة فيه وبعض القضايا الفكرية والاجتماعية المعاصرة وآراء في الشعر حتى الحكم الوطني في العراق .

٢١ – قضايا من الفكر العربي– ١٩٧٨

يشتمل الكتاب على عدة أمور في الأدب والمنهج الجديد ودوره في التطوير وبحوث عن أعلام الفكر والأدب .

٢٢ – قلب على سفر–١٩٧٨

رواية تمثل حالة طالب في أوربا وما في حياتها الحضارية والاجتماعية من هموم وصورة لحياة الطالب الذي يصل إلى بلاد الغرب لأول مرة وتصوير حياة الغرب المختلفة .

٢٣ – فصول في الأدب الحديث والنقد–١٩٨١

محاضرات عامة عن التيارات الغربية كالرومانسية والاتباعية والرمزية في دراسة عن تيارات الأدب والفكر العربي وأبرز الشعراء كالبارودي وأحمد شوقي والرصافي والزهاوي والشابي وفدوى طوقان .

٢٤ – الحركة الفكرية في العراق–١٩٨٤

يشمل الحركة الأدبية من ١٧٤٩ – ١٩٢٠ وأسباب تأخر التطور وأثر الدولة العثمانية في الأدب وحضارة الغرب والقومية والسياسية وعوامل

اليقظة الفكرية وأبرز مظاهر التجديد فى الفكر فى العراق .

٢٥ ـ التحدى الحضارى والغزو الفكرى ١٩٨٥ .

محاضرة ألقيت فى مؤتمر الإعلام بعنوان (مايريد التريبون من الإعلاميين) فى سنة ١٩٨٢ فيها أثر السيطرة الثقافية والغزو الفكرى فى الفكر العربى المعاصر .

٢٦ ـ SONGS FROM BAGHDAD

قصائد متنوعة تمثل عدة حالات فكرية وروحية ووجدانية ترجمها عدد من الأساتذة الكرام . طبعت فى لندن سنة ١٩٨٤ .

٢٧ ـ التجديد فى الشعر الحديث : بواعثه النفسية وجذوره الفكرية ـ ١٩٨٦ .

بحث مركز عن التجديد ومعناه والشعر عند الغرب ومعنى الحديث فى الشرق والغرب وشرح المصطلحات الشعرية والحداثة والأساطير والشعور بالنقص وأثرها فى نفس الشاعر .

٢٨ ـ ثلاث عذارى ـ ١٩٨٧ .

مجموعة قصصية تشرح حال أبناء الطبقة المتوسطة والشعبية وما فيها من الحب والبساطة التى تعتمل فى فكرهم وحياتهم اليومية .

٢٩ ـ LASPONTANEITE ترجمة الدكتورة درية نجم .

دراسة لشعر الشاعر وحياته وأدبه وترجمة لجانب من شعره إلى اللغة الفرنسية ونظرة الباحثة إلى هذا الشعر ومقارنة مع الأدب الفرنسى طبع للمرة الثانية فى القاهرة بعنوان التلقائية فى شعر يوسف عز الدين .

٣٠ ـ قول فى النقد وحداثة الأدب ـ ١٩٨٧

يشتمل الكتاب على دراسة للعامل النفسى فى الأدب وتطور الشعر الحديث وآراء متعددة فى الأدب والمجتمع وتطور النقد الحديث والسياسة والأدب وضعف أدب الشباب ودراسة للأصالة وعلاقتها بالحداثة .

٣١ ـ همسات حب مطوية ـ ١٩٨٧

مجموعة شعرية فيها من الأدب الجديد والأصيل يرسم الشعر فيها حياة الشاعر في مراحل متعددة .

٣٢ ــ خيري الهنداوي : حياته وديوان شعره ــ ١٩٦٥ و ١٩٧٤

دراسة للشاعر وحياته في العراق وأهم مظاهر الحياة العامة والأدب والنقد والفكر والحضارة وما مر على العراق من أحداث سياسية واجتماعية وفكرية وإنسانية مؤثرة .

٣٣ ــ تراثنا والمعاصرة ــ ١٩٨٧

مجموعة مقالات في التراث العربي ألقيت في مجامع اللغة العربية فيها إشارات عن الأصالة والتراث العربي والمصطلحات وتطورها وتوحيدها .

٣٤ ــ وعادت الذكرى بغرائبها وطرائفها ــ ١٩٨٨

ذكريات طالب سافر من العراق إلى لندن للدراسة وما صادفه في الطريق الطويل من غرائب وطرائف وكيف قابل حضارة الغرب في دراسته والمجتمع الغربي بتناقضه .

٣٥ ــ إلى الديار الممنوعة (طبع ١٩٨٩)

في الكتاب ذكريات السفر إلى البلاد الاشتراكية : الاتحاد السوفياتي وألمانية الديمقراطية والصين الشعبية .

٣٦ ــ أثر الأدب العربي في مسرى الأدب الغربي ــ ١٩٩٠

دراسة للأدب العربي وتأثيره في الأدب الغربي وما ترجم منه إلى لغات الغرب .

٣٧ ــ بين المحافظة والحداثة ــ ١٩٩٠

دراسة نقدية للشعر المعاصر .

٣٨ ــ حلو الذكريات ومرها ، وهو الكتاب الذي بين يديك ــ ١٩٩١ .

٣٩ ــ النوريس المهاجر (رواية) .

حديث عن حرية الفكر في الوطن العربي ومعاناة الشعب من الحاكمين (في المطبعة)

٤٠ ــ آراء نقدية نجت من الوأد مما لم تنشره الصحف والمجلات وحذفته

من المقالات التي نشرت (في المطبعة) .

أهمية الكتب المطبوعة . .

الكتاب جزء من المفكر ولا يمكن أن يقول هذا الكتاب أهم من هذا الكتاب ولكن يمكن أن تصنف الكتب بالنسبة للدارسين والمفكرين والعلماء ومؤرخي الأدب أو بالنسبة للإبداع والمبدعين لأن المؤلف جزء من حياة الكاتب ومن روحه ومن معاناته ويصور جانباً من حياته ، وفيه فكره وطموحه وآماله أو هو يعكس العواطف العميقة والأفكار التي يريد أن يحققها في أمته والمجتمع الذي يعيش فيه. ولذلك ليست هناك كتب مهمة وأخرى قليلة الأهمية لأن كتب المؤلف مثل أولاده . لا يمكن أن تفضل واحداً على الآخر . وقد تكون الأهمية نابعة من أثر المؤلف في الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية أو من مقدار المعاناة والوقت والصعوبات التي جابهها كاتباً . ومن هذا المنطلق فإن كتبي التي كتبتها في الأدب وتاريخه والنقد أثرت في الدرجة الأولى في تاريخ الأدب الحديث ونقده ، فقد وضعت أول لبنة علمية وجامعية في ميدان الأدب العربي في عدة كتب منها :

١ ـ الشعر العراقي في القرن التاسع عشر : خصائصه وأهدافه .
٢ ـ الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية .
٣ ـ في الأدب العربي الحديث : مقالات وبحوث نقدية .
٤ ـ قول في النقد وحداثة الأدب .
٥ ـ أثر الأدب العربي في مسرى الأدب الغربي .
٦ ـ التجديد في الشعر الحديث : بواعثه النفسية وجذوره الفكرية .

فقد ظهر أثر هذه الكتب في كتابات الباحثين الجادين سواء بالاستفادة الكاملة أو الجزئية من هذه الكتب بل أطلقت على بعض الكتب الأسماء التي وضعتها أنا وظهرت العناوين نفسها على مؤلفات جاءت بعد كتبي .

الريادة الأولى

أنا أول من أرخ للأدب العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين برسائل جامعية، ولم يسبقني في هذا المضمار سابق لا لعبقرية مني وإنما لأن الساحة الأدبية والفكرية لم تكن قد ارتادها طالب جامعي قبلي . وقد خدمتني الظروف والصدف في البحث والدراسة ، ومازالت حقول المعرفة واسعة ومضامير البحث العلمي خالية وبحاجة إلى بحوث ورسائل جامعية . وأسعدني أن يسير في هدى خطاي الدارسون ويعجب بما أخط الباحثون ولكن الذي يضايق البحث العلمي عدم ارتياد المجهول من هذه الساحة . ومع أني وضعت عدة عناوين ومواضيع جديدة للدراسة أسهل للدراسات الجديدة السبيل لكن الباحثين مع الأسف يسيرون في الطريق المعبد وتلك طبيعة البشر ، السير في السبيل السهل مادام واضحا ومعبدا وسهلاً .

وقد أعيدت طبعات كتبي عدة مرات وبأقطار متعددة وبأشكال متنوعة .

فالأهمية تكون بما نقدمه للفكر والبحث العلمي من تطور وتجديد أو إضافة إلى الجديد الذي أصبح قديماً وكان جديداً .

المعاناة والإبداع

لم أحس بأية معاناة في إصدار كتبي وطبعها ، فقد قُدمت لي المساعدات المالية من مؤسسات العراق على طبع كتبي ومن ثم جاءت المؤسسات الأخرى وأخذت تطبع كتبي على نفقتها وكان التوزيع جيداً .

وأول كتبي العلمية طبع في العراق ، وساعدت الطبعات الأولى التي طبعتها في العراق على إعادة طبعها في القاهرة . فقد طبعت الطبعة الثانية من كتابي

الشعر العراقي في القرن التاسع عشر والشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية في القاهرة وطبع منهما كميات كبيرة وزعت في جميع أنحاء العالم ، كما طبعت الطبعة الثالثة منهما في القاهرة أيضا وبعدها طبعت لي القاهرة (في الأدب العربي الحديث) وأسهمت في نشر كتبي سعة التوزيع في جميع أنحاء العالم .

وأطبع أحيانا بعض كتبي على حسابي الخاص حتى أتخلص من الانتظار الذي تفرضه كثرة الكتب التي قدمت للنشر . وللقاهرة فضل في نشر كتبي وبخاصة الهيئة المصرية العامة للكتاب . ونشر لي معهد الدراسات والبحوث العربية ستة كتب وزعت على جميع المؤسسات الثقافية والجامعات العالمية .

ومن الطريف أن أذكر أنني لما بدأت في الطبع والنشر ظهر لي أولا (الشعر العراقي في القرن التاسع عشر) وذهبت إلى إحدى المكتبات التي تبيع الكتب ورجوتها أن تأخذ خمس نسخ تضعها أمانة لبيع ما يمكن بيعه، فرفض صاحبها لأن في مكتبته كثيراً من الكتب . ولما راج الكتاب وكثر طالبوه جاء بنفسه ورجاني أن أعطيه خمسين نسخة ويسلمني ثمنها نقدا .

ضحكت وقلت له : للأسف فاتك القطار ، فالكتاب لم تبق منه أية نسخة .

ومن الصدف الجميلة أن كتبي شديدة الرواج في العراق لأنها تمس الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية فيه . والعراق بلد يقرأ كثيراً .

ولعل المعاناة الحقيقية هي عندما أقوم بإعداد الكتاب نفسه لأنني أحاول أن أرتاد طريقاً لم يعرفها أحد من قبل . وإن عكفت على هذا المضمار لابد لي أن أسير بأسلوب جديد ما سار فيه واحد قبلي من الباحثين . ويجب أن أضيف جديدا أو أكتشف أموراً لم يفطن إليها من كتب قبلي . ولعل

المعاناة الأكثر مشقة أنني أبدأ من الصفر ولا أعود إلى ماكتبته من قبل ، ففي تأليف أي كتاب أحاول أن أدرس السبيل وكأنني جديد على البحث العلمي . لذلك اختلفت كتبي في :

١ – العرض العلمي،فلكل كتاب عرض علمي يختلف عن غيره من الكتب .

٢ – أسلوب المعالجة،يجب أن اتخذ فيه أسلوباً حديثاً بالقياس إلى مؤلفاتي .

وتبدأ المعاناة

أولاً : في وضع الخطة الجديدة بعد ارتياد مضامير هذا البحث الجديد .

ثانياً : في جمع المادة،فإنني أقرأ حتى ما سبق أن قرأت لأن النظرة تختلف ولأن جوانب البحث تختلف .

ثالثاً : في تصنيف المواد التي جمعتها . ومع أن جمع المادة وتصنيفها يسيران حسب خطة البحث فإن التعب الجسمي والتدقيق الفكري يرهقان النفس والفكر والجسم .

رابعاً : كتابة الفصل الأول ، وهو بداية العمل العلمي الجاد ، وتكون فيه المعاناة كبيرة لأن اختيار المواد وتصنيفها حسب أهميتها العلمية من الجزازات التي جمعت تتعب الباحث الجاد . ولأن الفصل الأول هو الخطوة الأولى للبحث ، بل تكون أحياناً الهيكل العلمي الجاد ، لأن الاختيار بين كثرة المواد يرهق الباحث المدقق والكاتب الصبور .

الحرية والتأليف

وليس لي فلسفة في الكتب التي أصدرتها بالرغم من أنني درست الفلسفة والاجتماع وأردت أن أتخصص فيهما .. ولي منهج في البحث

العلمي وغاية واضحة في كتابة كتبي. إن أول ما أتحراه صدق الحقائق والبحث في أغوار النفس الإنسانية وفهم العوامل المؤثرة في التأليف والنظم أو كتابة الأثر سواء أكان شعراً أم تاريخاً أم اقتصاداً ، لأن كل مبدع لابد له في اللاشعور أهداف يريد أن يحققها ويحاول جاهداً إخفاءها بستار البحث العلمي والدراسة الجادة . ولفهم العوامل النفسية والمؤثرات الخارجية لابد من دراسة المبدع والعوامل التي مرت بها حياته .

وإذا توصلت إلى الحقائق عارية أفهم أنني وصلت إلى الصدق والصراحة في البحث . أما العامل الذي أريد أن أحققه من كتبي فهو أن أفتح أذهان الباحثين العرب وكل العرب الذين يقرأون ، وللأسف أن أكثرهم لا يقرأ ، مع ضرورة الحياد الفكري والابتعاد عن العصبية حتى يمكن فهم الأحداث كما جرت ومعالجة العوامل الخلفية التي خلقت الحدث . ولا يمكن أن يأتي هذا العامل إلا بحرية الرأي ووضوح الفكر ونشر المعلومات الصحيحة . ولأن العالم العربي مازال يرسف في قيود الخوف ويعيش في جب الفزع مما ورثناه من قرون طويلة فهو لا يقول الحقيقة ولا يصرح بما في نفسه لذعره من السلطة وحذره من الحاكم .

إن الأمة العربية لن تكون أمة متحضرة وتتسلم مقاليد الفكر العالمي إلا بالحرية . وبغير الحرية الفكرية وحرية البحث والكتابة والمعارضة لكل من يقف أمام الهدف سوف نبقى في سراديب القرون الوسطى بالرغم من أننا نستعمل مخترعات القرن العشرين ونتمتع بما أنتجه هذا القرن من وسائل الترفيه ، نستعملها بخوف وحذر ورهبة . ومع كل هذا أؤكد بصورة قاطعة بأن الحرية الفكرية هي قاعدة التقدم والتطور .

الفلسفة التي تقوم عليها المؤلفات

الفلسفة التي قامت عليها أكثر الكتب التي ألفتها تتلخص في نشر

المعرفة بين عدد كبير من القراء العرب . وينبغى أن تقوم دعائم هذه المعرفة على الصدق فى البحث والحياد فى تقديم الدراسة . لذلك ثار من تحدثت عنهم أو عن أسرهم للصراحة والوضوح والصدق وظنوا بأننى أريد بهم سوءاً ، ولم أكن أفكر إلا فى خدمة البحث العلمى المتجرد . لذلك كثر نقادى من كل الاتجاهات السياسية والفكرية لأنى اتخذت الصدق أسلوباً وخدمة العلم هدفا من أهدافى وغاية من غاياتى . فقد كتبت كثيرا من الكتب وما فى طياتها التحيز الواضح لفئة أو مذهب أو اتجاه فكرى ، وما أكثر هذا التحيز فى العراق ، وما أشده عند كتابنا ومؤرخى الحركة الفكرية . والصراحة فى البحث العلمى والعدل فى الأحكام والحياد فى اختيار النصوص رائدى الأول فى كل ماكتبت لأن الحرية هى الأساس الذى تقوم عليه حياة الحضارة المتطورة ، والصراحة هى التى تقود إلى تجنب الأغلاط وتأخذ المجتمع إلى حياة أفضل ، والعدل فى الأحكام يظهر السيء والحسن بوضوح وبساطة . وكنت ومازلت أحس بالمسئولية العلمية قبل أية مسئولية عاطفية أو فردية . ومتى انتشرت الحرية وسيطر العدل فى الحكم فسوف يتطور المجتمع وتسوده العدالة العامة فى كل نواحيه .

فأنا ملتزم كل الالتزام بقضايا المجتمع وأمتى العربية والحياة الإنسانية والحضارة العالمية . ومتى التزم الكاتب بمثل هذه الأمور لابد أن يكون عادلا فى نتائجه ، حراً فى قوله ، صادقا فى أحكامه ، صريحا فى إبداء رأيه لأن المفكر الصادق مع نفسه ومع مجتمعه سيكون أديبا حياً ولن يكون منفصلا عن الحياة الاجتماعية والفكرية . والحياة الفكرية هى الحرية الكاملة ، ولن تحيا المثل السامية إلا إذا كان لها جذر عميق فى الحضارة والخير والإيمان العميق والثقة المطلقة بالمثل لإصلاح ما فسد من أفكار وإعادة القيم الروحية مع الحرية والالتزام حتى يكون هذا الثالوث أساس حياتنا العربية وحضارتنا الإسلامية والمساواة التامة بين أبناء الأمة وإعادة الاعتزاز بالشعب

والدعوة إلى الديمقراطية القائمة على حرية الفكر وإعطاء الفرص لكل أبناء الشعب فى التفكير والحكم ليكون بينهم التضامن النفسى والإحساس بمنزلتهم بشراً وتكون للفرد شخصية مصانة من الاعتداء والتعسف.

وأرى ضرورة العناية بالشعب وبأدبه ، وأن يرتفع الأدب إلى مستوى فنى جميل ، وأن يرتفع الأديب بأدبه لا أن يهبط ، لأن الكتاب والمفكرين فى عالمنا العربى قد ابتعدوا عن رسالتهم الفكرية ومنهم من تخلى عنها فى أمور خاصة . ولم يحتفظ المفكرون بالقيم الإنسانية للحضارة الجديدة والفلسفة المشتركة بين أبناء الأمة العربية ، ولم ينشروا الحقائق العلمية بوضوح وبصراحة . وبذلك فالمنهج العلمى والفلسفة التى أسير عليها هى الفلسفة التى سار عليها الفلاسفة الذين أرادوا أن يطوروا المجتمعات التى عاشوا فيها بداية من أفلاطون وأرسطو حتى ابن رشد والفارابى وابن سيناء والفلاسفة المعاصرين فى الشرق والغرب،التى لو سار عليها المفكرون وأخلصوا للأهداف السامية فى الحرية الفكرية والعدل الاجتماعى والصراحة فى البحث العلمى والوضوح فى الهدف،لتغيرت الحياة الاجتماعية والفكرية فى الوطن العربى المتخلف المتمزق . فكثير من قواعده الفكرية هش،فقد أخذ من عوالم لم تعرف حاجات المجتمع العربى ولم تتمرس بمشكلاته المتعددة المتنوعة ولم تدرس تاريخه العريق ولا حضارته السامقة ولا تراثه الواسع .

وقد يظننى بعض المفكرين مغالياً فى آرائى بعيداً عن الواقع لأنه يقارن هذه الآراء بحالة العرب السياسية والفكرية فيجدها بعيدة التحقيق مع أن العالم العربى هو أقرب المجتمعات إلى التطور والتجديد وله قابلية واضحة فى أخذ معالم الحضارة الإنسانية والإضافة عليها. أو يرانى أرستقراطى الفكر والحديث من برج عاجى ، والواقع أنا أريد الحرية كل الحرية بصورتها الواضحة الجريئة ، ويجب ألا نقنع بالحرية التى يمنحها الحكام فى الوطن

العربي ولا النظم الاقتصادية المشوشة ذات الجذور المجهولة .

ولعل كل كتبي العلمية وبحوثي التي كتبتها طبعت بهذه الفلسفة . وفي ضوء دراستي يمكن أن يتبين الباحث الاختلاف الواضح في فهمي العلمي وأسلوبي في البحث عن غيري من الكتاب والمفكرين وبخاصة أولئك الذين يضعون على عيونهم أقنعة من أفكار مسبقة وآراء معدة ونظريات معلبة . أنا أصوغ أفكاري جديدة وآرائي تظهر من دراستي وعمق بحثي في الأمور ونظرياتي من واقع البحث العلمي الذي يفرض النظريات ويدخل الآراء الجديدة والأفكار المتطورة التي تخدم أمتي وشعبي وتدفعه إلى حرية الرأي والصراحة في القول والعمل .

الخسارة والربح في الإبداع ؟

ما فكرت في الخسارة أو الربح من بيع الكتب لأني لم أفكر تفكيراً مالياً في إخراج إنتاجي . فما حاسبت ناشراً أو بائعاً أو صاحب مكتبة . لذلك فقد كانت كتبي لقمة هينة لأصحاب المكتبات إلا القليل منهم . والسبب أنني أحصل على المساعدات المالية والمنح من المؤسسات على اختلاف مصادرها ولم أربح إلا عندما بدأت دور النشر الكبيرة تطبع كتبي مثل الهيئة المصرية العامة للكتاب ودار المعارف والمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ولكنه ربح محدود . وقد أستفيد مَنْ شراء بعض المؤسسات الرسمية من كتبي ولكنها فائدة ليست كبيرة بأية حال من الأحوال . ولكن الربح الكبير اقتصر على بعض الكتب التي أعيد طبعها عدة مرات ولكن لم أخسر في أي كتاب من كتبي حتى تلك الكتب العلمية التي لم يطبع منها غير ألف نسخة ، مثل الكتب التي طبعها معهد الدراسات العربية . وكان ربحي من الكتب التي أهديها للمؤلفين والأصدقاء ، فأحس بمتع عالية ولذة كبيرة عندما أهدي مؤلفاً من كتبي لإنسان أشعر بأنه سوف يبادلني الرأي

ويقرأ إنتاجي العلمي . فهاردت طالبا لكتاب مادمت أملكه . وأحيانا أشتريه وأهديه عندما أحس بأن طالب هذا الكتاب باحث أو طالب مخلص في طلبه راغب في الاستفادة أو بحاجة حادة لإنتاجي . إن الخسارة المادية ليست خسارة ما دمت أقدم للمثقف ربحاً فكرياً أو ثقافة علمية . ولعل من المؤلفين القلائل الذين يهدون كتبهم بأعداد كبيرة حباً بمتعة الإهداء ورغبة في نشر علمي وإنتاجي على الناس .

ومن الغريب أنني لم أكن أحتفظ بنسخة واحدة من كل مؤلفاتي حتى قيض لي الله صديقاً عزيزاً من خيرة الأصدقاء عرف ذلك فجاءني بأكثر من خمسة عشر كتاباً من كتبي مجلدة ومازالت في مكتبتي في العراق . وحاولت الاستمرار في تجليد نسخة من كل ما أطبع ، وأرجو أن أقدر .

إن الخسارة المادية لا أعدها خسارة لأن في إهداء كتبي لمن يقرأها ربحاً للفكر والأدب وهو لي خير ربح . فحسبي أن أجد إنساناً يقرأ لي ويعجب بفكري ويحبه وأحمد الله أن قراء كتبي في الشرق والغرب ممن يهتمون بالثقافة والأدب وفيهم قادة للرأي ورواد الباحثين وذلك هو ربحي الوفير ،وما أحلاه من ربح وأغلاه من تجارة .

ترجمة الإبداع

اعتمد بعض كتاب الغرب على كتبي في تأليف كتبهم عن الشعر العربي في العراق وقد ترجم شعري إلى عدة لغات منها :

١ ـ اللغة الإنكليزية فقد أسهم الأستاذ بوزورث المستشرق المعروف والأستاذ داود كاون وموريس وجماعة من الأساتذة العرب في ترجمته مثل الدكتور رضا حواري والدكتور عزت عبد المجيد خطاب والدكتور قاسم السامرائي والمرحوم عبد الستار فوزي وقد جمعت هذه القصائد المترجمة ونشرت في كتاب (نغم من بغداد) الذي طبع في لندن سنة ١٩٨٤ باسم

٢ ــ اللغة البولونية وكان للأستاذ يوسف بلافسكى عضو مجمع بولنده والأستاذ فى جامعة وارسو والدكتورة كرستينا سكارجينسكا فضل سبق الكتابة وترجمة جانب من شعرى فى كتابين صدرا باللغة البولونية مع الأستاذ جوزيف بلافسكى وكتاب منفرد للأستاذ نفسه .

١ ــ تاريخ الأدب العربى المطبوع فى وارسو سنة ١٩٦٨ .

٢ ــ الأدب العربى والمعاصر المطبوع فى وارسو .

٣ ــ الفكر العربى المطبوع فى وارسو .

٤ ــ يوسف عز الدين شاعراً وناقداً (رسالة ماجستير دريفنوفسكى) .

٥ ــ اللغة الإسبانية وقد ترجم عدد من القصائد وكتب عن الشعر أكثر من مرة ويمكن مراجعة الكتب التالية :

١ ــ الأدب العراقى المعاصر للأستاذ بدرو مارتينى مونتابث،مطبوعات المعهد الثقافى فى مدريد .

٢ ــ غرناطة للأستاذة لويزا كافيرو،معهد الدراسات العربية مدريد .

٣ ــ ..... وغيرها وصلت إلى سبعة مصادر .

٤ ــ الفرنسية وقد كتب كتاب كامل باسم La SPONTANE I TE بترجمة جزء من الشعر مع نقد للقصائد وتعليق عليها وبعض المقارنات مع الأدب الفرنسى الدكتورة درية نجم أستاذة الأدب العربى فى جامعة الإسكندرية وقد أعيد طبعه فى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠.

٤ ــ ترجمت الأستاذة ثريا علام قصيدة فى كتاب صدر عن أعلام الشعر العربى من مطبوعات الهيئة المصرية العامة ١٩٨٦ .

٥ ــ الإيطالية وقد ترجم المستشرق سيرجيو نويه Sergio Noia قصيدة واحدة. كما ترجمت فى أمريكا إحدى القصائد وللأسف لم يحتفظ بالنسخة التى ترجمت .

٦ ــ وترجم الأستاذ الدكتور رادى بوجوفتش قصيدة (ترنيمة إلى الزهراء) إلى اللغة اليوغسلافية .

الفصـــل الســابــع

الرحــــــلات

الفصل السابع

الرحلات

إن زياراتي متعددة للمدن في العراق ، فقد زرت أكثر مدن العراق زيارة استطلاع ومتعة وفائدة روحية وكنت أزور الكاظمية كل يوم جمعة لأن لي فيها صديق الدراسة الدكتور كامل الشيبي . وزرت جميع الأماكن المقدسة وبخاصة النجف وكربلاء فقد كنت أزورهما للإطلاع على ما فيهما من كتب في مكتباتها والاتصال بالشعراء والمفكرين فيها ، ولعل لها صلة روحية عميقة في نفسي لوجود الإمام علي كرم الله وجهه والشهداء الذين تربطني بهم رابطة الدم والقربى . والنجف من المدن القليلة التي نظمت فيها شعراً فقد قلت :

زادت إلى النجف المشرف رغبتي	لم تكفني منها زيارة زائر
لكنني رمت الإقامة حلوة	كي أرتوي من علمها المتكاثر

وهي قصيدة طويلة لا أدري أين ذهبت . ولي زيارات عديدة لسامراء الغالية . وقد زرت الموصل عدة مرات والحلة والناصرية والبصرة والرمادي مع القرى المحيطة بهذه المدن . وكانت الجولات الممتعة التي كنت أقوم بها في بعقوبة وقراها مثل (شفتة) وأصبحت جزءاً من بعقوبة . وكنا نذهب إليها ماشين مع الأتراب وإلى بهرز والهويدر والسادة . ولا تكاد

تكون هناك قرية أو مدينة فى لواء ديالى لم أزرها فقد زرت مندلى وأقمت فيها بعض الوقت وبلدروز والمقدادية وقرى هذه المدن وقضيت سنة دراسية فى قرية إمام عسكر معلما وعشت سنة طالبا فى المنصورية (ديلى عباس) ودلتاوة (الخالص) . ولكل مدينة مذاقها وحلاوتها بحسب تكوينها الجغرافى والتاريخى برغم التطورات التى دخلت عليها . وكانت هذه المدن والقرى صغيرة محدودة المساحة وقبلها بغداد . فقد كان فى بغداد جسران لا ثالث لها وكنا نركب الدراجة ونعبر الجسر ثم نمر بالكرخ ونعود من الجسر الثانى إذ كانت السيارات قليلة وكانت واسطة النقل العامة هى العربات التى تجرها الخيل . ولم تكن بغداد تتجاوز باب المعظم ولا الباب الشرقى . وكان دير الرهبان حدها الشرقى والسجن المركزى ومستشفى الأمراض العقلية حدها عند باب المعظم مع بعض البنايات التى بنيت لإقامة معرض بغداد الصناعى الزراعى الذى تحول إلى وزارة الخارجية ثم إلى دوائر متعددة .

وكانت سدة ناظم باشا وبقايا الخندق تمنع بغداد من الاتساع لأن الناس كانوا يخافون البناء خارج السدة خوف الفيضان . وبالفعل لما صار فيضان ١٩٥٤ وصلت المياه إلى حدود بغداد وهددتها . وكان صالح جبر فى الحكم وأراد إخلاء بغداد (الرصافة)وترك الفكرة لأن الذين يموتون بالأزدحام أكثر من الذين يموتون بالفيضان . وكان رأيه صائباً إذ بذلت الدولة جهداً كبيراً فى الحفاظ على بغداد . ولما بنى سد الثرثار قرب سامراء حولت المياه إلى الوادى الكبير وأمن الناس من الغرق . والطريف أن أعداء العهد الملكى أشاعوا بأن سد الثرثار مشروع استعمارى ، وهكذا كان يشيع أعداء النظام الملكى عن كل مشروع مفيد تقوم به الدولة أو مجلس الأعمار وكانوا يغطون أعينهم ببرقع أسود . فإذا بنى سد بخمة أو سد دوكان أشاعوا أنه مهبط وميناء للطائرات الإنكليزية . ولما بُنيت المدارس الكبيرة قالوا إنما سوف تكون ثكنات للجيش البريطانى . وأُشاعوا بإن (سالبو بغداد) مشروع فاشل وأن الآلاته قديمة وقد مر عليه أكثر من أربعين سنة ومازالت

آلاته تعمل وتحفظ الحبوب وتصد المجاعة عن العراق بعامة وبغداد بخاصة .

رحلات وصداقات

الرحلات إلى خارج العراق عديدة وكثيرة . فأول زيارة كانت إلى لبنان وعشت فى برمانة أكثر من شهر . وقد مررت أول الأمر بحلب ورأيت الفرق الكبير بينها وبين بغداد فى جمال البناء وارتفاع العمارات . إذ لم تكن فى العراق عمارات . وكنت أكتب فى جريدة حلبية قبل سفرى إليها اسمها (الوقت) ولا أدرى كيف قابلت الرجل صاحبها من آل (سياقة) فاحتفى بى حفاوة كبيرة وأردت أن أرى المكتبة فذهبت إليها ووجدت فيها أستاذاً فاضلاً اسمه خير الدين الأسدى وكان فى إحدى يديه عطل وقد ألف عدة كتب فى النحو واللغة وعدة كتب أخرى متنوعة مازالت فى مكتبتى فى بغداد .

وقد كان فيها الشاعر عمر أبو ريشة وحاولت التعرف عليه ولكن لم أسعد به . وقد وجدت شيئاً عجباً عندما ذهبت إلى مُتَنَزَه فوجدت الفتيات يجلسن مع الفتيان حول بركة من الماء ، وكان الحدث جديداً بالنسبة لإنسان عاش فى بعقوبة فى الدرجة الأولى وفى بغداد فى الدرجة الثانية وكانت مفاجأة مدهشة أن أسمع همسات الحب وقهقهات المحبين فى جو شاعرى غريب وجميل فنظمت أبيات أذكر منها :

بمتنزه السبيل رأيت حسناً سباني فيه منتزه السبيل
فما أحلى هدوء الماء فيه وما أشهى مياه السلسبيل
يداعبه النسيم بكل لطف دعابة شيق وجه الخليل
بأفياء الظباء صرعن قتلى فما تلقى به غير القتيل

وقد أهديت القصيدة إلى عمر أبو ريشة ونشرتها في مجلة الأديب وهى أول قصيدة لى تنشر فى المجلة إذ لم أنشر فى الأديب البيروتية غيرها من شعر . . وكنت أنوى البقاء يوما واحدا فى حلب ولدهشتى بقيت أسبوعا . . ثم سافرت إلى لبنان فوجدت جمالاً فى الطبيعة وفتنةً فى المناظر مّما أنسانى (حلب) وجمالها الساحر . فقد كان لبنان أجل تنسيقا وأحلى تنظيما وإن كان أهل حلب أكرم نفسا وأرق خلقاً من أهل المصايف فى لبنان .

وكنت أظن برمانة هى أجمل مصايف لبنان حتى قابلنى صديق أعرفه من بغداد وكان طالباً ذكياً من طلاب الطب عرفنى على أسلوب حياة أهل لبنان ومكرهم فى المعاملة المالية وأخذنى معه إلى فالوغة . كان رقيق الخلق ، أعاننى كثيرا فى غربتى وكان جميل الصحبة ريض الشمائل . عدت إلى العراق وكان كل الحديث عن لبنان وجمال لبنان . ولعل من الطريف أن أذكر حادثة غريبة تدل على حيل أهل لبنان ومكرهم .

كنت أحس بأنى مريض لكثرة ما كنت أقرأ عن الأمراض الصدرية التى تصيب الشعراء ، ولعلى تأثرت بالروايات المترجمة من اللغة الفرنسية . وكنت فى الوقت نفسه مراسلاً لإحدى الجرائد العراقية فزودتنى بوثيقة قد تساعدنى على تسهيل أمورى . فأصحاب الشأن يتقربون لأصحاب الجرائد ويرجون أن يكتب عنهم لاسيما أصحاب المصالح . . .

مصاب بالسل

وعندما سافرت من العراق كان معى فى القطار أحد مدرسى اللغة العربية ولم أكن أعرف عن السفر شيئا فأخذنى معه إلى برمانة وهناك كشف لى عن سره وقال بأنه جاء ليفحص صدره لأنه يشكو منـه ، فهل يمكن أن أصاحبه إلى طبيب مشهور إسمه نخو ، هو خير أطباء الأمراض

الصدرية . . تذكرت ما كنت أحس به وحبذت الأمر وذهبنا إلى الطبيب فى مصيفه . ولما دخلنا العيادة أراد صديقى أن يستفيد من كونى صحفيا فقدمنى على أننى أحد رجال الصحافة . ولما تم فحصه قلت له هل يمكن أن أفحص أنا أيضا .

ويا ليتنى لم أطلب هذا

كانت فرحة غامرة على وجهه . ثم قام بفحص صدرى وكان بجانبه صورة للرئتين . ولما أتم الفحص جاءنى بالصورة ووضع غطاء على أعلى الرئة وقال عندك بداية سُل وهى ليست كبيرة وسوف تشفى فى خلال ثلاثة أسابيع إذا دخلت المستشفى . كان يقول ذلك ببساطة وسهولة . وقلت له كم يكفى من المال خلال هذه الأسابيع الثلاثة . وكنت فى هذه الفترة أحسب ما بقى عندى من نقد ، فقد كنت نويت العودة بعد أسبوعين فاشتريت بعض الملابس والهدايا . . للأسرة . . وكان المبلغ الذى طلبه أكثر مما بقى معى من النقود .

خرجت من عنده بعد المناقشة وطلبت منه بعض الدواء حتى أدبر أمرى .

يا ألله . . . أنا مريض بالسل ؟

وكأن ثقل الدنيا نزل على ظهرى . وبسرعة غريبة وجدت خطاى تقاصرت وتعثّر على نزول الدرجات الثلاث من العيادة وأحسست بأن صحتى قد اضمحلت وفقدت تلك الابتسامة التى ملأت قلبى من جمال الطبيعة وضحكة الكون ، وبدت لى الدنيا كالحة . وعدت إلى المنزل الذى أسكن فيه وفتحت الشبابيك وكنت أضع أنفى فى الهواء الطلق وأعبُّ منه حتى أقتل هذا المرض الفتاك . كانت ليلة ليلاء كنت أعد نجومها ومتى تغور تلك النجوم . كيف أكون مسلولاً ولا أدرى ؟ ما ذنب أسرتى التى

سوف تصاب مثل بالسل ؟ يارب أجرنى يارب . . .

كان خوفى على أسرتى أكثر من خوفى على نفسى . . .

كيف آكل . . كيف أعزل نفسى عنهم ؟

أين أضع ملابسى وأدواتى . . هل أخبرهم ؟ هل أخفى الأمر عنهم ؟

كيف أخفيه عنهم . . . وسوف يصابون مثلى ؟

هل أقول لهم وقد يصابون بالصدمة والأسى والحزن ؟

لكن لو أخفيت عنهم الأمر سوف يمرضون وأكون أنا الجانى . .

وبدأت الأفكار السوداء والآلام الحزينة تعمل عملها فى روحى وتصرفى عن حياتى . وبلا مقدمات تذكرت أن فى العراق مصحا فى قرية (بحنس) ترسل إليه الدولة المصابين بالسل وتصرف عليهم وتوظف له الأطباء .

لماذا لا أذهب إلى هذا المصح ؟

إن مديره طبيب مشهور، ولعل اسمه الدكتور إلياس الخورى .

ذهبت إلى بيروت وطلبت مقابلته فى عيادة فى المستشفى . ودفعت أجور الفحص . وبلا مقدمات قلت له : إننى مصاب بالسل .

نظر إلىّ الرجل نظرة استغراب وأعاد نظره فى مرة أخرى . ونظر إلى وجهى وكأنه يمتحن فيه الانفعالات النفسية ،أو لعله أراد أن يرى أثر المرض فى صدرى ، قال : دعنى أفحصك ، فقد تسلمت السكرتيرة الأجرة وعلىّ فحصك .

وكان الرجل شديد العناية واستغرق وقتا غير قصير . . ثم ضحك وقال:ليس فيك أى مرض.أنا مسلول وأنت سليم . . أنت صحيح وأنا مريض . . .

قلت : له هل أنت متأكد من ذلك ؟

قال : الأشعة هى الحكم العدل بينى وبينك وأنا متأكد من النتيجة وأنت تضيع مالك فى أخذ صورة الأشعة .

لكن الدكتور نخوكان يتكلم بلهجة الواثق والغريب أنه أقنعنى بأن مرضى لن يظهر بالأشعة وسوف يظهر بعد سنوات إذا لم أبادر بدخول المصح الذى يشرف عليه وأن الوقت لن يستغرق غير ثلاثة أسابيع فأشفى تماماً . .

أرسلنى الدكتور الخورى إلى الأشعة وبعدها سرت نفحات الهدوء والرضا فى نفسى ووجدت نفسى قد تقدمت كثيراً وأن حياتى الصحية بدأت تقوى ولكن كلام الدكتور نخوكان يدور فى نفسى ويطرق قلبى وأذنى بعنف فقد دخل فى اللاشعور :

لن تظهر أعراض مرضك فى الأشعة . . أنا أعرف ذلك .

عدت إلى بعض حالتى النفسية وبدأت أقرأ وأمشى فى الهواء الطلق وآخذ الدواء الذى وصفه لى ولم يكن سوى مقويات عامة وفيتامينات متنوعة . .

وعدت إلى الجبل ، فقد أخبرت بأن الأشعة سوف تظهر بعد يومين . . وكان القلق والخوف والحسرة مازالت تلازمنى وإن انحسر أكثر من نصفها .

والحق أن هذا الطبيب كان بارعا فى الحديث عندما أوهمنى برأيه الذى أدخله فى عقلى بعبارات مختارة عميقة التأثير لم أقدر على الفكاك منها برغم تأكيد الدكتور الخورى لى . لماذا يصدق الإنسان بالسوء ولا يصدق بالخير ؟ لماذا تكون نفوسنا نحن أبناء الشرق أقرب إلى الحزن منها إلى الابتسام ؟ نحن عشنا طوال حياتنا فى الشقاء والألم بعد أن كثرت الكوارث وتوالت الحروب والمصائب على أبناء العرب والشرق ، فباعدنا نصدق غير المؤلم ونرفض كل مفرح ومسعد للنفس والروح .

لذلك صدقت خبر الإصابة وتغلغل ذلك فى العقل والنفس لاستعداد

الحالة النفسية له . أما التكذيب فيحتاج إلى وقت طويل للتخلص من الجذور التى امتدت بسرعة غريبة فى نفسى وقلبى وكيانى .

كنت أعد الساعات والدقائق أنتظر الأشعة . وبادرت فى الصباح الباكر إلى الذهاب إلى بيروت ، فقالت لى المشرفة على الأشعة : ليست فيك أعراض أى مرض فى الرئة . ثم أخذتنى إلى الطبيب .

فضحك وقال ألم أقل لك إنك أضعت مبلغاً من المال ؟وابتسم وأردف قائلاً : كان حرياً بأن تصرفه على متعتك فى لبنان .

ضحكت ، وسرت نغمة الرضا فى قلبى وعادت وافدات الأمل تبسم أمامى تزحم الطيف الثقيل الذى بقيت آثار مخالبه فى روحى ونفسى .

حرت فى أمر هذا النحو
لماذا أصر على أنى مريض ؟
ولماذا حدد المدة بثلاثة أسابيع ؟
وأخيرا اهتديت بعد تفكير عميق .

قال صاحبى لهذا الطبيب إنى أعمل فى الصحافة ليستفيد هو من كونى صحفياً فاهتبلها فرصة أن يدخلنى المصح .

وظن بأننى سوف أكون رسول المصح إلى العراق وسيأتى أبناؤه المرضى إليه وسوف يصيب عصفورين بحجر واحد ويقول بأنى شفيته بفترة زمنية قصيرة . سوف أشهر أنا المصح بالكتابة عن المستشفى والمصح.إنها السفرة الأولى فى حياتى ولكنها جلبت لى الألم والحسرة وبقيت على نار من الخوف والرعب والحيرة والقلق،وواحد منها يهد حيل جبل راسخ وبطل صامد فكيف إذا اجتمعت هذه العوامل النفسية علىّ .

وقد بقيت كلمة الطبيب الغريبة ترن فى نفسى حتى سافرت فى السنة نفسها سنه ١٩٤٦ إلى جامعة الإسكندرية . وبعد قبولى فيها كان أول طلب

طلبته من طبيب الجامعة أن يرسلني للفحص الطبي وأخذ أشعة لصدري . . وكانت النتيجة أنني سليم من الأمراض . وأخذت أفحص نفسي كل سته أشهر خوفاً من ظهور المرض اللعين فجأة . كلمة واحدة من السوء فاق أثرها العميق كل التجارب العملية في سبيل الخير .

فضل مصر

وأما الرحلة التي بنت فكري وكياني وعملي وعلمي فهي التي سافرت فيها للدراسة إلى مصر ، فقد حولت حياتي كلها وأخرجتني من حالة العزلة الروحية والتفكير الإقليمي إلى تفتح فكري وجو عربي واسع ورؤى إنساني متطور . . .

إن لمصر علي فضلاً كبيراً ثقافياً واجتماعياً وأدبياً ، فهي المدرسة الفكرية التي علمتني الكثير من المعارف والعلوم . . .

واختلطت فيها بطبقة جديدة من الثقافة العالية ، وكان معنا في الكلية خليط من الثقافات اليونانية والإيطالية والفرنسية والأصالة العربية ، لأن الإسكندرية كانت مجمعا كبيراً لكل الأصول الغربية والعربية ويتمثل ذلك في الطلاب الذين كان بعضهم من أبناء أمم مختلفة وأمهات من مصر أو أمهات أجنبيات وآباء من مصر إضافة إلى أن الإسكندرية كانت مقسمة إلى قسمين :

١ ــ القسم المصري الأصيل بحياته الاجتماعية والفكرية والحضارية والتاريخية .

٢ ــ القسم الأجنبي وفيه مختلف الشعوب والأمم ، وكانوا يسكنون في الرمل وهو خارج النطاق القديم للإسكندرية العريقة ويمتد مع ساحل البحر .

وفى الكلية بدأت مواهبى تتفتح ، وكان الأساتذة خير من يشجع على البحث والدراسة والتتبع فأسهمت فى المواسم الثقافية ومهرجانات الشعر والسفرات العامة التى كان يشرف عليها اتحاد الطلاب والسفرات القريبة من الإسكندرية واطلعت على جوانبها الحضارية والعمرانية بالإختلاط بالطلاب المصريين ودعيت إلى دورهم وتعرفت على أسرهم ودعوتهم واتصلت بهم صلة وثيقة ويبادلونى الود والحب لأن مصر لا تعرف التفرقة العنصرية وتدفع أى إنسان له قابلية إلى الريادة بالتشجيع والمساندة .

سفرة الصين

بعد عودتى إلى العراق عملت مدرساً فى الثانوية ثم أكملت الدراسة العالية وعدت بالدكتوراة وكثرت السفرات وسافرت إلى أكثر أقطار العالم بداية من (هونك كونك) والصين التى بقيت فيها أربعين يوما متجولاً وكان السفر لمدة شهرين لم أتمكن من إتمامها وقابلت فيها أكثر الأدباء والشعراء دون أن أستفيد منهم علماً وأدباً فقد كانت سيطرة (ماوتسى تونك) على الرأى العام قوية وسيطرته قاسية وبالرغم من أننى قابلت (كوموجو) رئيس اتحاد كتاب الصين و غيره من الكتاب فما كنت أسمع إلا أراء (ماوتسى تونك) الذى لم تتعد المقابلة المصافحة فقد كان الحاضرون عدداً كبيراً من الكتاب والأدباء ولكن جلست مع (جون لاى) الشخص الثانى فى الصين وتحدثت معه وكان الرجل يتحدث بالصينية مع أنه درس فى الغرب .

فقلت له : يا سيادة الرئيس ، أنت درست فى الغرب فلماذا لا تتكلم بالإنكليزية أو الفرنسية ؟ فرد على ضاحكاً بالصينية ولا أدرى إن كان ذلك اعتزازاً باللغة الصينية أم أنه خشى أن يتحدث باللغة الأجنبية ويغلط فيها وأبت عزة نفسه أن يتحدث بلغة لا يحسنها . ورأيت أكثر مدن الصين حتى وصلت إلى (شنغهاى) وكانت بلداً كبيرا عليه طابع الغرب فى الأحياء فهذا

حى تحسبه من إنكلترا وآخر تراه من فرنسة وثالث من ألمانية فقد استعمرت الصين وقسمت بين عدة سلطات غربية وتركت كل أمة طابعها الحضارى والمعمارى . فى هذه الفترة كان الصينيون شديدى الحذر فى الحديث والتصرفات ، فقد دخل إلى غرفتى فى الفندق أحد الأدباء الكبار فلم يتكلم معى إلا بعد أن تحسس الجدران وجلس فى مكان لعله لم يجد فيه لاقطة صوت لتسجيل حديثه .

وكان المرافق كالجندى المطيع لا يقدر أن يعمل شيئا إلا بأوامر مسبقة . عندما مررت ببناية كبيرة ضخمة المعالم سألت ما هذه البناية ؟

قال : لى محطة بكين .

قلت : دعنا نذهب إليها . وما طل ولف بى أمام ساحتها . . وفى اليوم الثانى جاءنى وقال لى : هل تريد أن تذهب إلى المحطة .

قلت له : أردت رؤيتها لقضاء الوقت الضائع . . ولا أريد أن أذهب اليوم . لكن الرجل ألح ورجانى أن أذهب . . ويظهر أنه رتب مع الرؤساء ذلك الأمر وبالفعل ذهبت فوجدت من استقبلنى على باب المحطة بالورد وأخذنى إلى داخل المبنى ، وكان والحق بناء ضخما . وأخذ يحدثنى عن بنائها ثم أخذنى إلى مدير المحطة وأخذ يشرح لى أمورا أنا فى غنى عنها .

وقلت له : هل أنت مهندس . . . ؟

قال : لا .

قلت : هل درست علماً له علاقة بالقطارات وعملها ؟ قال : لا .

قلت له : كيف أصبحت مديراً للمحطة وكيف تدار المحطة من إنسان ليس مهندساً وليس له علم بالقطارات ؟ قال : عندى مساعدون وهم يقومون بكل شىء .

فقلت معناه إنك المدير وعينت فى العمل لأنك حزبى . قال : هذا صحيح .

سفرات أخرى

كما سافرت إلى موسكو وطاشقند وسمرقند وألمانية الشرقية وقابلت عدداً من الأدباء والشعراء . وكان السوفيات أكثر انفتاحاً من الصين فى العلاقات وفى حرية التصرفات ، هذا القياس مع فارق أن السوفيات لو قورنوا بالغرب لما اختلفوا عن أهل الصين .

أذكر أن أحد الأدباء زارنى وكانت له صداقة معى أو صلة سابقة . فلما أخذت أتحدث معه أشار لى أن أترك الغرفة . وكان بها ممر بين الباب الخارجى والباب الداخلى فقفل البابين وأخذ يحدثنى ولعلى أدوات الإنصات كانت داخل الغرفة .

إن التصنت على الضيوف والتجسس على الزائرين مهما علت مراتبهم ظاهرة معروفة عن الروس فقد جاء فى كتاب صلاح الشاهد الذى كان مرافقا للرئيس عبد الناصر فى زيارته لروسية قال : خرجت إلى الرئيس جمال عبد الناصر وأنا ألعن وأسب . فأشار إلى الرئيس أن أسكت . ولما وصلت إليه وكان يجلس خارج البناء أشار إلى زر من أزرار معطفى فكان مكبرة للصوت استبدلها المخابرات الروسية بطريقة لا أعرفها .

وعن غرائب السفرات والرحلات كتبت عدة مقالات منشورة فى الجرائد المحلية وأكثرها فى جريدة الجمهورية ، وجمعت فى كتابين طبعا فى القاهرة .

أما الرحلة التى أثرت أثرها الكبير فى حياتى العلمية والفكرية فهى رحلة العلم للحصول على الدكتوراة فقد كانت نقلة حضارية وعلمية وأثرت فى أكثر اتجاهات الحياة الحضارية لدى .

الغرب يختلف عن الشرق فى كل شىء فى حياته الاجتماعية والفكرية والعلمية والاقتصادية.هناك الحرية الفردية مصونة واحترام الإنسان لا يعدله

أي احترام في الشرق . فالإنسان حر وبريء وله مقامه المحترم وشخصيته الكبيرة . وسواء أكان فراشا أم رئيس دولة فله حرية واحترام ما كنت أصدقه وثقة كبيرة واسعة بالإنسان مهما كان أصله وجنسه . في العالم الغربي أو المتحضر لا يرون الإنسان من الرعايا الذين يجب عليهم الطاعة إنما يعامل مواطنا ويحس بأنه جزء من الدولة لأنه يعطي صوته في الانتخابات وهو مصدر الحكم لا الدولة . إنه السيد والحاكم هو المَسُود الذي يُخاف منه ويُحسب حسابه . وعلاقة الدولة به أن تخدمه وأن تقوم نيابة عنه بالمهات الثقال وتوفر له الرفاهية والأمن والاطمئنان وحرية السكن والقول والاجتماعات والعمل والمظاهرات والإضرابات لأنها رمز الحرية وإظهار الرأي المخالف .

وفي الشرق الدولة سيدة الجميع ، فهي تنظر للمواطن نظرة السيد للمسود وتتهمه وتعاقبه ويشبع سجنا وتعذيبا وشتائم قبل أن تسأله وتحقق في الاتهام الموجه إليه . إنه المجرم حتى يثبت هو بنفسه براءته . وقد تحول الدولة دون إثبات هذه البراءة . الشك القاتل ظاهر بين الشعب والدولة وهو دائم الخوف-عليه أن يهتف لأخطائها ويصفق للحاكم على أغلاطه وأخطائه لأنه خادمها وهي السيدة وتفرض عليه النظام الذي تريد والرأي بالقوة دون أن يحترم رأيه ولو كان عالما ملأ الدنيا بفضله وعلمه . ولا تعرف الدولة أن أبناء الشرق ورثة الحضارات، وقد انتهى زمن الاستبداد والبطش . وها هو العالم يسخر من الشرق ويسمينا الأمم النامية وهو في قرارة نفسه يسمينا الأمم المتخلفة .

لا شك في أن السفرات العلمية والأدبية والفكرية تبنت صداقات وعلاقات بين الأدباء والمبدعين، لذلك أصبحت عندي صداقات وعلاقات مع كثير من المفكرين والكتاب . وقبل أن أرتحل في الوطن العربي كانت السفرات منتظمة ومتواصلة وكنت أتبادل المطبوعات معهم وكانت تصلني

الكتب والمجلات بكل اللغات ... ومن مختلف أنحاء العالم .

المذكرات ونشرها

نشرت مذكرات ف الجرائد العراقية وجانبا منها فى الجرائد العربية بسبب هذه المذكرات بكتابين سجلت فيهما انطباعات عن المدن والأقطار التى زرتها وإن لم أستمر فى التسجيل ولم أستوف كل الجوانب التى أردت التحدث عنها لأن ظروف العمل بعد العودة إلى العراق تأخذنى بعيداً عن الاستمرار فى الكتابة . ومع ذلك فقد جمعت من هذه السفرات بعض ما توفر عندى ، وكان أول الكتب (وعادت الذكرى بطرائفها وغرائبها) طبع فى الهيئة المصرية العامة للكتاب وفيه سجل لسفرى من العراق إلى أن حططت رحالى فى لندن . وفيه ما شاهدت من الغرائب فى حياة الغرب وخلال سفرى وجانب من حياتى طالباً للدراسة فى الجامعة وما عانيت من الرعب والخوف من جراء العمل المتواصل وتوقع الإخفاق فى الدكتوراة لأنى ذهبت إلى لندن بإجازة دراسية مدتها سنتان وعلىَّ أن أكمل الشهادة فى هذه الفترة . وكنت أسابق الزمن لانجاز الرسالة وتعلم اللغة الانكليزية ، لغة وأدبا ولفظا والاستفادة من حياة الغرب وحضارته والتأقلم معها بعد أن عانيت فى العراق من موظفى وزارة المعارف . وكانت المعاناة مستمرة طوال الطريق . وفى لندن داهمتنى الغربة وصعوبات الحياة واللغة والحياة الاجتماعية والفكرية . وقد دونت بعض المذكرات عنها ونشرت فى الصحف وقد جمعتها فى كتاب (إلى الديار الممنوعة) لأن السفر إلى الدول الاشتراكية مخاطرة وكانت هذه الأقطار ممنوعة على العراق وأهله . وقد سجلت بعض الانطباعات العامة وأعجبت بالصين وبحضارتها وقد وسع لى أهلها المجال وفتحوا لى الطريق بكل ما أريده أو أردته بالرغم من أننى ذهبت إليها وكانت الثورة الثقافية فى أوج فورانها وحماستها

ولم يكن عندى وقت لإنشاء علاقات مع المبدعين فى أوربا أثناء الدراسة لأن العمل كان قد أخذ منى كل الوقت . ومع أننى تعرفت على بعض الأدباء والمبدعين فى الصين الشعبية إلا أنهم لم يكتبوا لى رسالة واحدة خوفاً من اتهامهم بإقامة صلات مع عالم الشرق الرجعى أو البرجوازى .

وبدأت صلاتى بالمبدعين والمفكرين بعد التفتح الفكرى الصينى والروسى على العالم وأصبح لى معارف وأصدقاء فى عالم الدول الشرقية . وقد حاولت بعد عودتى أن أوثق صلتى بهؤلاء بإرسال رسائل شكر وتقدير على حفاوتهم بى وإرسال بطاقات مصورة وبعض كتبى ، لكن لم يجب عن تلك الرسائل غير المسئولين برسائل رسمية ليس فيها حرارة الود ودفء الحب ، وهى صورة للحكم المطلق وعبادة الفرد الذى يقضى على الحرية الفكرية وعلى نوابغ الكتاب والعلماء وينشر الرعب فى قلوب الأدباء والشعراء ولو كانوا أبرياء .

الفصل الثامن

السياسة

الفصل الثامن
السياسة

العراق والوحدة

العراقيون يهتمون بالسياسة صغيرهم وكبيرهم لأنها تؤثر فى حياتهم ومجتمعهم .وقد أحسوا بالتفرقة التى صبها عليهم الاستعمار لذلك كانوا شديدى الاستجابة للوحدة العربية التى غرسها فى النفوس المدرسون الأوائل الذين كانوا يدرسون فى العراق فى الثلاثينات . فقد درسنا جماعة من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين وكانوا يتغنون بالوحدة فى كل محاضرة . وسرنا فى هديهم عندما تسلمنا المبادرة العلمية لأن العرب لن تقوم لهم قائمة إلا بها ، ولا يهم أن تكون الوحدة بأى شكل من الأشكال لأن الاستعمار يقف أمامها مهما كان شكلها ولا يخاف العالم الغربى وأعداء العرب وأصدقاؤهم إلا من هذه الوحدة التى نريدها ، قوامها الدين الإسلامى وقاعدتها التراث الإسلامى ولا تتعارض مع أية اتجاهات فى داخل الأمة العربية ولا تؤذى غير العرب الذين يقيمون فى الوطن العربى،فهم إخوان لنا فى السراء والضراء . وليست العربية بأم ولا أب إنما هى المصير المشترك والإحساس الداخلى العميق بالتضامن داخل الوطن العربى الكبير .

لذلك كانت كلمة الوحدة تداعب مخيلة الشباب العربى فى كل مكان وكانت هدفهم وحلو أحلامهم المشرقة .

وفي يوم من الأيام ، وكنا في عز المراهقة ، تنادينا لتأليف جمعية باسم الوحدة العربية دون تخطيط أو فكرة محددة أو رأى ثابت . إنما الفكرة وحدها كانت تملأ النفس . وكنت طالبا في دار المعلمين الابتدائية ، ولم يكن عددنا يتجاوز عدد أصابع اليد .كلنا كنا طلابا . واحد في الحقوق وآخر طالب في كلية الطيران وثالث كان موزعا في إحدى دوائر الدولة وواحد في مدرسة الشرطة وطالب في الثانوية وغيرهم . كنا نجلس في بيت أحد الزملاء ونحلم بإتحاد العرب وتضامنهم ووحدتهم . كانوا جميعهم في بغداد في المحلة الشعبية (المكارية) وما حولها من الطوب والبارودية من فروع هذه المحلة أو توابعها أو كانت متصلة بها إذ لم تكن بغداد قد فتحت فيها الشوارع الكبيرة ، وكنا نتسلل إلى بيت الزميل . وفي أول انتخاب لهؤلاء اختارونى نائبا لرئيسها وهو الطالب الحقوقى ، ولما وجدونى بعيداً عنهم في الأعظمية غيروا صفتى إلى سكرتير هذه الجمعية .

مقتل الملك غازى

ومات الملك غازى أو قتل غدرا ، وكنا نحن الشباب شديدى التعلق بالملك الطموح الذى كانت إذاعته في قصر الزهور تدعو إلى ضم الكويت إلى العراق ونراه أمل العرب وأمل الوحدة . فبعد الكويت سوف تنضم إلينا سورية والأردن والوطن العربى كله ويصبح العرب كلهم أمة واحدة ورأيا قويا مسموعا يهدد من يقف أمام مصالحها ويرتفع اسمها كما ارتفع اسم الأجداد في عصور التاريخ الزاهية وحضاراتها السامقة التى طورت العالم كله . كانت أحلام الشباب والمراهقة تدفعنا إلى الخيال البعيد ، ولم نكن نعرف ما نصنع وهل على الشباب المراهقين أن يخطط ويعمل في وقت واحد . ما كنت أشاركهم أكثر الجلسات لكننا كنا نكتب المناشير تدعو فيها للوحدة ولنغرس بذورها في مدارسنا ونحث الشباب على الانتباه من مؤمرات الاستعمار والصهيونية في فلسطين . كنا نعيش أخبار فلسطين

والاسكندرونة وسورية ومراكش وبرقة وطرابلس وكانت عواطفنا تغلى . . . بالحب للعرب والحقد على الاستعمار وبلا مقدمات لأذهاننا . . قتل الملك غازى أملنا فى تبنى أحلامنا فى خلق مجتمع عربى موحد . فتبددت الآمال واهتزت الأحاسيس وخيم الألم والصمت والحزن على كل شباب العرب من أمثالنا وسرت الإشاعة بأن نورى السعيد والإنكليز وراء مقتل الملك الشاب لأنه يطمع فى وحدة الكويت مع العراق وتلك ضد مصلحة الإنكليز . . .

وكانت هذه السنة سنة عجيبة بما حوته من حوادث كبيرة كان لها صداها فى العالم العربى . فقد كانت قضية فلسطين تغلى مراجلها وفيها أعلنت الحرب العالمية الثانية فى الثالث من أيلول . وقد كان غازى يطمح بأن يقود العرب إلى الوحدة العربية ، وكان عاصر الأحداث التى حدثت فى الحجاز وطموح الملك الحسين ووالده فى اتحاد العرب ، وهو ما لا يرضاه الاستعمار البريطانى الذى يريد تفريق كلمة العرب للسيطرة عليهم . إن مقتل الملك غازى كان بمؤازرة داخلية ورغبة خارجية . فالملك غازى كان يكره الإنكليز ولا يثق بهم . وكان الإنكليز يعرفون هذه الكراهية لأنه لم يخضع للسفير البريطانى وقضى على حركة التيارين فى الشمال . إن مساعدته لثورة فلسطين وكراهيته الإنكليز والحقد الذى ملأ قلب نورى السعيد بقتل جعفر العسكرى الذى ظن بأن الملك غازى كان ضالعا فيه هى عوامل أدت إلى مخطط مدروس فى قتل الملك العربى الطموح الشاب.فلم يكن الإنكليز يحتملون منه هجمات إذاعته على الاستعمار البريطانى ، ولم يرض الاستعمار بتمرده على سلطتهم ، ولابدأنهم اتفقوا مع عامل داخلى ولم يكن غير نورى السعيد الذى يقدر على تنفيذ رغبتهم . ولا شك بأنه كان مدبرا منه إذ اتفقت رغبات الإنكليز ورغبته فاتفقوا مع الأمير عبد الإله واختلقوا شهادة الملكة عالية والأميرة راجحة فى دعم أفكارهم.وهل تقدر واحدة منهما أن ترفض خوفا من ضياع الملك منهم ؟

كان الشعب العراقى يحب الملك حبا جما . ولم أر على مرّ التاريخ

الحديث شعباً أحب ملكه وأعجب به مثل إعجاب العراق بالملك غازى .

وكان الشعب ينوح صارخاً ويبكى حقداً على نورى السعيد وخرجت الجموع تصيح :

الله أكبر يا خلق غازى انفقد من داره
واهتزت أركان السما من صدمته السياره

لماذا قتل ؟

ووجه الشعب كل غضبه نحو نورى السعيد والاستعمار البريطانى وهاج الشعب فى الموصل وهاجم القنصلية البريطانية وقتلت الجموع (مونك ميسون) القنصل العام .

وبعدها دخل العراق فى دوامة من الحقد بعد أن تدخل الجيش فى الحكم وحدثت حركة رشيد عالى الكيلانى واشتد الصراع السياسى والمطامح الفردية بين أهل العراق . إن قضاء الملك غازى على الحركة الانفصالية التى أراد القيام بها جماعة ساندها الاستعمار البريطانى وأسكتها شمال العراق أغضبت الانكليز ، وأشيع أن الملك غازى اعتدى على السفير البريطانى وأهانه عندما قابله متجهماً ، ولم يكن الإنكليز أقل بغضا منه وحقداً عليه أراد أن يزعزع المنطقة العربية بدعوات الوحدة . فإذا كان جده قد نفى إلى (قبرس) فقد قتل الملك غازى فى سبيل إيمانه بوحدة العرب.فكان للإنكليز ونورى السعيد ومن يؤازرهما من بعض العاملين فى قصر الملك غازى دور فى تخريب السيارة واصطناع قصة لوقف إذاعة قصر الزهور عن البث لأنها كان إذاعة شعبية ونجحت أفاعيل السياسة الداخلية التى نفذها نورى السعيد وأعوانه فى التخلص منها .

لا أريد أن أتدخل فى أمر كثر فيه القول وخاض فيه الكتّاب فى آرائهم وكتبهم، لكن الحقيقة التى لم تتغير أن لنورى السعيد يداً فى قتل الملك الشاب ووضع كل الطبخة التى جاءت بالأمير عبد الإله وصياً وما تلا ذلك من أحداث العراق الكثيرة . ولابد لى من القول بعد هذه السنين الطويلة إن رجال العراق وساستهم كانوا هم سبب تخريب العراق الجديد عندما جاءوا بالأمير عبد الإله وصياً . وكان رجلا مهملا لا خبرة له بالحكم ولا يعرف الساسة والناس وظهر ذلك فى شعر خيرى الهنداوى بعد حركة رشيد عالى الكيلانى ودافع عنه فى قصيدة له :

قالوا فتى ماله فى الحكم تجربة قد يولد الحلم فى الشبان والشيب

أراد ساسة العراق وعلى رأسهم نورى السعيد أن يكون الأمير عبد الإله وصيا ليكون مدينا لهم فلا يخرج عن إرادتهم ومصالحهم الخاصة ولكنهم حكموه بعد ذلك فى أنفسهم عندما اختلفوا فشعر بما فى نفسه من قدرة وبدأ ينحرف عن السياسة السليمة وخافوا من أن يأتى الأمير زيد وصياً وطعنوه بأن زوجته تركية . وأكثر هؤلاء كانوا يتكلمون التركية لأنهم تعلموها فى استانبول ولو جاء الأمير زيد للحكم لكانت أمور العراق غير الأمور التى آلت اليها والتى قضت على جميعهم بداية من عبد الإله ونورى السعيد ومن سار معهم فى الركب من الأبرياء والبسطاء .

إنه التاريخ يعيد نفسه ، فعندما مات الخليفة العباسى رشح للخلافة ابن المعتز، فقال الأتراك ولعلهما (وصيف وبغا) كيف تأتون بخليفة يعرف الصفراء والبيضاء ؟ فعزلوه بعد يوم واحد وجاءوا بطفل صغير من آل الخلافة ، فتسرب الحكم من العرب وتشتت شمل الحكم الإسلامى وضاع العرب .

إن مقتل الملك غازى كان مدبرا . وأقول لأول مرة بعد أن حدثنى عبد المطلب محمد أمين ، وكان ضابطا فى الحرس الملكى ، بأن سيارة الملك غازى قد خرب فيها الكابح . فبعد أن وصل الملك من قصر الزهور وبعد أن استراح ، جاءه نداء تليفونى يخبره بأن محطة الإذاعة قد عطلت ، وكان رحمه الله شديد الحرص عليها . فذهب سريعا بسيارته ، ولما انعطف بها اصطدمت بالعمود الكهربائى لأنه كان شديد المخاطرة جرىء الخطو . . فكان الموت فى انتظاره . أما ما قيل من أن العبد أو السائق مات أو قتل فليس صحيحاً لأن السائق كان حيا . فقد حدثنى المرحوم عبد المطلب الأمين وكان قريبا لأحد الوزراء وكان الحديث فى داره وكان طريح الفراش فى السبعينات بهذه الحكاية .

فى سجن معسكر الرشيد

كانت الأحلام الجميلة التى داعبت رؤوس الشباب قد انهارت بسرعة على الرؤوس فثاروا وكتبوا منشورا يذكرون فيه بأن الانكليز ونورى السعيد قتلوا الملك ووزع المنشور فى جميع أنحاء بغداد .

ومن الغريب أن يكون المخبر عن هذه الجمعية أحد أعضائها ، وكان قريبا لمدير الأمن ، فتم إلقاء القبض على جميع أعضاء الجمعية فى الليلة نفسها لأن العضو أخبر عنهم ودل عليهم .

وفى الصباح الباكر أرسل مدير دار المعلمين فى طلبى . فوجدت شخصين ينتظران قدومى . وبرقة ولطف أخذانى بسيارة إلى مركز شرطة السراى ولم أكن أعلم السبب ، وفهمته عندما وجدت الجمعية بأعضائها فى

التوقيف . . . وأخبرونى بأنهم اعترفوا بكل شىء ولا حاجة للإنكار كيلا أهان وأضرب . .

لم نختلف إلا بشىء واحد هو أنهم اشتركوا فى إعداد المنشورات وتوزيعها وكنت أنا فى الأعظمية عندما كتب المنشور ووزع فى بغداد . . . أحلنا إلى المجلس العرفى العسكرى . . . وأخذنا إلى معسكر الرشيد ووضع كل واحد منا فى حجرة صغيرة محدودة المساحة وكانت فى بابها كوة صغيرة أغلقت بالورق حتى لا نرى ما يجرى خارج الحجرة ، وفى أعلاها شباك صغير ومصباح كهربائى بعيد لا يمكن الوصول إليه معلق بسلك قصير . كان الفراش سريرا من الخشب وبطانية مما يستعمله الجنود فى مضاجعهم . فقد جردونا من كل شىء كان معنا ولم يبق معنا غير ملابسنا .

كانت المعاملة لطيفة جدا من الجنود والضباط بل تكاد تكون مملوءة بالإعجاب والتقدير ، بعكس معاملة الشرطة الخشنة بناء على تعليمات معاون مدير الشرطة الذى عرف بسوء الأدب وسوء التصرف . فقد قابل الزملاء بالضرب والإهانة والتلفظ بألفاظ لا يمكن أن تكتب على الورق . لذلك حذرنى الزملاء ـ لأنى لم أكن معهم فى المقابلة الأولى . ومع ذلك فقد تهكم أشد التهكم علينا وعلى الشباب وقال : هل تريدون أن تكونوا مكان نورى السعيد ؟ واتحدته . ومن الصدف أن يرى هذا الضابط نهاية نورى السعيد على يد الجيل الذى سخر منه . . . ولا أدرى ما كان يقول . . . ولا أظنه قال شيئا لأنه كان مهملا وكان قد أحيل إلى التقاعد . وأخذنا إلى المجلس العرفى العسكرى الذى تبعث هيئته الرهبة . وكانت قاعة المحكمة تحرس بالجيش الشاكى السلاح وقد أطلت الحراب من البنادق التى تبرق تحت الإضاءة الشديدة فتزيد فى رهبة المكان . ومن الطرائف أن صلاح الدين الصباغ زارنا فى السجن معجبا بنا وكانت فى جيبه مفكرة بدأ يقرأ إلى الإشاعات التى سيطرت على العراق من جراء مقتل الملك غازى .

ولم يجلس معنا المخبر وعضو الجمعية إلى المحاكمة ، وقد غاب ولم يأت حتى للشهادة علينا ، جزاه الله أكرم ما يجازى أمثاله من الجواسيس والخونة . تبارت الصحف وأخذت تكتب عناوين بارزة بأن الدولة ألقت القبض على جمعية سرية . وضخمت الأمور وكبرتها . وكيف لا تكون ضخمة وقد أحلنا إلى المجلس العسكرى وأيدينا مكبلة بالحديد وعلينا حراسة شديدة فى سيارات مغلقة . وكان ضباط المجلس العسكرى من أصحاب الذوق فى المعاملة ، فما رأينا سوءاً فى اللفظ أو نهرة فى القول . وظهرت ملاحق للجرائد تتحدث عن الجمعية السرية . وصدرت علينا أحكام متعددة منها السجن ، وحكم على بالمدة التى أوقفت فيها وأطلق سراحى وعدت إلى الدار بطلا حتى قال أحد الأساتذة . . . ما كنا نظنك بهذه المكانة الكبيرة . ولم أكن كما قال الأستاذ إنما كنت صاحب خيال له طموح عربى كبير ، ولم أقم بعمل يستحق كل هذه التكريم والإعجاب ، ولكن كراهية الحكم أعطتنى الود والإعجاب . لم أكترث بالسجن ولم أحس بالخوف أو الرعب ، فقد كانت المعاملة لطيفة غير أن هاجس والدتى لا يفارقنى ، وأعرف حبها وشدة حنانها . وكان الإخوان يرددون النشيد الخالد :

يا ظلام السجن خيّم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلا فجر مجد يتسامى

وكان بعض الزملاء يبكى حسرة وألمًا وكان بعضهم يغنى ويرفع صوته بالغناء . . كان الزملاء فى تناقض عجيب ، فيهم شجاع لا يخاف ، ومنهم يبكى خوفا وهلعا . هزت الحادثة ثقتى بالناس وبالأصدقاء هزاً عميقا . كيف يشى بنا إنسان وثقنا به وكان معنا يأكل وينام ثم يتآمر ؟ كانت هذه أول صدمة قابلتها من الناس والأصدقاء .

كنت مازلت ساذجا،لهذا أعجبت من خيانة الأصدقاء . وكان الهدف كريما وفى سبيل أمتنا العربية ومصيرها .

نُبل المساجين

نظمت بعض الأبيات فى هذا السجن ، وكنت فى أول نظمى للشعر . وما ساءنى إلا أن نوقف أو نسجن ونحن طلاب مع أصحاب الجرائم ومنهم النشال والسارق والقاتل فى سجن الشرطة ، ولم يكن يسمح لنا بالخروج للتبول إنما فى صفيحة موجودة فى الركن تملأ برائحتها الكريهة السجن الصغير . هل أرادت الشرطة إذلالنا وإهانتنا بوضعنا فى سجن السراى مع هؤلاء المجرمين ؟ الغريب أن هؤلاء تحولوا إلى جماعة تقطر كرما وتفيض بالخلق اللطيف ، وقابلونا بود واحترام ، وعاملونا بكل رقة وتقدير . فهل فهم المجرمون قصدنا أكثر مما فهمه مدير الشرطة فى مركز السراى ؟

كانت مفاجأة أخرى أن أرى الذين حاربهم الدولة ووضعتهم فى السجن أكرم من ذلك المثقف الذى وشى بنا . وبدأت أفكر بأن هؤلاء لو قيض الله لهم مجتمعا يحميهم ويحدب عليهم وأسرة تضم شتاتهم لكانوا بلا ريب من أكرم العناصر وأرق البشر . كم ظلم المجتمع أبناءه فثاروا عليه وأرادوا الانتقام منه لأنه لم يعرف صدق عواطفهم وعمق محبتهم له .

الفصل التاسع

الشخصية بأسلوب المؤرخ

الفصل التاسع
الشخصية بأسلوب المؤرخ

متوسط القامة ، قمحي اللون ، غليظ الحاجبين مقرونهما ، ليس بالسمين الممتلىء ولا بالضعيف الهزيل ، ليس كبير الفم ولا صغيره ، متوسط الذقن ، مدور الوجه عسلى العينين ، متوسط الأنف يميل إلى الكبر ، ملامح الوجه شرقية عربية فيها سمات الشرق الأوسط . بين التركية والفارسية والهندية ، تغلب الملامح العربية على وجهه . شعره أسود . ليس بالطويل ولا بالقصير . مربوع القامة ضاحك السن في أكثر الأوقات .

المجتمع والشخصية

عاطفي الإحساس رقيق المشاعر تؤذيني أخطاء الناس وسوء تصرفهم وتسعدني قولة الحق والصواب . أحاسيسي تمثل بساطة الروح القروية وسذاجتها التي ما زالت تسيطر عليّ برغم التجارب الكبيرة في جميع أنحاء العالم ، أحسن الظن كثيراً بالناس حتى مع أولئك الذين يستغلونن حبي ، وأقبل الخداع من الآخرين إذا كان ذلك يسعدهم ، على ألا يظن بي الغباء حتى وإن سمحت لهم أن يغلبوني .

أعامل الناس بالحسنى والطيبة والخلق الرضى لأنى أعتقد أن حسن الأخلاق يؤثر في أكثر الناس خشونة . وأتبع المثل العراقى (الكلام الطيب يخرج الحية من الزاغور) وأردد دائماً : بنى إن الخلق شيء هيّن - لفظ رقيق وكلام لينٌ . تظهر خشونتى وثورتى متى أحسست بالإهانة أو المساس بكرامتى أو كرامة من أحس بأنه أبى النفس ، وبلا شعور أثور كالأسد الذى يدافع عن عرينه ، وللأسف تصبح ثورتى حادة بالرغم من أنها نادرة الحدوث .

أتغاضى عن زلات الناس وأختلق الأعذار سائراً على قول الرسول (أعقل الناس أعذرهم للناس) وبالفعل وجدت كثيراً من الناس يسيئون دون أن يقصدوا الإساءة لدوافع داخلية أو مؤثرات نفسية تغلبت عليهم مما فى العقل الباطن من ترسبات .

لى أصدقاء من جميع الطبقات الاجتماعية ، من العامل البسيط إلى الموظف الكبير ومن الأمى الذى لا يفك الحرف حتى رواد البحث والفكر فى العالم العربىٌ والشرقى والعالمى .

لم أخاصم صاحب رأى ولم أجادل مخالفا لفكرى إلا فى حدود توضيح رأيى وإبداء فكرى وأكتفى بما أكتب لأنى أومن بأن البناء أحسن من الهدم .

ولم أهاجم أصحاب العقائد والديانات المختلفة والمذاهب المتباينة لأنى آمنت بأن (كلّ حزب بما لديهم فرحون) .

أحافظ على الأخلاق وأحاول أن أكون كريماً إذ يسعدنى أن أكرم الآخرين الذين أراهم بحاجة إلى عون ومساعدة ويسؤنى أولئك الذين يستغلّون كرمى بأكثر مما أطيق . يلومنى الإخوان على كرمى والواقع أننى لا أقبل الدين فى عنقى فأرد الهدية بمثلها أو بأحسن منها إن قدرت على ذلك .

ما نافست انساناً على عمل أو منصب أو جائزة لذلك لم أدخل طول عمرى فى مسابقات أدبية أو فكرية ولا اعتمدت على بطاقات (اليانصيب) للإثراء .

أبتعد عن الغش والخداع والتدليس ، لذلك ما حاولت أن أغش فى الامتحان كيلا أكون فى موقف صغير أمام اللائم والعاذل والمعاقب .

وخير شاهد لى كثرة الأصدقاء والمحبين عندما اختارنى المجمع العلمى العراقى أمينا له . بدأ الإخوان من الأدباء والكتاب والأساتذة يفدون إلى بناية المجمع وأصبحت فيه حركة ظاهرة ولا سيا بعد أن شجعت الكتاب على الاستفادة من مكتبة المجمع ، وبدأت أهدى بعض المطبوعات للأعلام والمفكرين وطلاب العلم والباحثين .

كان المجمع هادىء الحركة ، وفجأة ظهر النشاط فيه ، فما كان من أحد الأعضاء(رحمه الله)إلا أن ذهب إلى الدكتور ناجى الأصيل (رحمه الله) وكان رئيسا للمجمع واشتكى من الزوار وكثرتهم عندما جئت للمجمع .

وفى إحدى جلساتى مع الدكتور الأصيل أشار إلى ذلك فقلت له : إن أصدقائى هم ثروق وحب الناس كنز لا يعوض فإذا فاضلتُ بين عملى أصدقائى فأنا أفضلهم .

فابتسم رحمه الله وقال : ما اخترناك إلا لأنك محبوب ووجودك حرك المجمع وأدخل فيه نشاطاً ما عرفناه فيه من قبل . وبقاؤك وأصدقاؤك أصلح لنا من أن يكون المجمع منسياً . فقد دبت الحركة فيه وأصبح موئلا للدراسة والكتابة والاستفادة بعد أن كان لا يعرفه أحد ولا يدرى بمكانه إلا القلة من الناس .

رحم الله ناجى الأصيل فقد كان مثلاً للأخلاق الكاملة والرقة المتناهية والفكر العربى الأصيل .

الحالة جيدة ، شأن كل العرب فى بيوتهم حيث تتوافر صلات الود والألفة . فقد آمنت زوجتى بأن للرجال الكلمة الأولى فى الحياة وهى تصدق فى إيمانها وترى الرجل غير المرأة ولكل واجباته ومهامه التى يجب على المرأة ألا تتدخل فيها . بل تعيب على المرأة التى تقوم بالأعمال التى يقوم بها الرجال . وتسخر من السيدات اللواتى لا يقمن بواجبهن نحو البيت والأسرة ، وتؤمن بأن واجب المرأة هو فى بيتها وأسرتها عن قناعة تامة ورضا نفسى .

وأحمد الله أن أولادى قد ربتهم تربية كريمة فاضلة وكانت شديدة الحرص على توجيههم السليم نحو الفضائل والأخلاق العالية ومواصلة الدراسة والعمل . وكانت تسهر معهم وتدرسهم الدروس حتى يصلوا إلى الجامعة وفى الجامعة تسألهم عن أعمالهم وامتحاناتهم ونتائجهم . ولم تكن مهمتى إلا تدريس العربية والانكليزية لهم وهى تقوم بتدريسهم كل العلوم المتنوعة .

أولادى لم تند منهم كلمة أو يظهر منهم تصرف لا يرضينى . ومع أنهم بلغوا من العلم والشهادات أعلاها ووصلوا إلى مراكز يحلم بها أكثر الشباب فما تصرفوا إلا تصرفاً يزدان بالخلق الرزين والأدب العالى الجم .. إن وصولهم إلى درجات عالية من العلم أعطاهم الفرصة لمعرفة المعاناة التى عاناها أبوهم فى تحصيل العلم . وعندما كبروا أصبحت أعاملهم معاملة الإخوة . وكانت لهم حرية كاملة فى اختيار ما يريدون من العلم والاختصاص والدراسة ، وما تدخلت فى طموحهم ورغباتهم العلمية .

حاولت أن أملأ حياتهم بما حرمت منه فى طفولتى وأسبغت عليهم جميع الألعاب المتنوعة التى يعبث بها الأطفال ، وبذلت طاقتى بأخذهم معى فى

سفرات كثيرة بعيدة حتى (أدنبره) وفي العراق والوطن العربي كانت سفراتنا كثيرة متنوعة .

علمتهم اللعب العقلية من الشطرنج وأنواعه ووضعت بين أيديهم أجمل الاسطوانات العربية والعالمية وتركت لهم حرية التمتع بها وجلبت لهم كل المجلات والكتب التي تلائم عقولهم ، فكانوا يتمتعون بكتب الأطفال وينصرفون إلى القراءة كثيراً .

إنهم نعمة الله على ولا تعدلها نعمة .

ما تدخلت في حياتهم الخاصة بعد الزواج . وكان الأحفاد يأخذون مكان الأبناء في الحب والرعاية . وكان آباؤهم يرعونهم مثل رعايتي لهم ورعاية أمهم ويحدبون عليهم مثل حدبي عندما كانوا صغاراً .

ليس لي أي عمل سوى القراءة والكتابة وسماع الموسيقى والأغاني ومشاهدة الروايات المتنوعة . ولا يمر على يوم دون الاطلاع على الجديد فاقرأ أعداداً من مختلف الجرائد بالوطن العربي والعراق وأتابع المجلات الأدبية الأجنبية والمعاصرة . .

ولا أكتفي بكتاب واحد فأنا أقرأ عدة كتب في اليوم ، فأقرأ في التراث صباحا وأقرأ في الأدب المعاصر ظهرا وأقرأ في الفلسفة الجديدة في الليل لذلك تجدني مشغولا بأكثر من كتاب حتى لا أمل القراءة .

• كنت أرسم في أوائل حياتي أن أعمل في النجارة كالتخريم على الخشب وصناعة الأدوات الدقيقة المفيدة من قبيل الهواية والتنوع .

دراسة النقد

لكن تقدمي في معارج العلم وانشغالي بأعمال علمية وفكرية استحوذا على وقتي فتركت هذه الهوايات وما تزال هواية جمع الطوابع تستأثر بجزء صغير من

وقتى فالقلم والورق استحوذا على كل وقتى لأنى لم أقتصر على علم واحد أو أتجه لفرع محدد . فقد درست الفلسفة وعلم الاجتماع ثم تحولت إلى قسم اللغة العربية والتاريخ واخترت النقد وكنت الوحيد فى قسم النقد (الامتياز) يدرسنى الأساتذة وحدى ، ثم درست علم النفس وبذلك فإن جذورى متنوعة الثقافة وأحاول أن أكون مثل السلف الصالح موسوعيا فلا أختص بعلم واحد لأن الأديب والناقد كلما كثرت مساحته الفكرية كلما كان قادراً على الفهم والاطلاع واستخراج النتائج وفهم جذورها ودوافعها النفسية .

على المثقف العربى المعاصر أن يقرأ تاريخ أمته وجغرافية بلدانها القديمة والحديثة ويعرف تاريخ الأمم الأخرى وجغرافية بلدانها ليكون قادراً على استخراج النتائج العلمية فى إنتاجه ويستفيد من سعة المعلومات فى كتاباته وتحليل الحوادث والمؤثرات .

مع الناس

أنا أحب الناس وصلتى بهم وطيدة . ويحس الذين أجالسهم أننى أعطيهم من مشاعرى صادقا ومن حبى عميقا . لا أحب إيذاء أحد وأصفح عن الذين أساءوا إلى لأن الحقد مرض فتاك يفتك بصاحبه قبل أن يفتك بالآخرين.لذلك لم أحسد أحداً على مال أو فضل . فقد أعطانى الله ما لم أكن أحلم به ووصلت إلى مراكز ما كنت أفكر فيها ومنحنى حب الناس وهى منحة لا تقدر بثمن.فتجد أصدقائى ومعارفى فى جميع أنحاء العالم ومع اختلاف الأديان والطوائف والمذاهب لأنى أترك من حبى شذى يبقى معطراً المكان الذى تركته يذكر الأصدقاء بأيامى معهم . وما أغفل عن رد رسالة تصلنى أو أغفل عن المناسبات العامة والسؤال عنهم .

كان مجلسى فى البيت أو فى المجمع أو مراكز الأدباء التى كنت أشغلها ،

مجلس الأحبة وقد كان المصريون يسمونه (مصطبة العمدة) . من عاداتى جمع شمل الإخوان بدعوات لى ولهم وهى وإن كانت محدودة فهى مؤثرة فى تعزيز الود والألفة والصداقة بين أولئك الأحبة القريبين منى .

كان مجلسى فى المجمع العلمى العراقى ـ مجلساً أضجر بعض الأعضاء فى المجمع القديم لكثرتهم ، وكادت تجرى ملاحاة بينى وبين أحد الأعضاء . . بسبب حبى للناس وكثرة أصدقائى ومعارفى من جميع الطبقات الاجتماعية والمستويات الفكرية . وقد أشار الشيخ يونس السامرائى إلى مجلسى فى كتابه (مجالس بغداد) بصورة عامة . .

مواهب أخرى

موهبتى الأولى كانت الرسم والنحت والصناعة وبخاصة التخريم والنجارة ، فقدست أقضى وقتى فى الرسم والنحت حتى اكتشفت موهبة الشعر فى نفسى فغلبت على كل المواهب الأخرى . وكنت أريد أن أكون شاعراً محترفاً ، فسافرت لإكمال الدراسة فتفتحت موهبتى فى مصر ولكن ذهابى إلى الغرب واندماجى بالبحث العلمى وبخاصة عملى فى الجامعة والمجتمع حدا من موهبة الشعر فانصرفت إلى البحث العلمى والدراسات الجامعية وصرفت أكثر وقتى فى سبيلها .

والشعر يحتاج إلى حرية تامة . وأرى ألا يكون الشاعر مسؤولاً مسؤولية اجتماعية أو سياسية أو فكرية حتى يكون الشاعر مبدعاً . لكن إحساسى بأنى أستاذ وبأنى عضو فى مجامع عديدة يحول دون أن أقول كل ما أريد . ثم الخوف من السلطة فى عهودها المختلفة حال دون أن أشرح رأيى شعراً وإن كنت لم أقصر فى الرأى فى كتبى فى تاريخ الأدب والنقد والاجتماع . فقد كنت اتخذ الفترة التى أكتب عنها وعاء أعكس فيه الحياة

العامة عن الفترة التى كنت أعيش فيها . لذلك يمكن للباحث الجاد والدارس العميق النظرة أن يدرس كتبى وتاريخها وسيجد أننى صورت فيها الحياة التى كتبت فيها تلك الكتب مع الاحتفاظ بالفكرة العامة التى كتبت فيها الكتاب . والغريب أننى كنت أجد الفترات التى أدرسها صدى للزمن الذى أرخت فيه تلك الفترة بحيث أبرز مشكلات الفترة التى أدرسها والتى تحاكى الظروف التى كتبت فيها الدراسة .

ليست لى موهبة خاصة تختلف عن أبناء الجيل الذى عشت غير ما ذكرت لأن المواهب هبة من الله كالشعر والرسم والموسيقى. والفنون الجميلة بصورة عامة كلها مواهب مفيدة للبشرية . فإن كان لى فيها شىء فقد وضح فى حياتى .

للأسف هناك من البشر من لهم موهبة الجدل والخداع والزلفى ليصلوا إلى ما يريدون ولهم ألف وجه وألف فكر لتدبير أمور الحياة وهذه هى المداهنة الممقوتة والدس الرخيص والاختلاق المهين ضد كل من هم أعلى منهم فكرا ومنزلة ومكانة وليست هذه موهبة الشرفاء . ونحن فى هذا العصر نرى مثل هذه العادة نمت وترعرعت بصورة ظاهر من جراء اختلاف السلطة وتغير رجال الحكم فى البلاد العربية فيضطر الواحد إلى أن يتمسكن حتى يتمكن . إنها موهبة للأسف الشديد لا أحسنها أنا . فإن لم أكن صريحاً وواضحاً أسكت ففى السكوت أمان للحياة والرزق ومن يلوذ بى . .

قد يكون لهؤلاء العذر بعد أن أوغلت السلطات فى الوطن العربى فى محاربة كل رأى يعارضها وكل مفكر لا يساير أسلوبها بل إن بعض هذه السلطات يرى أهل الحياد معارضين لأنها لا تريد منهم إلا السير فى صفوفها والهتاف لأعمالها والتصفيق لها . وأصحاب السلطة يغيرون آراءهم وأثوابهم دائماً وعلى الشعب أن يختلق لهم العذر فى هذا الاختلاف والتباين وأن يصفق لهذا التبدل فى الاتجاه . . فى حياة العرب كلهم .

وكم من صاحب رأى حر هدد فى رزقه وحياته لأنه أصبح محايداً وكم من صاحب فكر سليم عانى ما عاناه من الملاحقات المقيتة والإرهاب النفسى وعاش فى جوع وفاقة ومسغبة لأنه لم يساير السلطة فى الوطن العربى أو عاش فى فكره المحايد المسالم .

المشاريع الإبداعية

الإبداع كلمة دقيقة المعنى تفيد خلق شيء مبتكر جديد مفيد يغير أمراً فنياً أو فكراً علمياً أو رأياً اجتماعياً وينقل الفكر والفن والعلم من مرحلة إلى مرحلة أخرى ويخلق علماً جديداً أو نظرية حديثة أو أسلوباً فى البحث والتجربة والحوار العلمى والتطور النقدى أو الاجتماعى بل التاريخى . . إنه تجديد فى الحضارة وتغيير فى المثل نحو الأحسن وتبديل فى التقاليد إلى الأجمل والأكثر فائدة .

كنت أتمنى أن يكون الحديث عن المشاريع العلمية أو مشاريع الإنتاج العلمى أو البحوث الجامعية لأن الإبداع فيها صعب ، يأتى بعد استقرائها والتوصل منها إلى نتائج تسير نحو التطور والتجديد .وليس كل عمل رائع إبداعاً .

وأرى أن الإبداع هو العمل الناجح والدراسة المتميزة والبحث الجديد والإضافة المفيدة إلى حياة المجتمع والحضارة المعاصرة . ومن هذا المنطلق فعندى مشاريع جديدة أرجو أن يمد الله فى عمرى لإكمالها وهى :

أولاً : إكمال ديوان فهمى المدرس بعد أن حقّقته وأكملت دراسته لأنه عمل جديد وإضافة غير متوقعة فى ساحة الأدب والشعر القومى العربى بصورة خاصة .

ثانياً : إكمال الجزءين الثانى والثالث من شعراء العراق فى القرن العشرين ، لأن مادتهما جاهزة وبحاجة إلى تنسيق وترتيب وإعداد للطبع . وقد

مضى على الجزء الأول وقت طويل .

ثالثا : إكمال مذكرات معروف الرصافى التى (تحدث) بها فى مجالسه الخاصة فقد نظمت منها أجزاء ولم يتم الكتاب .

رابعا : كتابة كتاب عن أثر الحضارة العربية والإسلامية فى الفكر الحديث ولا سيما فى حياة أوربا بعد أن كتبت عدة مقالات وحاضرت عن أثر الأدب العربى فى تطور الأدب الغربى . وصدر لى (أثر الأدب العربى فى مسرى الأدب الغربى) .

خامسا : إكمال كتاب عن القلق فى الشعر الحديث قطعت فيه شوطا بدراسة شعراء الجزيرة العربية ولا سيما شعراء المملكة العربية السعودية .

الجيل الذى عاصرنى

إن الجيل الذى عشت فيه هو جيل الانتقال من الحضارة القديمة إلى الحضارة الجديدة أو على الأصح جيل استفاد من الأصالة والتراث كما استفاد من الجديد فى الحضارة الغربية واحتواه دون أن يضيع شخصيته وتراثه الحضارى .

فقد صاحبنا حضارتنا القديمة بما فيها من بقايا حضارة الإسلام والعرب وهى مشوبة بكل أنواع التخلف والانحطاط الفكرى والاقتصادى والأدبى فى عصر النهضة الفكرية التى قام بها الرواد والذين كنا نراهم ونعايشهم برغم الاختلاف الكبير بين فكرنا وفكرهم وتصورهم الحضارى وتصورنا الجديد . فقد كنا مجددين نخرج على المألوف الذى سار فيه الجيل السابق فى حياته الفكرية والاجتماعية .

فقد وجدنا النساء يرتدين الحجاب الأسود الساتر لكل الجسم ،

وكانت المرأة قد لفها السواد بالعباءتين وبالبرقع أو البرقعين . ورأينا سفور المرأة وخروجها على العرف والتقاليد وانطلاقها غير المحدود فى الحرية والسفه . لأنها كانت أشبه بالأسير الذى انطلق من إساره حتى جاء جيل جديد ألف الحياة وتمرس بما فيها من اختلاط . فلم تعد تبهره الحرية والتزم بالخلق والفضائل والعادات الكريمة .

وجاء بعدنا بعد الحرب العظمى الثانية جيل سيطرت عليه مثل الغرب ، وضاع فى تيار الحياة ومخترعات العصر الحديث ومفاسد المدنية ومباذل حضارة الغرب فانجرف دون وعى ، وترى أكثره دون إحساس بما وصل إليه من انحدار .

ولا يمكن أن نحصر العصر كله بخمسة أشخاص ولا بعشرين لأن الجيل لا يتغير بأعداد محدودة إنما لابد أن يكون العدد كبيراً . ففى مختلف أنحاء الحياة الاجتماعية لابد أن يكون هناك مبدعون وقادة وروّاد يؤثرون فى الحياة .

وقد كان العراق مركزاً لكل التيارات العربية والغربية بما وصله من مفكرين وأساتذة قادوا حركة التغيير والتبديل إضافة إلى أثر الاستعمار البريطانى الواضح فى تغيير حياة المجتمع فى العراق . وكان للاستعمار البريطانى أثر عميق الفعل فى حياتنا ، فقد بدل المثل الكبيرة وغير التقاليد المتنوعة فى الطعام والشراب واللباس وطريقة الجلوس والنوم والتفكير والمتع المتنوعة وذلك عندما قلد العراق المستعمر واستفاد من المخترعات التى جلبها معه إلى العراق .

لا شك فى أن الاستعمار البريطانى لم يدخل هذا التغيير فى حياتنا بالقوة لأن من طبعه ترك الشعوب على عاداتها وتقاليدها وضمان مصالحه الاقتصادية والسياسية بعكس الاستعمار الفرنسى الذى يدخل فى حياة الشعوب ويغيرها وينقلها بالقوة إلى حياته وتقاليده وتظهر آثاره فى سورية

ولبنان مقارنة بالعراق . فقد أدخل الاستعمار الفرنسى حياته فى تطوير حياة الوطن العربي الذى استعمره وترك الاستعمار البريطانى العراق يسير حسب رغبة أهله وشعوبه .

والغريب أن الاستعمار البريطانى أعطى للمفكرين حرية كبيرة قتلت أيام الحكم الذى سيطر فيه أبناء الشعوب العربية على شعوبهم وكان المنتظر عكس ذلك .

إن أعلام الجيل الماضى الذين أثروا فى حياتنا أكثر من أن أحصى عددهم ويظهر أثر ذلك فى تغير ملابسهم من الجبة والعمامة إلى الملابس الغربية والأكل من على الأرض إلى الأكل على الكراسى وتناول الطعام باليد إلى تناوله بالملعقة والشوكة إضافة إلى محاولة تقليد مفكرى الغرب وشعرائه وتبنى النظريات الجديدة التى وردت فى المقتطف والمقطم والهلال مثل نظريات ديكارت فى الشك . ونظرية أينشتين فى النسبية ونظرية جيمس جينز فى الكون وآراء ماركس وإنكلز وغيرها من النظريات الاقتصادية التى كثرت فى الفكر،وقد ذكرت أكثرها فى كتابى (قضايا من الفكر العربى) و(فى الأدب العربى الحديث) بشىء من التفصيل .

الفصل العاشر

حياة مكتبتي

الفصل العاشر
حياة مكتبتي

محتوياتها الأولى

لعل أول كتب جمعتها كانت بداية متواضعة تناسب تلك السن . فقد كنت فى بعقوبة ولم تكن تعرف المكتبات ولا بيع الكتب وإنما فيها مكتبة لبيع القرطاسية والكتب المدرسية . وكان صاحبها صادق محمد أو محمد صادق من الكاظمية ، وأصبح بعد ذلك كاتبا فى الثانوية المركزية فى بغداد .

كان صادق يأتى بالكتب المتداولة مثل غزوات الإمام على والمقداد والمياسة وسيرة الزير سالم وعنترة بن شداد وكتب دينية أخرى يؤجرها لنا بأجور زهيدة أسبوعياً وكنا نقرأها ونعيدها له . . ولا أدرى إن كانت هناك كتب أخرى عنده يراها فوق مستوانا الفكرى ولا يقدمها لنا ويخاف عليها من عبثنا فيها ولكن الثقة التى أولانا إياها كانت تحول دون هذا الفكر . . لأن بعقوبة لم تكن مجتمعا علميا متقدماً وعدد المعلمين والموظفين كان محدوداً جدا . فهى مجتمع زراعى وحرفى . بينهم الفلاح والحائك والقصاب والبقال والإسكافى والحداد والعطار وكانوا يجتمعون مساءً فى المقاهى يسهرون ويسمرون إلى وقت محدد ويذهب كل إنسان إلى داره بعد صلاة العشاء بقليل .

ولم يكن فيهم من عرف الدراسة العالية بله الدراسة الثانوية . ولعل

جيل هو أول جيل عرف الكليات . فقد كنا عدداً محدوداً درس في الكليات وكانت دار المعلمين العالية هي هدف أى متعلم والمدرسة الحربية أمنية أصحاب الطموح العسكرى . ولعل أول من حصل على الدكتوراة فى الأدب فقد حصل جماعة منهم على الدكتوراة فى العلوم المختلفة منهم الدكتور أحمد نجم الدين فى الجغرافية ومحمد على البصام فى الرياضيات .

ومن (شفته) وهى قرية من بعقوبة كان أسبقنا الدكتور فاضل حسين . أما من لواء ديالى فلعل المرحوم الدكتور عبد الحميد كاظم كان السباق فى الحصول علىالدكتوراة فى التربية ، وهو من الهويدر .

كانت بعقوبة متأخرة عن الركب لأن أكثر المالكين لبساتينها كانوا من سكان بغداد منذ العهد العباسى؛ان مالكى أرضها الزراعية كانوا يعيشون فى ظل الخلافة . . وعاشوا فى ظل الإقطاع المحدود بعد ذلك .

لهذا لم تكن فى بعقوبة مكتبة عامة أو خاصة أو مكان لبيع الكتب وأنا الذى أسست مكتبة ببعقوبة العامة . ولم تكن فيها غير مدرسة ابتدائية واحدة يأتيها الطلاب من القرى والريف . وكان أكبر عدد وصل إليها من الطلاب (٣٦٠) طالبا . وكانت فيها مدرسة للبنات .

لذلك كان من أوائل الكتب التى احتفظت بها فتوح اليمن والمقداد والمياسة وما شاكلها من هذه الكتب . . وأحتفظ بجزء عم الذى كنت أقرأ فيه فى الصف الثالث والرابع . . وكان فى السوق ديوان مجنون ليلى لا نعرف من أين جمع هذا الديوان ، وعندى كتاب فى الفقه الإسلامى .

ولما تقدمت بى السن بدأت المكتبة بروايات (أرسين لوبين) وبعض القصص الغرامية . وأول ديوان جاد دخل مكتبتى وأنا فى الصف الخامس أو السادس هو ديوان (الأمواج) للصافى النجفى . أهداه إلى والدى (ر) .

وفى الدراسة المتوسطة بدأت الكتب تأتى والمجلات ترد إلى لواء ديالى .

وكثرت الجرائد ولا سيما الجرائد الحزبية،وكانت تأتى بعد الظهر بالرغم من أن المسافة بين بغداد وبعقوبة لا تتجاوز (٤٥) كم لأن المواصلات كانت صعبة إذ لم يكن الطريق مبلطا بين بغداد وبعقوبة وكان القطار هو الواسطة السهلة المضمونة إذ كانت تأتى ظهراً قاطرة واحدة تسحب معها حافلتين وتسمى (الطرزينة)،ولعلها كانت تجلب معها الجرائد .

بدأت أجمع الكتب فى المدرسة المتوسطة ودار المعلمين الابتدائية ، إذ أننى كنت أحتفظ بالكتاب الذى كانت الوزارة تقدمه لنا مجانا وكان أكثر الطلاب يبيعونه .

وقد كان لدار المعلمين الابتدائية أثر كبير فى بنائى أدبيا وفكريا ، ففيها كانت أمهات الكتب وخير المصادر وكانت من أحسن المكتبات التى لا يضاهيها غير المكتبة العامة بالثروة الأدبية ، وفيها مطبوعات أوربا التى لا أدرى ماذا حل بها فضاعت كما ضاعت أمثال هذه الكتب من المكتبة العامة .

ولما دخلت كلية الآداب تبلورت عندى بداية مكتبة واضحة المعالم . فقد كنت أشترى أمهات الكتب وجميع مصادر البحث التى يطلبها أستاذ المادة التى ندرسها . ولما عدت إلى العراق كانت معى مكتبة جيدة فيها ألوان مختلفة من الكتب الفريدة والنادرة وأصبحت مكتبة كبيرة بالنسبة لغيرى من مدرسى اللغة العربية فى الثانوية .

ولما احتجت يوما إلى مال كانت الضحية المكتبة العزيزة فبعت منها الكتب ذات الثمن الغالى . وازداد عدد الكتب عندى عندما رجعت من لندن ، فقد كنت جلبت كثيرا من الكتب الانكليزية فى الأدب الانكليزى ومصادر البحث النادرة التى تتصل بتاريخ العراق . ولما بدأت أنشر كتبى زادت زيادة ملحوظة بالتبادل وازدحمت عندما دخلت عضوا فى المجمع العلمى وأمينا له . . فقد كثرت صلاتى الخارجية بالمبدعين .

ولما عدت من لندن أهديت جميع كتبي ومصادر البحث التي استفدت منها في الدكتوراة إلى مكتبة المتحف البريطاني.وكان لى زميل انكليزي هو المشرف على القسم العربي تلقاها بالشكر والتقدير وقدم لى رسالة شكر على هذه الهدية . وبعدها أرسل لى مبلغا من المال ثمنا لها .

قلت له : أنا أهديتكم الكتب فلماذا أرسلتم لى الدراهم .

قال : نحن شكرناك على الهدية برسالة أرسلناها لك.وقدمنا لك هدية مالية لأنك طالب وبحاجة إلى المال . ولو كنا نستطيع أن نرسل لك أكثر ما قصرنا .

والغريب أنني لم أستطع تعويض الكتب التي أهديتها إلى المتحف البريطاني فقد أهديته (المعلوم والمجهول) لولى الدين يكن و(المسامير) لعبد الله النديم ومحاضر (المجلس التأسيسي العراقي) وهي كتب لم أرها في السوق أبداً برغم تتبعى لها في القاهرة وبغداد .

يمكن أن أقول إن في مكتبتي ما أريد أن أبحث فيه من الكتب والمراجع التي تهم دراساتي ، وفيها مخطوطات حديثة . فقد طلبت نسخ المخطوطات التي احتجت إليها في القرن التاسع عشر أو صورت جانبا منها لكيلا أحتاج إلى استعارتها أو الذهاب إلى المكتبة لدراستها .

فقد عانيت أثناء الماجستير من بعض أصحاب الكتب التي لم تبق في مكتباتهم وقد بيعت إلى مكتبات السعودية وخاصة جامعة الملك سعود بمبالغ كبيرة مع أنها مخطوطات تهم الباحث الذي يبحث عن العراق ، وهي تراث يهم أهل العراق وتاريخه . بددها أحد المحامين حباً في المال ورغبةً في الإثراء وطمعا في التملك . رحمه الله .

مكانها في الدار

المكتبة حجرة من حجرات البيت الكبيرة كلما نظمتها عادت إلى

تراكمها مرة أخرى . ولكثرة كتبها ضاع النظام الذى وضعته لها . والكتب التى أحتاجها دائما يمكن لى أن أعرف مكانها وألوان ظهرها وسمكها .

إن أعمالى الكثيرة فى مختلف الجهات حالت دون أن أصنف الكتب كما يصنفها الكثير من المؤلفين والكتاب ، وشراء الكتاب أهون على وأسهل من البحث - غالبا - عنه بين الكتب الكثيرة . فقد خرجت المكتبة من الحجرة إلى الباب ثم إلى الدار لأن الأسرة كلها تعرف معنى الورقة فقد عودت زوجتى وأولادى على احترام كل ورقة فلا تمزق أو ترمى فنشأ أولادى وحب الكتب واحترامها نصب أعينهم حتى كبروا .

ولما أردت بناء الدار التى أسكنها اضطررت إلى بيع جملة كبيرة من هذه الكتب إلى الجامعة المستنصرية ولكثرتها ظننت أنها مكتبتى مع أنها جزء منها لأنى أبقيت كل كتاب يهمنى فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين وتاريخ الأدب العربى المعاصر والحديث سواء كانت فى التاريخ أو الأدب . ومع ذلك كنت أحس بالغبطة عندما يرفض المسؤول شراء الكتاب وأحس بالرضا عندما أعيدت بعض الكتب لأنى أحسّ بأن أخاً أو صديقاً عزيزاً أحبه رجع لى .

أما مكان الكتابة فليس لى مكان أكتب فيه . فقد أكتب فى كل مكان هادىء بعيداً عن الضوضاء ومتى احتجت إلى الكتابة فقد أكتب فى المحلات العامة دون أن أكترث بما يحوطنى لأنى أنصرف بكل نفسى إلى الكتابة . ولعل أكثر الكتب قد كتبتها خارج العراق فى العطلات التى أقضيها خارج العراق . وفى الدار أعددت لى منضدة طويلة ليست بالمرتفعة وأعددت لى سريراً من الخشب على الأسلوب القديم وله رأسان على أسلوب التخوت القديمة وعليه فراشى كاملا . فإذا أحسست بالإرهاق نمت فى فراشى فهو كرسى وفراش فى وقت واحد لأنى لا أريد إزعاج أسرتى إذا ما عدت متأخراً إلى سريرى .

وقد ألفت الأسرة هذه الوحدة فى المكتبة واحترمت وحدتى العلمية والحجرة لا تصلها الضوضاء حتى وإن قام بها أبنائى ، لأنها فى زاوية من زوايا الدار .

إن خير ساعات أكتب فيها هى بعد الساعة الثامنة مساء صيفاً وشتاء وقد تمتد بى ساعات طويلة بعد منتصف الليل ولكن القاعدة العامة أننى أنام فى منتصف الليل وأوقف العمل عندما يحين وقتى . ولا أكتب إذا أحسست بعدم الرغبة فى الكتابة وقد أوالى العمل عدة ليال وقد أوقف العمل دون قيد . إن شعورى بالكتابة ورغبتى فى الاستمرار دوافع تفرضها على حياتى وإحساسى ومشاعرى .

تطورها

فيها أكثر المراجع التى أحتاج إليها فى الأدب الحديث وتاريخ الأدب فى العراق وتاريخ العراق فى مختلف العصور ولا سيما القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرون . ومن كتب اللغة العربية والانكليزية ودواوين شعراء الجيل الماضى كالرصافى والزهاوى والشبيبى واليعقوبى والأخرس والعمرى والحليين والتميمى ولعلى أملك عدداً كبيراً من دواوين الشعر والأدب التى نشرت وبعض المخطوطات القليلة المكتوبة فى هذا القرن .

وعندى مجموعة جيدة عما كتب عن الفكر التقدمى والشيوعى وبعض مصادر الفكر البعثى التى كانت ممنوعة من التداول وقد استفدت منها عندما كتبت (الاشتراكية والقومية وأثرهما فى الأدب الحديث) . فقد خاف أحد الكتاب من وجودها فى داره فاشتريتها منه وهى ثروة لا تقدر بثمن لا سيما تلك التى طبعت فى أوقات سمح بطبعها وجاءت حكومات منعتها .

وعندى مجموعة من المجلات المحدودة العدد وبعض الجرائد النادرة . وفى المكتبة خزانة خاصة بالمصادر الأجنبية من انكليزية وتركية وبعض

اللغات الأخرى ، وفيها تاريخ العراق والأدب الانكليزي وبعض كتب عن النقد الإنكليزي ومجموعات لشعراء **إنكليز وقصص من الأدب** الإنكليزي . .

وبعد أن تقدمت بي الأيام عادت المكتبة إلى التكدس بما كان يرسل لي من أنحاء العالم وأعضاء المجامع والمؤسسات الأجنبية المتنوعة . ومع أنني أهديت مجموعات كبيرة للمكتبات العامة والزملاء من الكتب التي لا أستفيد منها فما تزال المكتبة محتشدة بعدد لا أتمكن من إحصائه الآن . فالمكتبة تحتوي على مختلف العلوم الإنسانية كالفلسفة والاجتماع والتاريخ والجغرافية والفنون .

ولكن اهتمامي بالعصر الحديث بنثرة ونقده وشعره وتاريخه في الوطن العربي بعامة والعراق بصورة خاصة دعاني إلى اقتناء أكثر المصادر . . وكنت أعتمد اعتماداً كلياً على مكتبتي الخاصة ومن ثم رعيت مكتبة المجمع وزودتها لأستفيد منها فأضفت إليها بعض المجلات والجرائد والمخطوطات واشتريت لها بعض مكتبات أعلام العراق فوزعت اعتمادي بين مكتبتي ومكتبة المجمع .

عدد الكتب التي ألفتها

كتبت عدداً كبيراً من البحوث والدراسات منشورة في كثير من المجلات العلمية في أنحاء العالم العربي وبخاصة مجلة المجمع ومجلة كلية الآداب والأستاذ ، أما كتبي فقد جاوزت الخمسة والثلاثين كتاباً من بحوث أدبية ونقدية وتراجم أعلام **ضمن قائمة كتبي** إذ أنني لا أرجع إلى بحث كتبته ودرسته لأني أبذل جهدي في استكمال البحث العلمي وأحاول أن أغطي مساحة هذا البحث بكل ما تحتاجه من مصادر وآراء وأستقصي كل الاستقصاء ولا أترك ثغرة إلا أسدها وبحثاً إلا أقرأه . . حتى أشبع الدراسة

أو البحث تمحيصاً ومقارنة وأسبر غوره حتى أصل إلى ما أراه جوهر البحث وقاعدته وأسلوبه ونتائجه المختلفة .

المخطوطات والهدايا

لا أحتفظ بتحف ولا مخطوطات فى مكتبى إلا بعض الهدايا التذكارية التى كنت أجلبها من العالم ومخطوطات حديثة وصور مخطوطات أصلية أحتاج إليها لأن قانون الآثار وما يتبعه من إرهاق لأصحاب المخطوطات حال دون أن أشترى المخطوطات الكثيرة لأنى أريد أن أبعد عن نفسى العذاب والألم الذى يسلطه على قانون الآثار أساء بعض المسؤولين تطبيقه فى يوم من الأيام وذهبوا إلى أحد الباحثين فى حملة تفتيش جرت على الباحث الصدمة النفسية والجسمية والمرض الذى أصاب قلبه .

إن قانون الآثار الذى تعرّض للملكية الشخصية للمخطوطات هرب عشرات الألوف من المخطوطات من العراق . وقد حدثت كبيراً فى هذا الشأن ولفت نظره ولا أظنه اكترث بما قلت له إذا لم أجد أثراً لكلامى . وقد رجوته تغيير هذا القانون إلى قانون يبقى المخطوطات عند أهلها ولا يتدخل فى الملكية الفردية مثل الأمم الأخرى وللأسف بقى القانون دون تغيير واستمر تهريب المخطوطات خارج العراق .

الملفات والوثائق

ليس فى مكتبى (ملفات) لتنظيم المكتبة إنما أضع الكتب حسب المواضيع العامة كما أنى لا أحتفظ بملفات لبحوثى وعلى الأكثر أتخلص من الجزازات التى أخذتها من بحث فى موضوع أو كتاب . وقد اعتدت أن أبدأ من جديد فى كل بحث أكتبه أو كتاب أعده لذلك كانت كتبى وبحوثى مختلفة المناهج والأساليب الجزئية وإن كانت تتفق مع المسيرة العلمية

العامة . . فكل كتاب يختلف نهجه عن أخيه . وكل إنتاج بين كتبى يختلف عن كل كتبى الكثيرة نهجاً وأسلوبا وطريقاً للبحث .

هدايا المبدعين

الهدايا كثيرة لا يمكن أن أحصيها فكل مؤلف أعرفه يهدينى بعض كتبه وأرسل له بعضا من كتبى فى الشرق والغرب وتصلنى بلغات متعددة وخطوط لا أفهمها . لأنى أهدى كتبى إلى الباحثين والمفكرين والأدباء منهم :

أولا : بعض طلابى المحتاجين إليها وبعض الناس تقديراً وتشجيعاً .

ثانيا : كل مؤلف يهدينى كتبه لابد أن أرد الهدية بمثلها وبأكثر .

ثالثا : الجهات العلمية كالمجامع والجامعات وبعض الجمعيات العلمية وبخاصة تلك التى لى بها صلة أو أننى عضو فيها .

رابعا : وقد أهدى بعض الكتب للجرائد والمجلات التى تعنى بالكتب رغبةً فى التنويه بها أو ذكرها بين المطبوعات الجديدة .

خامسا : وأهدى كتبى للزملاء أصحاب الاختصاص الذين أتوسم فيهم قراءة الكتاب ومبادلة المعلومات معهم .

سادسا : أهدى بعض كتبى لبعض المسؤولين الذين لهم صلة بالفكر والأدب وقليلا أهديها لمن لا يقرأها أو تقرباً له .

نماذج من عبارات الإهداء

إن عبارات الإهداء كثيرة من عدد من المؤلفين والكتاب فى جميع أنحاء العالم وأكثر هذه العبارات مدونة على الكتب المحفوظة فى المكتبة ببغداد ومن آخر ما وصلنى من الكتب يحمل العبارات التالية :

اسم الكتاب	المؤلف	الإهـــداء
١ - بحوث ودراسات في العروبة وآدابها	محمد خلف الله أحمد	تحية للصديق الأديب العالم الدكتور يوسف عز الدين
٢ - أحمد الصافي النجفي	عبد الله الشيتي	الإنسان الكبير قلبا وقلما وإنسانا الدكتور يوسف عز الدين مع المودة والتقدير .
٣ - على مرافيء التراث	أ.د. أحمد الضبيب	لأخي الجليل الشاعر المرهف والعالم والناقد المتمكن ذي الخلق الرفيع والخصال النبيلة الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين رمز مودة دائمة وتقدير واعجاب .
٤ - لو أنبأني العراف	لميعة عباس عمارة	الأستاذ الكبير والإنسان الرائع الأخ د. يوسف عز الدين .
٥ - مصطلحات الفقه الحنبلي	د. سالم علي الثقفي	مع أجمل التحيات وأحلى الأمنيات لسعادة الدكتور يوسف عز الدين الهاشمي
٦ - النيروز الحر (شعر)	أحمد زكي أبو شادي	إلى أخي الحبيب وأستاذي الكبير الدكتور يوسف عز الدين مع الود الموصول والمحبة التي لاتنقضي (وديع فلسطين)
٧ - عيون تعشق السهر	أحمد سالم باعطب	إلى سعادة الأديب الكبير والشاعر المبدع الذي طالما ترنمت بشعره العواطف والقلوب وتناقلت أنباء أدبه أعلام الأدب والثقافة في الممالك والشعوب ، إلى سعادة الدكتور الذي يأسرك بعذب حديثه ويحلق بعشاق أدبه في سماوات المتع من أدبه قديمه وحديثه إلى الذي إذا شدا بالشعر أطرب وأمتع وإن قال نثرا أجاد وأبدع وإن ناقش موضوعا أفاد وأقنع أستاذ الجيل الذي تربى على يديه كثير من أبناء الوطن العربي . . أهدي ديواني هذا راجيا أن يتفضل بقبوله وأن يجود عليه بالقراءة وأن يحسن إلى صاحبه بالنصيحة . .
٨ - المدينة العربية	د. خالص الأشعب	ود. صادق وتقدير حميم لأخي أ. د. يوسف عز الدين وفقه الله
٩ - (حكايات من البحيرة الغربية)	ترجمة رضوان ليو ليتشوي	الصديق العزيز الأستاذ يوسف عز الدين مع التحيات

١٠ - غلوب باشا	ترجمة سليم طه التكريتى	أخى الأعز د. يوسف عز الدين مع خاص التقدير
١١ - حكايات وقصص شعبية	صادق راجى المحامى	إلى العلامة الكبير الدكتور يوسف عز الدين هدية إجلال وتقدير
١٢ - مبحث فى قضية الرمزية الصوتية	أ.د. البدراوى زهران	إلى العالم الجليل الدكتور يوسف عز الدين تحية ومودة وتقديراً.
١٣ - شعر	أحمد زين السقاف	لأخى الأعز الأنبل الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين مع الود والتقدير .
١٤ - نبضات شاعرة	جميلة العلايلى	إلى الأديب العالمى الأستاذ النابغة .
١٥ - السعوديون والحل السلمى	محمد جلال كشك	إلى أستاذ الأساتذة الدكتور يوسف عز الدين مع تحياتى وارتياحى .
١٦ - من كناشة النوادر	عبد السلام هارون	الأستاذ العالم الجليل يوسف عز الدين
١٧ - مملكة عبد الله	حميد سعيد	أستاذنا الفاضل الدكتور يوسف عز الدين تحياتى وصادق موتى .
١٨ - حضن الأم	الشاعر القروى	إلى أخى الأديب الكبير الدكتور يوسف عز الدين تحية عربية فضلها الله تعالى ودعاه بعمر مديد سعيد يجدد لكم فيه أشدكم ما شاء الله
١٩ - المجموعة الشعرية	أ.د. عاتكة وهبى الخزرجى	بين يدى أخينا وزميلنا الأستاذ الباحث الأديب الشاعر سعادة الدكتور يوسف عز الدين هذه المجموعة الشعرية الصادرة لتوها عن مطابع حكومة الكويت مع الاعتزاز وجميل الذكر من أختكم بالله المخلصة .
٢٠ - مفكرون فى السعودية	أ.د. يوسف نوفل	إلى سعادة العميد إلى أستاذى وأستاذ الجيل ورائد البحث الأدبى المعاصر أستاذى الحبيب أ.د. يوسف عز الدين حباً وإعزازاً .
٢١ - أى بنى	د. عبد العزيز الخويطر	مع التحية والتقدير للأخ العزيز يوسف عز الدين . أرجو أن تقضى معه وقتاً يزيل عنك ملل العمل وكأداء .
٢٢ - شاعرية شاعر : زهير بن أبى سلمى	د. عبد الله العيادى	أستاذى الجليل سعادة الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين ، فأنت أستاذ تعلّم منك الكثير . أهدى إليك هذه النسخة وأهابك معها إجلالا واحتراماً . أنت رجل ربيّت أجيالاً وصنعت رجالاً ولك

		وتقديرى . مع ذلك صادق الحب والمودة ، تلميذك .
٢٣ ـ ثقب فى جدار التخلّف	د. محمود سفر	للأستاذ الكبير يوسف عز الدين مع الإعزاز والتقدير .
٢٤ ـ الغرب فى مواجهة	مازن مطبقانى	إعجابى بكم مما سمعت وقرأت دفعنى إلى تقديم هذه الهدية المتواضعة ، أرجو قبولها .
٢٥ ـ معلمة للتراث الأردنى (٥ أجزاء)	روكس بن زائد العزيزى	إلى سعادة الأستاذ الكبير يوسف عز الدين عالم الشعراء وشاعر العلماء الموقر حرسه الله .
٢٦ ـ مسرح شاكر خصباك	أ.د. شاكر خصباك	الأخ الشاعر الموهوب الأستاذ يوسف عز الدين مع
٢٧ ـ الفوضويون لأوسكار وايلد	ترجمة عبد المجيد القيسى	منذ ثلاثين عاماً أجبرتنى على ترجمة هذه المسرحية ، ثم توليت أمور طباعتها ونشرها فخرجت كتاباً ماكان ليخرج لولا عظم عونك . أرجو أن تتقبل هذه الطبعة الثانية إعادة لذكرى أيام مرّة ماكانت تحتمل لولا حلاوتك .
٢٨ ـ النقد والحداثة	د. عبد السلام المسدى	هدية المؤلف لفضيلة العالم الكبير الدكتور يوسف عز الدين مع صادق الإكرام .
٢٩ ـ شيء كان ممنوعاً	يوسف جوهر	الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين مفخرة الأدب العربى مع إعجابى وأصدق تمنياتى .

إهداء الكتب

كنت أحتفظ ببعض القوائم عندما كان عدد المعارف والأصدقاء محدودا ولما كثرت دائرة المعارف والأصدقاء والمؤلفين تركت هذه العادة لسببين :

الأول : أنني أنتقل من مكان إلى مكان فى العمل والتدريس .

الثانى : صعوبة الاحتفاظ بالقوائم لأنها كثيرة وطويلة .

وتكون الهدايا لعدد كبير من الأصدقاء والمعارف والهيئات العلمية والفكرية والأدبية وبعض أعضاء المجامع وعدد من المستشرقين فى بقاع العالم العريضة .

إن صلاتى الواسعة بالمجامع والكتاب والمؤلفين من الصين إلى روسية وانكلترا وأكثر أقطار العالم العربى يحول الآن دون أن أسجل أسماءهم وأحمد الله على كثرة هؤلاء المؤلفين الذين أعتز بصداقتهم وكثرة عددهم وهم يتجاوزن العشرات بل المئات . فقد بدأت فى يوم من الأيام أسجل أسماء الذين أهديهم أحد كتبى وأعددت دفتراً للأسماء فوصل العدد إلى (٧٢١) وجاوز هذا العدد فأوقفت كتابة الأسماء بعد ذلك إلا لضرورة واحدة هى ألا أعيد إرسال كتاب فى البريد مرتين .

شراء الكتب

ليس لى منهج فى شراء الكتب فأنا أشترى كل كتاب أحس بأنى أستفيد منه أو سوف أستفيد منه فى المستقبل . وعندى عادة أحافظ عليها أن أكرس وقتاً من كل أسبوع أذهب فيه إلى المكتبات فى سوق السراى وأتصفح الكتب التى وصلت حديثا وأقرأ قوائم الكتب التى تصل إلى هذه المكتبات ومتى وجدت فائدة من شراء هذا الكتاب حاضراً أو مستقبلاً اشتريته .

ولما كثرت مؤلفاتى واتسعت ساحة المعارف والأصدقاء بدأت تصلنى

الكتب من كل أنحاء العالم عندما تحدد اختصاصى وعرف الزملاء اجوانب العلمية التى أهتم بها .

وعندما أمر بأية مكتبة من المكتبات سواء كنت مسافراً إلى أوربا أو البلاد العربية أعرج عليها كما كنت أمر على سور الأزبكية دائماً وأجد فيه نوادر الكتب التى لا أجدها فى بغداد . ولا أمر ببائع كتب على الرصيف إلا وقفت ونظرت إلى ما يبيع وقد وجدت مرة عند بائع رصيف كتابا نادرا وكان ممنوعاً فى العراق ولما سمح ببيعه قطعت أوراق فيه فوجدت الكتاب كاملاً .

وقد احتجت مرة كتاباً بالانكليزية ودرت فى جميع أنحاء لندن وسألت عنه فى كل المكتبات وكتبت الجامعة تسأل عنه ولم نجد إلا نسخ المكتبة .
وبينها كنت أدور على سور نهر السين فى باريس وجدت الكتاب واشتريته بأبخس الأثمان .

ومن الطريف أننى كنت أزور قرية انكليزية فوجدت كتابا بالانكليزية عن السودان طبع فى القرن التاسع عشر فأخذته لأن فيه بعض الصور الغريبة وكنت أجلس فى حجرة الطلاب فسمعت زميلاً سودانياً يتألم لأنه لم يجد هذا الكتاب مع أنه بذل مبلغاً من المال فيه .

قلت :أنا عندى وأبيعه لك بأقل من الباون . فتعجب وأخبرته بقصته وكاد يطير فرحاً .

إن صلاتى بالكتب والمكتبات لم تنقطع بداية من معارض الكتب الكبيرة وانتهاء بالرصيف وهى التى زودتنى كتباً نادرة وحصلت بذلك على أنفس المطبوعات وأندرها من الرصيف وباعة الكتب القديمة .

ملحق رقم ١ :

بعض ذكرياتى مع
الدكتور يوسف عز الدين
(أيام الطفولة والشباب)

١ـ تمتد صلتى بالدكتور يوسف عز الدين إلى أمد بعيد جدا منذ كنا طفلين لا نتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة سنة من العمر ، حيث كنا أبناء محلة أو حارة واحدة فى مدينة المقدادية (شهربان) وفى الصف الخامس الابتدائى حيث كانت المقدادية حينذاك مدرسة ابتدائية واحدة . . وكنا نحن الاثنين نذهب إلى المدرسة معا ونعود معا . . وكنا من التلامذة النابهين درجاتنا الامتحانية الفصلية والنهائية بين ممتازة وجيد جدا .

٢ ـ كنت والدكتور يوسف نتناوب صباح كل يوم خميس فى تحية العلم فى ساحة المدرسة الكبيرة الواسعة مرة بالخطاب المكتوب وأخرى بالارتجال المحبوب . وكنا ننال رضا التلاميذ والمعلمين حيث تضج الساحة بالتصفيق وعبارات الاستحسان .

٣ ـ كنا نشترك فى السفرات المدرسية إلى نهر الصدور حيث يبعد عن شهربان حوالى عشرة كيلومترات ، وكنا نذهب مشيا على الأقدام وعلى أنغام الموسيقى حاملين الماء والطعام معا ، ولانعود إلا عصرا بعد أن يأخذ التعب والإرهاق منا كل مأخذ .

ونوع آخر من السفرات : نذهب إلى قضاء خانقين لمشاهدة نهر الوند ومصافى النفط ، وكنا نذهب إلى خانقين بواسطة القطار ولانعود إلا مساء

بعد أن استمتعنا بمفاتن الطبيعة وجمال الحياة الدافقة المتوثبة نحو الرقى والتقدم مما كنا نشاهده فى مصافى النفط من حركة دائبة ومعامل ومكائن كبيرة متنوعة .. إلخ .

٤ ـ أذكر فيا أذكر أن أحد المعلمين ولا أتذكر اسمه أراد فى أحد الأيام أن يتبرع تلميذان ـ وكنا فى الصف السادس الابتدائى ـ للقيام بمهمة البائع فى حانوت المدرسة .. فرفع الطلاب جميعهم أصابعهم إلا أنا والدكتور بقينا صامتين ساكتين لانبنس ببنت شفه . وقد لاحظ المعلم ذلك فقال لنا : ما لكما لا ترفعان أيديكما علامة الرضا ؟ فقلنا معا : لم نأخذ أو نحصل على موافقة الوالد أولا ونخشى ثانيا أن يلهينا ذلك عن المطالعة وحفظ الدروس .. فأكبر فينا هذه الروح المثالية فى طاعة الوالدين والحرص على العلم .

٥ ـ كنا نلعب فى المحلة عصرا مع أقراننا من الأولاد . وهنا لا أبوح سرا إذا قلت إن يوسف كان ينسحب من اللعب ربع ساعة أو نصف ساعة على أكثر تقدير بحجة أنه تعبان ويريد أن يستريح ليواصل القراءة .. ولما أعود من اللعب وأسأله عما قرأ يجيبنى أنه قرأ أولا الدروس المدرسية ثم بعض القصص والروايات مثل : المياسة والمقداد ، عنترة بن شداد ، أبو زيد الهلالى .. الخ .

٦ ـ فى أحد الأيام زار قائممقام القضاء ، وأذكر أنه كان الأديب الكبير المرحوم إبراهيم صالح شكر فاختارنى مرشد الصف إلى تحيته والترحيب به بواسطة الخطاب المكتوب ، ففعلت ذلك .. وفى مرة أخرى زار المدرسة متصرف اللواء (ديالى ـ المحافظ) فاختار مرشد الصف الأخ يوسف لتحيته والترحيب به بواسطة الخطاب المكتوب .. وهكذا كنا نحن الاثنين الوجه المشرق واللسان الذرب لمدرسة شهربان الابتدائية .

٧ ـ أذكر من زملائنا فى الصف السادس ما يأتى : صفاء الدين محمود الأنصارى ، عباس شايجة ، عبد القادر مهدى الخشالى ، خليل مصطفى ، عاصم القيسى ، فاضل على ، ثابت نعمان ، حكمة سعيد .

ومن المدرسين خليل الخشالى ، محيى الدين شيخ الحلقة ، عبود عبد المجيد ، محمود غناوى .

٨ ـ وبعد نجاحنا فى الامتحان الوزارى العام للدراسة الابتدائية انتقلنا إلى بعقوبة لدخول المدرسة المتوسطة حيث لم تكن فى شهربان مدرسة متوسطة . ويشاء الله كذلك أن نسكن فى محلة واحدة .

٩ ـ وفى بعقوبة أيضا كما فى شهربان ـ كنا أنا ويوسف فى صف واحد فى متوسطة بعقوبة للبنين . وكنا أيضا من التلاميذ النابهين بحيث لانهمل واجباتنا المدرسية بل نحفظها ونحضرها يوميا هذا إلى ازدياد ميلنا الشديد إلى الشعر والأدب بحيث كنا نطالع الجرائد والمجلات والقصص والروايات لطه حسين والمازنى والمنفلوطى وسلامة موسى وكنا نفضل ونميل إلى المنفلوطى لأدبه المشرق وأسلوبه الرصين المتين فى النظرات والعبرات وغيرهما الكثير الكثير . . وكنا وبعض الزملاء مثل : وحيد الحكيم وصبحى البصام ومحمد على البصام نتطارد بالأشعار ، فكان يوسف الفارس المجلى الذى لا يبارى ولا يجارى . . إضافة إلى أخذنا نكتب فى الجرائد البغدادية وخاصة فى جريدة العالم العربى ، ما يعن لنا من أفكار وخواطر أدبية واجتماعية مما كان له أكبر الأثر فى ترسيخ وترصين أقلامنا الغضة الطرية .

١٠ ـ وفى المدرسة المتوسطة أظهر يوسف ميلا شديدا إلى النجارة ، فكان يتعاون مع مدرس النجارة فى المدرسة الأستاذ الحاج إسماعيل عبد الوهاب تعاونا مخلصا وجديا حيث كنت تراه دائما فى غرفة النجارة ليعمل كرسيا أو سبورة أو منضدة . . إلخ . .

١١ - كنت ويوسف نشترك بالتناوب صباح كل خميس فى تحية العلم فكنا ننال استحسان الإدارة والتلاميذ معا، كما كنا نشترك فى كتابة جريدة الحائط المدرسية فنملأها أشعارا وأدبا وحكما وقصصا ونوادر .. إلخ .

١٢ - وفى المساء كنا نجتمع فى ساحة المحلة ونتحدث فى شتى الأحاديث من أدبية واجتماعية وفلانة جميلة وأخرى قبيحة .. إلخ .

١٣ - ومن زملائنا فى المدرسة المتوسطة : صبحى البصّام ، محمد على البصام ، محمود العبدان ، مصطفى محمد القيسى ، جاسم عبد الحسين السعدى ، شهاب أحمد الخشالى ، وحيد الحكيم،عبد القادر الخشالى ، سبع خماس ، عبد الوهاب عبد الرزاق ، رشيد محمود القيسى ، على ناصر الزبيدى ، أكرم نصورى ، كريم رشيد ، حكمة سعيد ، يوسف البدرى .

١٤ - لم نعتد الجلوس فى المقاهى كما كان زملاؤنا الآخرون ، بل كنا نذهب إلى الحدائق وساحات المهرجانات التى تقام بمناسبة الأعياد والاحتفالات الأخرى للتفرج على دواليب الهواء والأراجيح والعربات التى تجرّها الخيول .

١٥ - غالباً ما كنا نذهب إلى محطة القطار التى تبعد عن مركز البلدة حوالى كيلومترين للتنزه ومشاهدة القطارات الصاعدة والنازلة من بعقوبة إلى بغداد وكركوك ، وأحيانا كنا نذهب إلى بغداد معاً أو فرادى لشراء بعض الكتب الأدبية والمجلات .. إلخ . كالرسالة والرواية حيث لم تكن فى بعقوبة ولا مكتبة واحدة . وبهذا الصدد لا أنسى فضل الأستاذين الأديبين توفيق الفكيكى والشيخ سعيد البدرى على حيث كان الأول حاكما فى محاكم بعقوبة والثانى موظفا فى محاكم بعقوبة أيضا حيث كانا يحثانى ويشجعانى على القراءة والكتابة ويستحسنان ما نكتب ويطلبان منا المزيد .. مع الشاعر المبدع صالح البدرى والد زميلنا يوسف صالح البدرى حيث كان يزودنى ببعض الكتب الأدبية والدواوين الشعرية بوساطة ابنه .

١٦ - كنا نجتمع أحيانا فى المدرسة مع بعض زملائنا التلاميذ فى صفوف أخرى مثل الأدباء يوسف عبد المسيح ثروة وفالح العسكرى وياسين رشيد لنتداول فى الشئون الأدبية ولنطلع على ما قرأوا وكتبوا .

١٧ - فى أيام الصيف عند اشتداد الحر كنا نذهب إلى نهر ديالى للاستحمام والسباحة .

١٨ - المعروف عن بعقوبة أنها عاصمة الفواكه والخضروات حيث تكثر فيها البساتين الزاهرة المثمرة والمزارع الخصبة المعطاء ، غير أن أصدقاءنا من أهالى القرى المحيطة ببعقوبة كالهويدر وبهرز وشفته وخرنابات يتفاخرون ويدعون بأن بساتينهم أجمل وأحسن . وكثيرا ما كانوا يدعوننا لزيارتهم في بساتينهم والتمتع بمناظرها الباهرة الساحرة وهوائها المنعش الرائع الممتع . . والحق كان كذلك .

١٩ - من أساتذتنا فى المتوسطة : الحاج محمود عبد الوهاب قارىء القرآن الشهير وسعيد بهجة وحسين بستانه وكامل قزانجى وباقر البعلى وعزيز صبور وعبد الجبار رمو وعبد القادر الحسينى ، وعبد الرحمن الغمراوى .

٢٠ - بعد تخرجنا فى المدرسة المتوسطة اختار يوسف الانتماء إلى دار المعلمين الابتدائية ببغداد واخترت أنا البقاء فى بعقوبة لإكمال دارستى الثانوية ، وكنت أزوره فى بغداد بين آونة وأخرى حيث تفتحت هناك قريحته الشعرية وأخذ ينظم القصائد الطوال ويتلوها على الطلاب فى الحفلات العامة والندوات الأدبية . وهناك عرفنى يوسف بالشاعر الكويتى أحمد السقاف . .

٢١ - بعد تخرجى فى الثانوية انتميت إلى كلية الحقوق ببغداد فاستأجرت غرفة فى فندق الملوكى مقابل الكلية كانت بمثابة مركز مطالعة مع

زملائى الجدد فى الكلية فوزى عبد الواحد وبشير الخالدى وأحمد الهيتى وكثيرا ما كان يوسف يزورنا ويترنم لنا بأشعاره الحلوة الجميلة . . وقد صار صديقا لهم .

٢٢ ـ بعد تخرج يوسف فى دار المعلمين الابتدائية عين معلما فى أحد أرياف بعقوبة فى (إمام عسكر) بالضبط وكان أسبوعيا يراسلنى وفى داخل كل رسالة قصيدة شعرية أو رواية طويلة بحيث تربو على الثلاثين أو الأربعين صفحة وقد استرجعها منى عندما نال شهادة الدكتوراة على أمل طبعها .

٢٣ ـ وعند ذهابه إلى مصر للحصول على شهادة الماجستير أذكر هنا باعتزاز أن والدته ـ يرحمها الله ـ كانت تناديني وتضمنى إلى صدرها بحنان شديد وتقول لى بالحرف الواحد (عيونى كمال أشم فيك رائحة ولدى العزيز يوسف) .

٢٤ ـ هذه بعض الذكريات أو قل إنها غيض من فيض وطاقة من باقة عن صداقة عاشت ودامت أكثر من نصف قرن لم يتخللها زعل ولا شجار ولا سادها برود ومجافاة بل إنها تزداد قوة ومتانة على مر الأيام فى زمن قلت فيه المروءات والشهامات وجدب فيه الإخلاص والوفاء .

وشكرا للدكتور يوسف الذى حفزنى على كتابة هذه المذكرات التى كاد المرض يقطعنى عنها وينسينى إياها حيث أنا من مدة تجاوز العشر سنين تركت القراءة والكتابة إلا لماما .

الصحة والعافية ومع الراحة والمزاج . . والسلام .

المحامى كمال القيسى
بغداد فى ٢٢ ـ ١٠ ـ ١٩٨٨ م

ملحق رقم ٢ :

من رسالة الاستاذ عبد المجيد حسيب القيسى

الفاتح من ديسمبر ١٩٨٨

عزيزى الأخ يوسف

وصلت إلى رسالتك الأخيرة تريد أن تثير فى ذكرى أيام بعقوبة وأن أكتب لك ذكرياتى . وقد نسيت أو أنساك شبابك الدائم أنى قد خرجت من بعقوبة قبل خمس وخمسين سنة ولم يكتب لى أن أزورها بعد ذلك على شدة شوقى لزيارتها وعلى شدة قرب مزارها من بغداد .

لقد قضيت فى بعقوبة سنين ثلاثاً ودعت فيها الطفولة والصبا . وفى بعقوبة دخلت الصف الأول الابتدائى . . وأنا أحمل لكثير ممن علمونى احتراماً يبلغ حد المحبة . وأول هؤلاء وهو أول ذكرياتى عن بعقوبة معلمنا فى الصف الأول (ضياء الألوسى) رحمه الله . . ولا أدرى إن كنت تذكره أم لا .

كان رجلا أقرب إلى القصر منه إلى الطول وإلى البدانة والامتلاء منها إلى النحافة . وكان فى ذراعه اليسرى شىء من الاعوجاج . وكان بشوش الوجه تجد على محياه وحتى فى ساعات شدته مشروع ابتسامة قد لا يتحقق دائما ولكنه ينور وجهه بإشراقة حيّية ودودة .

درسنا ضياء الدين في الصف الأول الابتدائي ، ومعلمو الصف الأول في نظرى بعض من المعجزة الإلهية . ويؤلمنى أنهم لا يقدرون حق قدرهم .. فقد زرت وأنا مدير عام فى الدولة إحدى قرى مدينة الحلة فوجدت فى مدرستها (جلال غريب) مازال يعلم فى الصف الأول .. (زيرى وزيرى) .. (زارونا) .. وكان قبل ثلاثين عاما يدرس فى ابتدائية الحلة حيث كنت هناك .. وكان من تقدير الدولة له أن نقلته من المدينة إلى الريف ..

لقد خجلت أن أكلمه . فهذا الذى علمنى (زيرى وزارونى) يقف أمامى خجلا رث الثياب مهدم الصحة .

ومن ذكريات بعقوبة التى لا تنسى ، بعقوبة نفسها ، إذ مازلت أتصورها بستانا كبيرا تعبق منه أرواح القداح وتزينه أوراق الأشجار وأوراد البرتقال . وأذكر فى بعقوبة هجوم الجراد عليها يوما ما ، أو ليلة ما فلما أصبح الصباح لم نجد ورقة أو سعفة خضراء فى كل بساتين بعقوبة .. ولهذا فإن رواية (الأرض الطيبة) لمؤلفتها (بيرل بك) تحتل عندى مكانا مرموقا لأن وصفها لهجوم الجراد فى الصين يذكرنى بما شهدته تلك الليلة فى بعقوبة .. ومن ذكريات بعقوبة المؤلمة فقدانى أخى مظفر الذى دفناه فى مقبرة السيد إدريس قرب شفته .. وكنت ومازلت .. أو لم أزل أمنى النفس بزيارة قبره ..

أما معارفى وأصدقائى فى بعقوبة فأولهم وأطولهم عهدا هو أستاذنا الدكتور يوسف عز الدين - أعز الله دنياه - كما أعز هو الدين .

وكان من أصدقائى المقربين المرحوم إبراهيم الخشالى الذى صار ضابطا فى الجيش ووصل إلى رتبة زعيم . وكان معنا فى المدرسة الدكتور ضياء الدين أحمد الذى أصبح وكيل وزارة لوزارة الزراعة وهو الآن على ما أعتقد فى مؤسسة (الفاو) .

ومنهم لطفى عزت الذى صار رئيسا لبلدية بعقوبة خلفا لأبيه ثم صار نائبا فى البرلمان .

وكان معنا فى نفس الصف الدراسى أخوه مجيد عزت وكان على عكس أخيه شكلا . فإذا كان لطفى كما تذكر مليئا قصيرا مرحا نشيطاً كان مجيد طويلا نحيفا كئيبا . وقد حصل مجيد على الدكتوراة فى القانون من فرانسة وعلم فى كلية الحقوق فى بغداد ثم توفى إلى رحمة الله .

لعل هؤلاء هم كل من أذكر من رفاق المدرسة .. عفوا فاتنى أن أذكر المرحوم خطاب إسماعيل الذى توفى فى الستينات وهو مدير عام لوزارة الكمارك وقد عرف بأدبه الجم وخلقه النبيل .

هؤلاء من أذكر من رفاق الدراسة وأذكر من معلمينا الأستاذ ضياء الألوسى والسيد إسماعيل مصطفى وكان مدرسا للرياضة كما أذكره قد ترك التدريس والتحق بالكلية العسكرية ووصل إلى رتبة أمير لواء فى الجيش ثم صار وزيرا أيام عبد السلام أو عبد الرحمن عارف .

وقد التقيته عام ١٩٥٣ ضابطا كبيرا . وبسبب حساسيتى المعروفة ضد العساكر فقد تجاهلته هو ومعاونه ولكنه عرفنى ، ربما من اسمى ، فدخل على بهيئة المعلمين وعنفنى على تقصيرى تجاهه فلما أجبته بقسوة وفتور كشف عن هويته فإذا هو إسماعيل مصطفى ومعاونه إبراهيم الخشالى .. فلم أتورع عن قولى له .. كيف أعرف أن الزعيم إسماعيل مصطفى هو إسماعيل مصطفى المعلم .. وكان عناق وتجدد الود حتى آخر أيامى فى بغداد أى قبل خمسة وعشرين عاما .

ومن معلمينا وكان يدرس الرياضة البدنية أيضا المرحوم عبد المجيد جليل الذى صار مديرا للأمن العام أيام عبد الكريم قاسم . هل كان محقا إذ لم يف إلا لعبد الكريم قاسم أم كان محقا فى إزالته .. لا أدرى .. رحمهما الله ..

لعل أخاه عبد الخالق كان معنا .. أو ربما قبلنا ..

أما المعلمون الآخرون الذين ظلوا فى سلك التعليم فأشهرهم شعبان .. ربما شعبان رمزى والذى أذكر منه عصاه التى لا تفارق يديه .

وكان من مدراء المدرسة شفيق سلمان الفكة العراقى الشهير وهو زميل نورى ثابت فى تحرير (جيزبوز) ، وكلاهما قيسى ـ ولا فخر .

وسعيد بهجت وكان رحمه الله متعاقدا معى أو (ماخذنى بالالتزام) فأينما ذهبت فى أى لواء وفى الدراسة الابتدائية والمتوسطة أجد سعيد بهجت مديرا فوق رأسى .

وبعد ، هل أرضاك هذا الخربط ؟ وهل هناك شىء جديد ؟ !

أبو ظبى — عبد المجيد حسيب القيسى

ملحق رقم ٣ :

رسالة الاستاذ الدكتور ماهر حسن فهمى

عزيزى الدكتور يوسف عز الدين

تحية عبقة صافية وبعد . .

وصلتنى رسالتك فأعادت إلى ذكريات أربعين عاماً ولّت مسرعة عجلة لا تتأنى ولا تتريث .

١ ـ تسألنى عن حياتنا فى الكلية ، لقد كنت شاعراً من شعرائها ، كمال نشأت ، ومحسن الجوهرى ، ويوسف عز الدين ، وكنت أحد أربعة زملاء من العراق ، محمد باقر عبد الغنى ، رحمه الله وكامل الشيبى مد الله فى عمره و ميرى فتوحى ، وقد تبوأ كل منهم منصبا مرموقا فى العراق ، كنت أقربهم إلى قلب أساتذتنا جميعا ، محمد خلف الله أحمد ومحمد حسين ومحمد طه الحاجرى وعبد السلام هارون رحمهم الله جميعا ، وكنت أقدرنا على التعبير عن رغباتنا ، بل لعلك كنت أقدرنا على التعبير عن مشكلات الطلاب فى ذلك الوقت . أذكر أن درس مناهج البحث كان قد أثار جدلا بين أستاذنا الدكتور محمد حسين وبين عدد من الطلاب والطالبات ، بكت الطالبة (عواطف عبد السلام) وحضر بشير عبد البر فى منتصف الدرس وأساء غيره التعبير فترك الأستاذ الدرس وصعد إلى مكتبه وصعدنا معه وتحدثت بلساننا قائلا : مهمتك ليست علمية وحسب ولكنها أيضا تربوية فهدأت نفسه . وعاد إلى المحاضرة راضيا .

أما جمعية الشبيبة العربية التى ألفتها من الطلبة ، فهى تنبىء عن اهتمام مبكر بالفكر والأدب أكثر مما تنبىء عن أى شىء آخر . لأن الحركة الأدبية الطلابية نمط حركة أدبية طلابية فى مستواها الفنى .

من زملائنا الدكتور مصطفى الشويمى وقد تسمى باسم مسيو شوميه بعد أن تجنس بالجنسية الفرنسية وهو منذ حصوله على الدكتوراة أعنى منذ ثلاثين عاما مشرف على مشروع إصدار معجم عربى فرنسى إنجليزى كان (بلاشير) قد وضع أساسه وقام الشويمى بتنفيذه.وكل عشرة أعوام يصدر مجلدا فى حدود مائتى صفحة يضم حرفين أ ، ب ، ثم ت ، ث ، ثم ج ، ح وتوقف عند الجزء الثالث لأنه معجم كبير ، ومن هنا ندرك أسرار تفوق الأوروبيين أعنى الصبر وعدم استعجال النتائج .

أما فؤاد دواره فقد أصبح ناقدا مسرحيا معروفا فى الحياة الأدبية بالقاهرة منذ كتب عن مسرحيات توفيق الحكيم التى أصدرها فى بداية حياته ، وكان قد نسيها ، فجمعها فؤاد دواره وقدم لها بدراسة أثناء حصوله على سنة للتفرغ العلمى من وزارة الثقافة .

أما صور الجامعة فهى فى القاهرة ولا سبيل الآن إليها . ولماذا تريد أن تتحسر على شبابنا ؟ تسألنى عن حياتى ؟ إن الباحث يود الحديث عنك لا عنى ومع ذلك فحياتى باختصار تتلخص فى أننى من مواليد عام ١٩٢٨ بالإسكندرية وحصلت على جميع شهادات الدراسة الابتدائية والثانوية والليسانس من الإسكندرية وتخرجت معك فى قسم اللغة العربية عام ١٩٥٠ بتقدير جيد جدا وحصلت على درجة الماجستير عام ١٩٥٤ والدكتوراة عام ١٩٥٧ من جامعة الإسكندرية أيضا بإشراف أ . د محمد حسين فى الأدب العربى الحديث .

عينت فور تخرجى عام ١٩٥٠ م أمينا بمكتبة جامعة الاسكندرية ، وفى عام ١٩٥٨ عينت مدرسا بجامعة عين شمس ، وأعرت إلى العراق عام

١٩٥٤ ثم رقيت إلى درجة أستاذ مساعد عام ١٩٦٥ وإلى الأستاذ عام ١٩٧٢ وسافرت إلى قطر لإنشاء قسم اللغة العربية بكلية التربية ١٩٧٣ ثم أنشئت الجامعة عام ١٩٧٧ فأنشأت كلية الإنسانيات (الآداب) وأنشأت عام ١٩٨٠ مركز الدراسات الإنسانية وتوليت عمادة الكلية ومدير المركز ثم وضعت الخطة الخمسية الأولى للمركز ونفذتها وتركت إدارته ومازلت عميداً للكلية .

أهم كتبي :

١ - تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج	ط . دار قطري بن الفجاءة - الدوحة قطر (طبعة ثانية)
٢ - قضايا في الأدب والنقد	ط . دار الثقافة - الدوحة - قطر .
٣ - المذاهب النقدية	ط . دار قطري بن الفجاءة - الدوحة - قطر (طبعة ثانية)
٤ - السيرة تاريخ وفنه	ط . دار القلم بالكويت (طبعة ثانية)
٥ - الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث	ط . دار القلم بالكويت (طبعة ثانية)
٦ - شوقي / الزهاوي / قاسم أمين - محمد توفيق البكري	(سلسلة أعلام العرب) القاهرة - المؤسسة المصرية .

أظن هذه العجالة تكفى الآن وإلى أن نلتقى لك أسعد الأمنيات ،

والسلام عليكم ورحمة الله .

قطر

ا . د ماهر حسن فهمى

ملحق رقم ٤ :

رسالة الدكتور ضياء الدين أحمد

عزيزي الأخ أبو أسل حفظه الله .

آمل أن تصلك هذه الرسالة قبل انفضاض المدارس والجامعات فى عطلتها الصيفية وقد حصل منتصف حزيران .

هذا وشكرا جزيلا لرسالتك الأخيرة المؤرخة فى ٢٩ / ٣ وكنت أنوى الرد عليها قبل هذا التاريخ إلا أن الزمن يعدو كأنه يطارد بسرعة فائقة .

سألتنى عن سنى الدراسة فى بعقوبة وعما إذا كنت أذكر من كان معى . . فقد أمضيت فى تلك المدرسة ثلاث سنوات ولا أذكر كثيرين من الذين كانوا معى غير نصوحى حسن راشد تخرج فيها بعد ضابطا وتوفى فى ريعان شبابه والمرحوم خطاب اسماعيل الذى أصبح فيا بعد مديرا عاما للجمارك ، ود. محمود مصطفى كنونه ، ولا أذكر أحدا ممن كان بعدى كعبد المجيد حسيب ، ولكننى أذكر الكثيرين ممن كانوا قد سبقونى بسنتين أو أكثر ، منهم لطفى عزت الذى أصبح فيا بعد رئيس بلدية بعقوبة بعد والده وهو شقيق عبد المجيد عزت الذى ذكرته وشاكر محمود شكرى الذى كان والده مديرا للشرطة (وشقيق الدكتور عزيز محمود شكرى) .

والعقيد المهندس جميل مهدى الخشالى وأخواه خليل مهدى وإبراهيم مهدى الخشالى ومن بعدهم أخوهم الأصغر المهندس عبد القاد الخشالى .

وكان هناك الدكتور عبدالحميدكاظم الذى كان يسكن قرية على الجانب الآخر من نهر ديالى للهويدر ، وكان معروفا عنه أنه كان يعبر نهر ديالى كل صباح ومساء واضعا دشداشته وكتبه فوق رأسه عندما يكون مستوى الماء مرتفعا فى ديالى ، والدكتو فاضل حسين أستاذ التاريخ فى دار المعلمين العالية (فيا بعد) واللواء المتقاعد (فيا بعد) فوزى جميل الذى شغل منصب سفير فى روما بعد تقاعده من الجيش .

ومن مدراء المدرسة أذكر أبا صيميم عزيز سلمى وكان قد عاد لتوه من تركية ولغته العربية ضعيفة ـ ولو أنه فى حينه ترجم كتاب (جول فرن) ـ رحلة إلى القمر ـ وبيع إلى التلامذة .

كما أذكر المدير الأخير إسماعيل حقى وهو صهر العائلة المحلية المكونة من مظفر فهمى وأنور فهمى وأخويهما أكرم فهمى وجاهد فهمى . . ومن المدرسين أذكر جميل ألمان وهو ضابط متقاعد وضياء الدين الألوسى وشقيقين أسمهما حميد ومجيد ولا أذكر اسم أبيهما ومن المتصرفين أذكر على جودة الأيوبى وجميل المدفعى ومحمود نديم الطبقجلى ومن الأطباء أذكر الدكتور فرج وكان مسيحياً متقدماً فى السن رعانى بعنايته مدة طويلة حتى شفانى الله من مرض التيفوئيد بقدرة القادر فى وقت لم تكن المضادات الحيوية معروفة .

الحال صبحى بصحة جيدة وقد ذكر لى أخيرا أنه سيبلغ الثمانين خلال سبعة أشهر . ولعلك ستسمع منه بشكل أفضل لو ارسلت له رسالة .

وفى الختام أرجو لك العافية المستديمة وراحة البال .

أخوك

ضياء الدين أحمد

روما فى ١٢ ـ ٦ ـ ١٩٨٩ م

ملحق رقم ٥ :

حلو
الذكريات

فى صور



طلاب كلية الآداب فى رحلة شرق الدلتا ٢٠ / ٣ / ٤٧ على سطح اللنش فى الطريق من بور سعيد إلى المطرية .



فى الإسكندرية فى وداع جاسم عبد الحسين السعدى فى ٢٧ / ١٢ / ٤٧ مع أحمد نجم الدين فى الميناء .



حفلة من حفلات جمعية الشبيبة العربية وقد جلس يوسف عز الدين وإلى جواره محاسب القنصيلة وميري فتوحي والقنصل العراقي وزوجته رباب الكاظمي والدكتور محمد حسن الزيات المشرف على الجمعية في الإسكندرية ١٩٤٨ .



قسم اللغة العربية سنه ١٩٥٠ .

الجالسون فؤاد دواره وتوفيق وصفى وعبد العزيز الزهيرى والعزب ويوسف عز الدين والجالسون على المقاعد بسيمة وبهيجة العزونى وماهر حسن فهمى وعواطف عبد السلام وميرى فتوحى والواقفون عبد الحليم غانم ومحمد باقر عبد الغنى ومصطفى الشويمى وبشير عبد البر .



فى لندن فى حديقة هايد بارك ١٩٥٥ .



فى محطة القطار فى بغداد عند السفر إلى لندن وفيها الإخوة عبد الرزاق السامرائى واديب السامرائى وسعدى السامرائى ويوسف عز الدين وسجاد الغازى وكامل مصطفى الشيبى ١٩٥٤ .



فى السفارة العراقية فى لندن مع سفيرة الهند ١٩٥٥ مع فيجايا لكشمى بندت



قسم اللغة العربية مع الدكتور برهام (الجالسون صابونة وكامل مصطفى الشيبى وبسمة والدكتور برهام وميرى فتوحى وعواطف عبد السلام ويوسف عز الدين - والواقفون عبد الحليم غانم وبشير عبد البرفياقر عبد الغنى ومصطفى الشويمى وعزب وتوفيق وصفى وحميدو وفؤاد دوارة وعبد العزيز الزهيرى) .



فى المجمع العلمى العراقى ١٩٦٢ .



فى أسوان سفرة مجمع اللغة العربية مع العلامة محمد تقى الحكيم .



فى المجمع العلمى العراقى الدكتور الجليلى والدكتور باكزه حلمى والدكتور عبد اللطيف البدرى والدكتورة بهيجة الحسنى والشاعر عمر أبو ريشة ويوسف عز الدين



مع نور الدين صمود وعبد العزيز سلام وزوج ناجية ثامر وصالح جودت وعمر فضة وناجية ثامر ومفدى زكريا ١٤ / ٥ / ١٩٧٢ .



الأمسية الشعرية مساء الجمعة ١٤ / ٥ / ١٩٧٢ التى اقيمت بقاعة احمد العاق فى مركز الفنون الموسيقية التونسية .



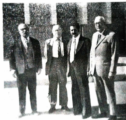
يوسف عز الدين وبجانبه مفدى زكريا وصالح جودت فى مركز الفنون الموسيقية التونسية فى تونس ١٤ / ٥ / ٧٢ .



مع الاستاذ الكبير محمد خلف الله احمد (ر) والدكتور شاكر خصباك فى القاهرة فى فندق سميراميس ١٩٧٣ (من الشمال إلى اليمين) .



فى وداع السفير الكاتب سعدى عثمان ١٩٧٤ مع نعمان ماهر الكنعانى .



مع إبراهيم العريض وأحمد السقاف والاستاذ داود كاون فى المجمع العلمى العراقى ١٩٧٧ .



الفنان عبد الرحمن الكيلانى يتسلم جائزته من الدكتور يوسف عز الدين رئيس اتحاد الكتاب والمؤلفين ومعه الدكتور أحمد مطلوب .



رئيس جمعيه الكتاب والمؤلفين مع الدكتور احمد مطلوب لتوزيع جوائز المسابقات الثقافية .



فى حفل الأستقبال الذى أقامه اتحاد الكتاب بدار الثقافة (ابن خلدون) مع الأستاذ العروسى المطوى .



مع العلامة الدكتور إبراهيم مدكور والأستاذ عبد السلام هارون في عيد مجمع اللغة العربية الخمسيني في قاعة المجمع سنة ١٩٨٤ .



في مكتب الأستاذ أنيس منصور في القاهرة مع الأستاذ جمال حماد ١٩٨٥ .



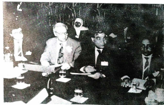
أحد الاجتماعات فى (بيت الحكمة) فى تونس .



مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة مارس ١٩٨٥ مع الاستاذ الدكتور محمد الطيب النجار
والشاعر حسن القرشى فى حفل الغداء فى هلتون النيل .



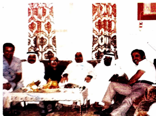
في مؤتمر مجمع اللغة العربية مارس ١٩٨٥ في حفل الافتتاح في مقر الجامعة العربية مع الدكتور عدنان الخطيب .



في المؤتمر السادس للمجمع الملكي لبحوث الحضارة ١٩٨٧ مع الاستاذ فهمي هويدي والدكتور صالح أحمد العلي .



كلية الآداب جامعة البحرين مع الاساتذة .



الدكاترة احمد كمال زكي،منصور الحازمي،يوسف عز الدين ـ شكري عياد واحمد الضبيب ويوسف نوفل في الرياض .



مع الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة .



بين الدكتور المقالح والأستاذ أحمد حسين المروني فى حفلة الدكتور المقالح فى صنعاء .



مجلس كلية الآداب جامعة الإمارات فى ساحة الكلية .



جامعة الإمارات فى العين عميدا للآداب وعميداً للدراسات العليا والبحث العلمى مع رؤساء
الأقسام فى كلية الآداب



مجمع اللغة العربية فى القاهرة مع العلامه الدكتور شوقى ضيف .



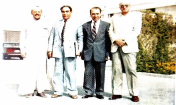
فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٨٧ ويظهر الدكتور الطيب والاستاذ عبد السلام هارون (ر) والدكتور ابو شادى الروبى والاستاذ أحمد عقبات .



فى نادى الرياض الأدبى بين الأستاذين الكبيرين ابو تراب الظاهرى وابو عبد الرحمن الظاهرى



إمام منزل الشيخ عبد العزيز السالم فى الصف الأول الدكتور محمد حسين (د) والدكتور ناصر الدين الأسد والصف الثانى الدكتور احمد الضبيب والشيخ عبد العزيز الرفاعى والشيخ عبد العزيز السالم والدكتور منصورالحازمى .



فى البحرين - دعوة الدكتور كمال القيسى فى نادى البحرية مع الدكتور عبد الله الرفاعى .



فى اجتماع مؤسسة آل البيت فى عمان .

فى مجمع اللغة العربية مع العالم الجليل مهدى علام والاستاذ عبد السلام هارون (ر) والأستاذ الدكتور بشر وإبراهيم الترزى سنة ١٩٨٧ .

فى مجمع اللغة العربية سنه ١٩٨٧ بالقاهرة الاستاذ وديع فلسطين والاستاذ داود كاون الأستاذ أحمد عقبات ويوسف عز الدين



مع الدكتور عبد المنعم إسماعيل والدكتور يوسف نوفل فى زيارة فى فندق شبرد ١٩٨٧ .



فى مجمع اللغة العربية مع الأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور ١٩٨٧ .



مع الدكتور عبد العزيز المقالح في جامعة صنعاء .



مع اسل وسعد وميثل فى مانجستر ١٩٨٩ .



مع طلاب جامعة الملك سعود ١٤٠٥ ــ ١٩٨٥ .

ملحق رقم ٦ :

من مؤلفات
الدكتور يوسف عز الدين

١ ـ الشعر العراقي في القرن التاسع عشر :
خصائصه وأهدافه :
بغداد ، وزارة التربية ١٩٥٨
القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥
القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧

٢ ـ الشعر العراقي الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية :
بغداد ، وزارة التربية ١٩٦٠
القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥
القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ .

٣ ـ خيري الهنداوي حياته وديوان شعره :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٦٥
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٤

٤ ـ في الأدب العربي الحديث (بحوث ومقالات نقدية) :
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٦٧
بيروت والقاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣
بيروت ، دار العلوم في الرياض ، ١٩٨١

٥ ـ داود باشا ونهاية المماليك فى العراق :
بغداد ، دار البصرى ، ١٩٦٧
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦

٦ ـ مخطوطات عربية فى مكتبة صوفية الوطنية :
بغداد ، المجمع العلمى العراقى ، ١٩٦٨

٧ ـ الاشتراكية والقومية وأثرهما فى الأدب العربى الحديث :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٦٨
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦

٨ ـ شعراء العراق فى القرن العشرين (جـ١) :
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٦٩

٩ ـ الرواية فى العراق ـ تطورها وأثر الفكر فيها :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٣

١٠ ـ فهمى المدرس ـ من رواد الفكر الحديث :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٦٩
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦

١١ ـ القصة فى العراق ـ جذورها وتطورها :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٤

١٢ ـ تطور الفكر الحديث فى العراق :
بغداد ، دار المناهل للترجمة والنشر ، ١٩٧٦

١٣ ـ إبراهيم صالح شكر وبواكير النثر الحديث فى بغداد :
القاهرة ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، ١٩٧٥

١٤ - قلب على سفر (رواية) :
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨
القاهرة ، دار الشروق ١٩٨٧

١٥ - مخطوطة شعر الأخرس :
بغداد ، مطبعة العانى

١٦ - النصرة فى أخبار البصرة (للأنصارى) :
بغداد ، المجمع العلمى العراقى ، ١٩٦٩
بغداد ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦

١٧ - فى ضمير الزمن (شعر) :
الإسكندرية ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٥٠
القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٧٠
الرياض ، دار أمية للنشر ، ١٩٨٥

١٨ - ألحان (شعر) :
الإسكندرية ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٥٣
القاهرة ، دار العلم للطباعة ١٩٧١
الرياض ، دار أمية للنشر ، ١٩٨٢

١٩ - لهاث الحياة (شعر) :
بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧

٢٠ - من رحلة الحياة : (شعر) :
بغداد ، مطبعة أسعد ، ١٩٦٩
القاهرة ، دار الإبداع الحديث ١٩٨٥

٢١ ـ فصول فى الأدب الحديث والنقد :
دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨١

٢٢ ـ Modern Iraqi Poetry, Social and Political Influences.
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١

٢٣ ـ Poetry and Iraqi Society: 1900-1945.
بغداد ، مطبعة العانى ، ١٩٦٢

٢٤ ـ قضايا من الفكر العربى :
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨

٢٥ ـ الحركة الفكرية فى العراق :
القاهرة ، جامعة بغداد ـ ١٩٨٤

٢٦ ـ التحدى الحضارى والغزو الفكرى :
الرياض ، دار أمية للنشر ـ ١٤٠٥ هـ

٢٧ ـ Songs from Baghdad-London. 1984.

٢٨ ـ التجديد فى الشعر الحديث ، بواعثه النفسية وجذوره الفكرية
نادى جدة الأدبى ١٩٨٦

٢٩ ـ ثلاث عذارى (قصص قصيرة) :
الرياض ، دار أمية للنشر ١٩٨٧

٣٠ ـ La Spontaneité ترجمة الدكتورة درية نجم ١٩٨٦ و١٩٩٠
القاهرة ، دار الإبداع الحديث

٣١ ـ تراثنا والمعاصرة :
القاهرة ، دار الإبداع الحديث ١٩٨٧

٣٢ - همسات حب مطوية :
القاهرة ، دار الإبداع الحديث ، ١٩٨٧

٣٣ - قول فى النقد وحداثة الأدب :
الرياض ، دار أمية للنشر ، ١٩٧٨

٣٤ - وعادت الذكرى بغرائبها وطرائفها :
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨

٣٥ - أثر الأدب العربى فى الأدب الغربى :
دار الصاقى للثقافة والنشر الرياض ، ١٩٩٠

٣٦ - إلى الديار الممنوعة :
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩

٣٧ - حلو الذكريات ومرها :
القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١

٣٨ - بين الحداثة والمحافظة :
طبعة موؤده . ١٩٩٠

٣٩ - النورس المهاجر (رواية) .
(فى المطبعة)

٤٠ - آراء نقدية موؤدة ٠
(فى المطبعة)

ملحق رقم ٧ :

فهرس الأعـــــلام

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(جـ)

(حـ)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

محتويات حلو الذكريات ومرها

الملاحق :-

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٢/٣٠٠٠

ISBN 977-00-3027-9



MEMORIES : SWEET AND BITTER

Prof. YOUSIF IZZIDIEN

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب